

للكبار فقط
افتح
أنا نادية
تامر عطوة

اسم المؤلف: تامر
اسم الكتاب: افتح أنا نادية
تدقيق لغوي: سارة صلاح
الطبعة الأولى: 2019
رقم الإيداع: 2019/1479
الترقيم الدولي: 978-977-670917-1

ديير للنشر والتوزيع©

2 عمارات الو ادي المنطقة 11 الحي الثامن مدينة نصر القاهرة
تليفون: 002024725789

E-mail:deer.publishing@gmail.com
Facebook @ deer.publishing
Instagram @ deer_for_publishing
Twitter @ deerpublishing
WhatsApp : 00201010106268

#في_القراءة_حياة
#القراءة_حب

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
القاهرة- جمهو رية مصرالعربية

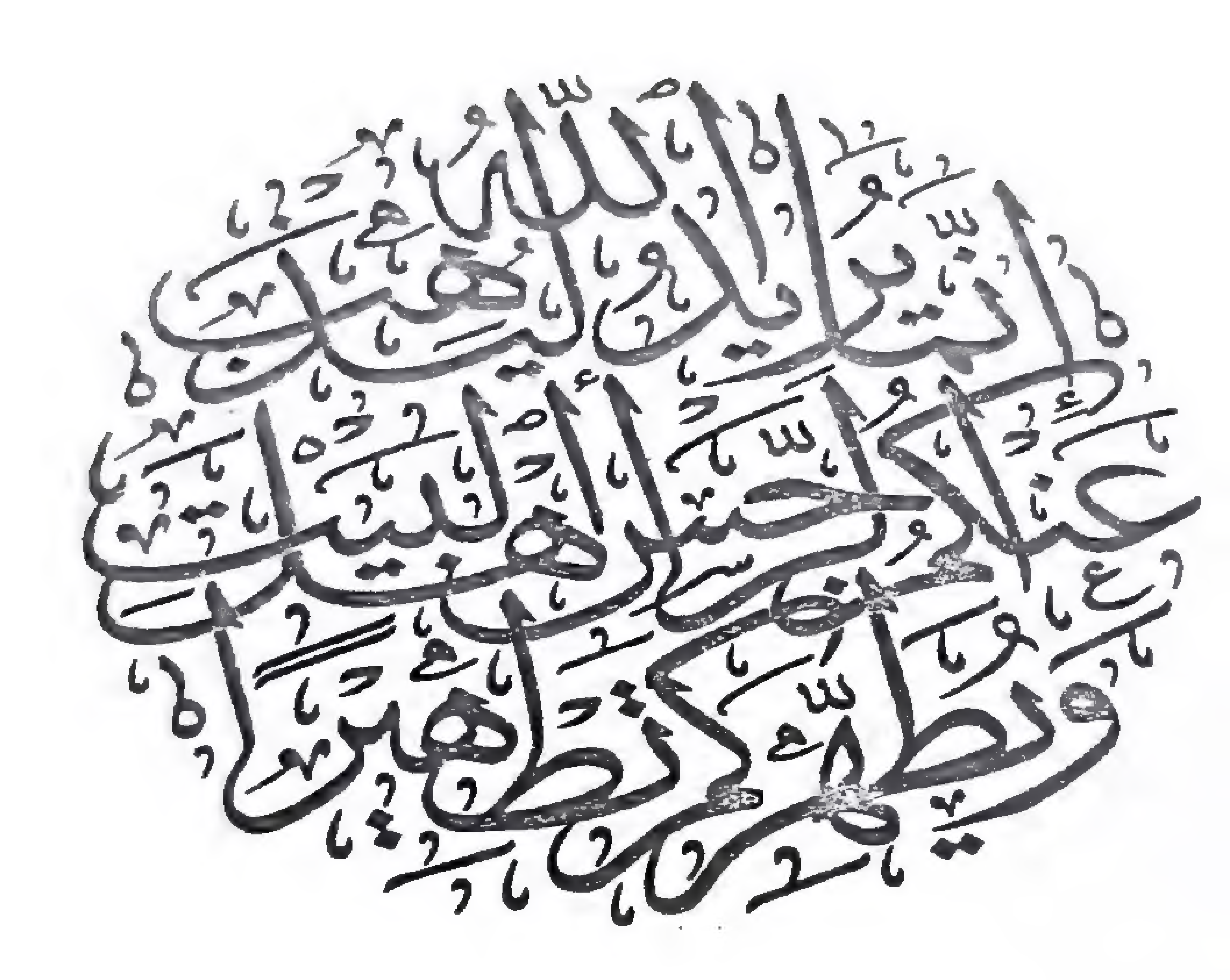


تامر عطوة

افتح.. أنا نادية

رواية




إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا

ربيع 1995

السيدة زينب

المكان: شقتي المتواضعة بحي السيدة زينب.

بالتحديد فوق سطح أحد البيوت العتيقة من شوارع جنينة ناميش القديمة، وبالتحديد أكثر بشارع سيدي علي الماوردي رقم(00) ومنزل شديد القدم مكون من أربعة طوابق شاهقة، أحتل أنا شقة (السطوح) والتي تمثل ثلث الدور الأخير.

الساعة تخطت الثانية بعد منتصف الليل.

نعست وأنا أستذكر دروسي المرهِقة متكفئًا على الطبلية الخشبية والمفروشة بكتبي ومراجعي..

الجو حار خانق من شهر مايو، وأزيز تلك المروحة يمتزج تلقائيًا مع الرطوبة صانعًا طقسًا من العرق الحبيب والذي ينز من وجهي سائلاً على كتاب (الكيمياء العضوية) وقد انطبعت السطور على صفحة وجهي لتأكيد الاغتصاب؛ فأنا على أبواب الامتحانات حيث التعاسة والرغبة الشديدة في الهروب ولا وقتَ كافٍ لأن أعمل وأدرس في نفس الوقت؛ فأنا حاليًا في العام الثالث من دراستي الجامعية بكلية الزراعة التعسة شديدة الوطء والصعوبة، بل وتطاردني يوميًا كوابيس الامتحانات الشهيرة والتي تطارد كُلّ مَن هو في مرحلة الامتحانات وتستمر معهم لبقية العمر في أغلب الأحوال.

الوجود ساكن مُشبّر ببخار الماء والموسيقى التصويرية هي أزيز مروحة المصابيح الحربية الصدئة مصحوبة بتنفُسي اللا منتظم وأنا في وضعي المتقدم في الغطيط والشخير من أثر التواء عنقي وقد انكفأت نائمًا على صفحات الكتاب الشريرة، فجاءة فتحت جفوني إذ شعرت بهزة عميقة، وإن كانت مألوفة بالنسبة لأرضية شقتي العجوز، فكل جدران وأرضيات البناية مطعمة أصلاً بالعروق الخشبية الممتدة تحت كل البلاط ومن ثم كنت أشعر بتلك الاهتزازات المرعِبة كلما داست أيُ قدم (بعض المواضع) في الأرضية سواء في شقتي أو حتى في السطوح خارج الشقة.

انتبهت جزئيًا مُصدرًا خنفرة وعدوانية وتأففت من التصاق صفحات الكتاب بجلدة وجهي بسبب رطوبة العرق، ومع أننا ما زلنا رسميًا في فصل الربيع إلا أن الليلة باتت أكثر حرارة ورطوبة من هجير الظهيرة، تمطيت مادًا ذراعي للأمام ومحاولاً طرد ذلك التيبُس الناتج من وضعي السابق وأنا أتثاءب كقرود اليابون بينما تمزقت إحدى الصفحات ملتصقة بصدغي، نظرت مبهوتًا لأتصفح الضرر لأجدها من أهم الصفحات الخاصة بالمعادلات الكيميائية، وقبل أن أغضب قطعت بقسوة إذ صدرت هزة تالية أكبر تنبئ بأن هناك من يمشي بثقل على السطوح خارج شقتي.

ثمة خطوات ثقيلة تتحرك على أرضية السطوح في هذا الوقت المتأخر من الليل، انتهبت بتعصب وأنا أصيخ السمع لعلي أستوضح شيئًا ما.

سكت الاهتزاز وهمدت الطقطقة تاركة إياي في حالة من الهلع غير المبرّر.

وساد صمت كامل، اقتربت من الباب وقلبي موشك على الانخلاع ثم انتفض بدني كله للوراء إذ سمعت.. سمعت.. سمعت مواء قط.

كان مواءً حزينًا بطيءَ النغمة شديد الكثافة، مواء زاخم ممطوط كأنه شبّة طويلة الموجة في وجه من تبغض، مواءً يورّث في العقل حزنًا عميقًا، كان مواءً متداخلاً كعويل الريح في الخرائب، كصوت ألف روحٍ تتعذب في ذات الوقت، شعرت بعملية عصر عنيف في قلبي ودهشت من كوني فعلاً موشكًا على البكاء على شيء لا أعرفه،

مع نزعة خوف كبيرة متوطنة مغروسة في أعصابي، كنت موشكًا على البكاء كما يبكي المحكوم عليهم بالإعدام قبل تنفيذ الشنق، كل هذه المشاعر اعترتني في لحظات وأنا أسمع ذلك النحيب المتنكّر في صورة مواء قطة، مجرد مواء وقبل أن يتلاشى صداه انتفضت مرة أخرى متراجعًا للوراء خطوةً، إذ سمعت طَرقاتٍ عادية على الباب، طرقات متأنية ولكنها ضاغطة كان من يطرق الباب يملك كفًا من صلبٍ..

دب.. دب.. دب..

هناك من يطرق باب شقتي بإصرارٍ وبطرقات عظيمة كادت أن تُفصل الباب من إطاره.

تعاظمت دقات قلبي بلا معنى محدد، تلك الطرقات الهائلة تشي بعملاق يقف على الجانب الآخر من الباب، عملاق تهتز لخطواته أرضية المكان.

ووجدت أن جسدي مرتبطٌ بتلك الخبطات فكل طرقة هي انتفاضة تشمل جسدي المبتل باللزوجة والعرق والحزن المفاجئ، غضافة لأن تركيزي نفسه لم يكن واعيًا بسبب المعادلات الكيمائية القاسية، اقتربت من الباب المتهالك بآلية غريبة إنني أمشي بلا إرادة، هناك شيء يحركني للباب ويجعلني أتواصل بربع فهم..

هناك مَن يطرق الباب بعنفٍ لدرجة أنه سوف يخلعه من مفاصله..

احتبسَ صَوتي من الذعر..

دب.. دب.. دب..

التصقت بالحائط المجاور للباب فأنا لا أجرؤ على الوقوف خلفه أبدًا في مواجهة تلك الضربات القوية فقد ينفجر الباب بين لحظة وأخرى في وجهي..

وبصوت جافٍ تمامًا من اللعاب همست بارتعاش:

- مين..؟.. مين؟

صمتت الدقات الرهيبة.

أسمع نهنات حزينة في الناحية الأخرى، صوت بكاء مكتوم بالحسرة واليأس،

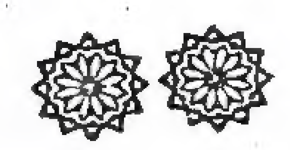
نحيب متواصل متأصل كبكاء نفسك على حالك، كنت أسمع وتنتابني مشاعر مختلطة بين الحزن والرغبة في البكاء والخوف..

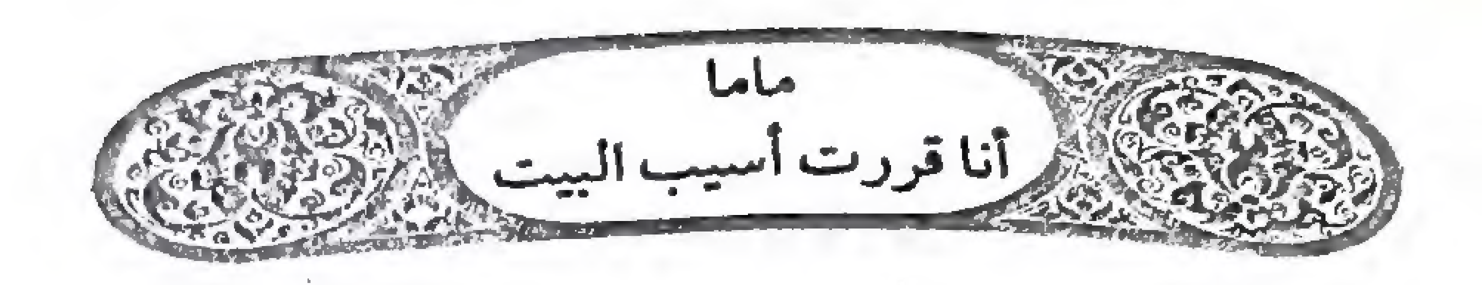
ثم طرقات ثم سمعت صوتًا أنثويًا باكيًا يأمرني من بين عبراته بطريقة مرتعشة

- افتح..

تجمدت للحظة بينما رنين الأمر يكحت جدران وعيي، لم يكن صوتًا مألوفًا علاوة على الوقت المتأخر، مَن عساه يزروني في تلك الساعة النحيسة، ليعاود الصوت إلقاء أمره الباكي قائلاً بحزم:

- افتح.. أنا نادية.





ماما
أنا قررت أسيب البيت

1994

لم تكن رغبتي في الاستقلال عن بيت أهلي العامر هي مجرد رغبة، بل كان حلمًا أتمنى تحقيقه طوال الوقت، كنت أتخيل مدى روعة الاستقلال والحرية بعيدًا عن منبتي، ولأجل هذا الإجراء فعلت المعجزات، ومارست التخطيط والكذب لعامٍ كاملٍ، كنت أتحرّق شوقًا لمشهدي وأنا أفتح باب شقتي وأدلف لداخلها وأخرج وأسافر وأسهر بلا رقيب ولا حسيب، كفاني ما حدثَ في الثانوية العامة ونظرات الشماتة المصاحبة لعبارات العزاء التي تلقيتُها بعد مجموعٍ صادمٍ وغير متوقع أبدًا من طالب متفوق وله سمعة تطبق الآفاق، فقد حصلت في الثانوية العامة على سبعة وستين بالمائة، نعم رقم بطعم النكسة والانهزام، نعم هذه هي الحقيقة، أصابني الوجوم كما أصاب كل مَن حولي بمختلف المشاعر، وجاء تنسيقي في كلية الزراعة بجامعة القاهرة، كنت أنوي إعادة العام الدراسي، وكنت مُصرًا لدرجة الغباء لولا أن نصحَتْني أمي بكلماتها الخالدة: "اللي عاوز يتفوق يقدر يتفوق في أي مكان مش شرط تبقى دكتور ولا صيدلي عشان تبقى مرموق، ممكن تتفوق في الزراعة برضو."

ولم أكن أعلم وقتها أن كلية الزراعة تلك هي أكبر خازوق متعرج تجلس عليه في حياتك ودون أي مبالغة.. شيء جميل أن تعرف قيمة نفسك الحقيقية

وأنت جالسٌ على خازوقك الخاص، رباه إنه لشيء قاسٍ جدًا، وفي الحرم الزراعي
وجدت مئات من قرنائي، نعم قرنائي من بني الطلبة، من تعلقوا بأحلام التفوق دو
تحقيق شروطه، وفي الأمر أيضًا زمالة أشبه بزمالة الإصلاحيات وهو أن تزامل
هؤلاء المحبطين مجروحي الكرامة وسط مناهج علمية لا ترحم، أقسم بالله كان
مناهجَ لا ترحم، آلاف المعلومات الجبرية عن كل ما يمت للحياة بصلة، لا تنسَ أن
لتكلم عن الزراعة بكل مشتملاتها في عصر غير زراعيٍّ بالمرة، عصر مبارك بكل فشله
وقمامته وموظفيه ورواتبه في مطلع التسعينيات، ومن ثم قررت الاستقلال عن بيت
الحبيب وأنا بَعْدُ في التاسعة عشر، وفي العام الدراسي الأول كنت قد ربحت بعض
الوظائف والأعمال التي ستؤهلني للحركة الكبرى في حياتي، فعملت كنادل في أحد
كازينوهات شارع الهرم؛ أقدّم العصائر والخمور وأمارس ترصيص أحجار النرجيلة
للزبائن، منتظرًا قروشًا كبقشيش من روّاد الملهى المضروبين بالسعادة الكحولية،
لأعود لشقتي التعسة أنامُ كالقتيل لألحق بكليتي العملية المرهقة لأبعد حدود
الإرهاق.

كنتُ مُجبرًا كليًا على العمل، لقد حسبتُ بغبائي أن مَن يريد الاستقلال عن
أهله فهو يفعل بمجرد أن يقرر.. لا يا رقيع منك له، لتعلم أن أقل تفاصيل الحياة
وأنت وحدك ستطالبك بالتفيذ الفوري دون تسويف، وبالرغم من جسدي المكدود
وأذني الموشكتين على الانفجار بسبب هزيم الموسيقى طوال الليل، لا بُدّ من غسل
ملابسي حتى أرتديها جافة في الصباح ولا بُدّ ألا أنسى الجوارب كما يحدث في كل
مرة، وأنظف المكان بكل الحيل والطرق وألا أترك الحمّام متسخًا وأن أتأكد من غلق
الأبواب والنوافذ، و... و... و... و... إلى آخر التفاصيل لحياة بدائية لشاب لا يملك
موقدَ غازٍ ولا غسالة ولا ثلاجة ولا خزانة ثياب، فقط فراش معدني صدئ تنام عليه
حشوة قديمة مكسوة بعدة طبقات صلبة من القطن الذي تحوّل إلى رمالٍ وملقاة
على فراش حديدي صدئ يصرخ من الاحتكاك كلما اعتليتُه (زين زيين زووء)، ولكن

الأمر لا يخلو من بعض الممتلكات؛ موقد الكيروسين الشهير بـ (وابور الجاز) ومروحة قديمة من مخلفات المصانع الحربية، وطقم صالون عاجز متهالك مملوء بالجيوب وتخرج شعيراته الدموية (أقصد القشية) من أنحاء متفرقة من أجساد مقاعده العجوز، كما أملك مائدة أرضية (طبلية خشبية) أستذكر عليها دروسي الجهنمية الناضحة بالكيمياء والفيزياء والرياضيات والحشرات والإنتاج الحيواني والمحاصيل والجيولوجيا، وكل تلك الأسماء الملعونة للعلوم التي ندرسها بتلك الكلية العانس على مجتمع الجامعة، كنت أتصور قصة حبي في الجامعة فوجدت هناك إناثًا ولم أجد فتيات، كلهن محجبات مهووسات بالانعزال عن الشباب، يقعن في تلك المنطقة الخطرة بين تشابهها مع أمك أو أختك وفي جمالهن يقعن أيضًا في منطقة وعرة بين الأنوثة والصبيانية، بعضهن كُن يملكن شوارب خفيفة بالمناسبة، ومع كل هذا كنت سعيدًا، فعلاً سعيدًا.. لكن بسبب إيه مش عارف!

"خلّي بالك لحسن نادية تجيلك..

إلا نادية..

إوعى تجيلك نادية.. لو جتلك نادية تبقى أيامك سودا"

عبارات كنت أسمعها من أم زينهم وشادية والبلطجية والبقال والمكوجي وبائع الطعمية والزبال..

كلهم يتحدثون عن نادية..

كلهم يرتجفون من نادية..

يقولون المعلومة وهم يتلفتون حولهم بحذرٍ ويهمسون بقلق بالغ كما لو أنها ستولد من العدم خلف أكتافهم لتغرس أنيابها في أعناقهم..

فمَن هي تلك النادية المسبِّبة للرعب في قلب هؤلاء الناس؟

أهي أخطر من البلطجية؟

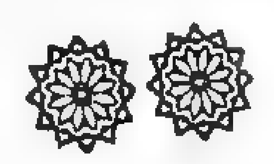
اهي أشرس من ضباط القسم؟

ثمة غلالة قاتمة تحيط بسيرة نادية

ثمة قهر في النظرات وهمس مذعور في العيون حين تجيء سيرة نادية

وقبل الدخول مع نادية في القصة

أريد أن أعرّفكم بالبيئة المحيطة واعلموا جيدًا أن كل شخصية وكل تفصيلة لها علاقة أكيدة بـ. بنادية..





بيت السيدة

1995

بناية قديمة تمثل التماسك، تُصارع البقاء ولو كانت من لحم ودم لسعلت

ويصقت في وجه سكانها كما يفعل مريض الدرن، مكوّنة من أربعة طوابق.

وأنا أحتل الطابق الرابع - على السطوح - فشقتي عبارة عن غرفة وصالة تحتل

ثلث السطوح الخلفي بينما يترامى السطوح نفسه بسوره المتهالك وأرضيته التي لا

تعرف الخطوط المستقيمة أمام شقتي متجاوزًا مساحتها بثلاثة أضعاف.

أولاً: دعوني أصف لكم عمارتي وشقتي الأقرب لحظيرة دجاج مرتبة للآدميين.

فالعمارة عبارة عن بيتٍ من بيوت السيدة زينب العتيقة شاهقة السقف

والتي تسمع فيها طقطقة الأرضية المبطنة بالعروق الخشبية حين تخطو عليها

مما يسبب لمن لا يعرف هلعًا كبيرًا كأن البيت سيقعُ مطغوطًا على نفسه، والبناية

نفسها كمرضعة عجوز لم تكف أبدًا عن إخراج صدرها الأعجف لإطعام الجوعى من

معدومي الدخل أمثالي.

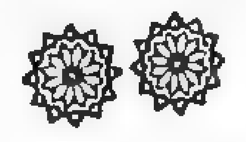
استأجرتها من حفيد حفيد مالكها الأصلي بمبلغ خمسين جنيهًا بعد أن بذلت له

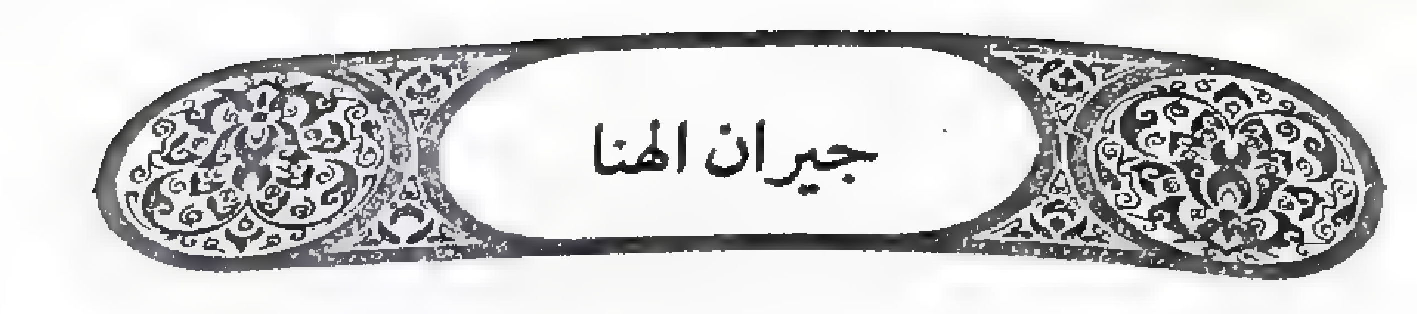
مبلغ ألفين 2000)) من الجنيهات المصرية.

كنت في بداية العقد الثاني من العمر، مفعمًا بالاحلام والانطلاق والتهور.

وأحببت فيها تلك الملكية التي لا يعرف قيمتها إلا من حُرِمَ من مِلكيّة المكان وسطوته على نفسه، كما أنها قريبة جدًا من الميدان بكل ماركات الأتوبيسات والسيارات والمزدان بالمسجد العامر ذائع الصيت مسجد السيدة زينب؛ فمَن مِن أبناء مصر لا يعرف حي السيدة العتيق؟ ولا مسجد السيدة الشريف الذي هو قِبلة كل مضطرب ومحتاج فهي كما يقول الصوفيون وشيوخ الطرق (الست اللي في كل قضية تبت)هي السيدة التي تفصل في كل القضايا التي تُعرَض عليها، لا أحد ينكر أن حي السيدة هو الأرشق والأقدم والأكثر غنى من أحياء القاهرة الفاطمية على الإطلاق.

فهو ليس حيًا سياحيًا كالحسين ولا حيًا منعزلاً كحي السيدة نفسية بل هو حي شعبي فوار بالحياة والحركة والحكايات.





جيران الهنا

ساكن الدور الأول هي عجوز ضريرة فائقة الجاذبية والطيبة والكرم اسمها (أم زينهم) ومعها ابنتها الأولى (أبلة كريمة) وهي عجوز مثل أمها ومطلقة من ابن خالها منذ عقود، وتعيش معها ابنتها في التي هي في مثل عمر (عزة) أو تزيد عني قليلاً وتعمل في فرع دجاج كنتاكي التحرير، فتاة أخرى تجري على رزقها من أجل تحصيل ما يسد احتياجاتها في جهاز عرسها المحتمل. والأخت الثانية (أمل) موظفة حكومية في الأربعين محترفة عنوسة تعمل في (عمر أفندي) بالميدان وتتمثل وظيفتها في الجلوس لما بعد العصر كي لا تبيع أي شيء من معروضات عمر أفندي التي عزف المصريون عن شرائها منذ زمن؛ فسلسلة عمر أفندي اليهودية تعبّر تماما عن تلك العنوسة المغلفة للتسعينيات. بابهن مفتوحٌ طوال الوقت وكأن بئر السلم امتدادٌ جغرافي لشقتهن، يمارسن مراقبة الطالع والنازل من باب التسلية وإراحة عقولهن من التفكير في أي شيء آخر، تتصدر دور المراقبة العتيدة (أبلة كريمة) بكل مشتملات ربات البيوت من دقة وعصبية وصراخ وغناء وضحكة طفولية تنبع من قلب مهموم بقلة الحيلة تتكلم بسرعة كما كانت دجاجة على وشك أن تبيض، يشوب ملامحها شيءٌ من الـ.. من الـ.. من البلاهة نعم، هناك بعض البلاهة في تصرفاتها وعصبيتها الزائدة عن اللزوم وكل تلك الخطورة الطفولية التي تصبغ كلامها المتدفق بلا حساب.

أما الطابق الثاني فتسكنه عائلة ريفية من محافظة الشرقية مكونة من أم

عظيمة الأرداف ذات صوت أخنف تخرج الحروف مبللة بالزبد والسمن والأمثال الريفية القارحة، أصادفها يوميًا في صعودي أو نزولي الدرج الحجري وأراها جالسة على الدرج المقابل لشقتها تفعل شيئًا غذائيًا ما، كانت بيضاء البشرة مترامية الأطراف اسمها (شادية) وعددٌ لا يقل عن سبعة أطفال لهم نفس الشكل وكأنها تبيضهم بانتظام، فلم أستطع التفرقة بين أبنائها قط وإن كانوا يملكون سمات المَلاحة والجمال كما القطط، أما زوجها (محمود النمس) فهو رجلٌ نحيفٌ جدًا وسيمُ الملامح حلو اللسان يهتم بهندامه ويقرط حاجبيه بالفتلة ليبدو أكثر نظافة، ويعمل في محل لبيع الملابس النسائية الداخلية في الميدان ويملك سطوة هائلة على زوجته؛ فالشقة تقريبًا ملكٌ لثلاثة إخوة من الذكور تصدرتهم الست شادية بزواجها من أحدهم واحتلتها بالكامل، دائمًا مقطبة الحاجبين متجهمة لسبب غير معلوم، تترنم بالأمثال الريفية القارحة معظم الوقت وكأنها تُردِّدها فقط كيلا تنساها ولا تتمتع بأي علاقة طيبة مع الجيران ومن ثم فغلالة الوحدة والنشوز ترافق محياها، تهوى بشدة تربية الدجاج لدرجة أنها تحتفظ بقفص ضخم على الدرج أمام شقتها، وتأوي فيه ما لا يقل عن المائة دجاجة، عندما أمر بطابقها الثاني تقتحمني روائح النشادر وأصوات الدجاج المحبوس بقفصها المصنوع من الخوص الثقيل، كانت امرأة مشاكسة وجارة مزعجة يظهر عليها القرف والاحتقار، عندما تتكلم معها بطريقة تلقائية لا تكف عن ضرب أطفالها وتنظيفهم وتربية الدواجن وإنتاج النشادر وبيض الدجاج الذي ينكسر غالبًا في القفص قبل أن تستولي عليه شادية، وكنت أسمع منها أمثالاً لكل موقف وكأنها سيناريست شاطر يصف الموقف بجملة واحدة.

(اتلمت المسحة ع البلاعة والاتنين بقو جماعة)

(خطب الخطيب على مصار اليخني كنت فين يا عدس لما الرز دوخني)

وآلاف من تلك الأمثال الريفية الحارقة ذات الرنين الموسيقي المُحبّب والتي في كل مرة تلقي فيها بمثلها تجعلني أفغر فاهي كالمغلقين من وقع الكلمات وسجعها المنظوم.

(جوزها يوطرّها وعشيقها يجرجها)

- أه طبعًا يا أبلة شادية.

- أبلة في عينك، إنت التعميت في نواطرك.

يسكن الدور الثالث أحفاد أحفاد مالك العقار، وهم عبارة عن مجموعة شباب من البطلجية المكافحين للوصول إلى أعلى درجات الإجرام في المنطقة.

(وهذا عرفته فيما بعد) أكبرهم في مثل عمري تقريبًا، اسمه (وليد).

نحيف رومانسي العينين طري القوام بطريقة تُشعِرك أنه سيغمى عليه من فرط الرقة والتهاتف، حليق شعر الرأس يرسم حول فمه ذقنًا منتوفة بعناية المزين (دوجلاس) ولا تفارق راحته مطواته (سِكّين محلّي يُسمّى قرن الغزال) مصنوعة خصيصًا له بواسطة صانع سكاكين بناحية عابدين المتاخمة للسيدة ويستخدمها في كل شيء فهو يهرش بها جلده ويلوّح بها في وجه خصومه حتى في المحادثة -والتلويح بها كما نلوح نحن بالقلم أو السيجارة-، ولا يغرنكم شكله الناعم ومظهره الرقيع؛ فهو مجرم حقيقي حين يتعاطى الأقراص المخدّرة كما تأكل أنت أصابع البطاطس، دائمًا غائم النظرات تشعر أنه يعيش في بُعدٍ آخر والسبب طبعًا المخدرات التي يتعاطاها ويتاجر فيها في نفس الوقت، متزوج من (سمية) وهي ابنه حلواني شهير في حي السيدة عن طريق توريطها في علاقة معه ومن ثم سقطت في شباكه لتتعلق للأبد معه في زواج شرعي مضعضع الحواف بلا أي إشراف أو تزكية من أهلها الذين طردوها بلا رجعة، فتحولت من هانم لخادمة بكل ما في الكلمة من معانٍ، بضة فاتحة اللون تملك عيونًا شقية ووجهًا لا يخلو أبدًا من الرضوض والخدوش والتورمات إثر العلقة التي تأخذها من (وليد) كل ليلة قبل أن تنام دامعة في أحضانه، ويعيش مع (وليد) أخوه الأصغر إجرامًا وأقل خطرًا (أحمد) فهو لم يبلغ الخامسة عشر بعد، ولكن تشعر أنه قضى سنين عمره القليلة مرهونًا في التخشيبة من فرط انحرافه، يحمل ملامحَ نبيلة تشي بأصلٍ راقٍ وإن كانت أفعاله لا تمت بصلة لهذا الأصل ويشبه

أخاه في كل شيء وإن كان قصير القامة بدرجة ملحوظة، تكاد رائحة فمه المعبقة بالكحول الرخيص تخطف أنفاسك، أما مصدر رزقهم الضئيل فهو بلا شك تجارة المخدرات والحبوب والبانجو.. ولا فخر.

أما الطابق الرابع فهو سطح البناية العتيقة وشقة صغيرة منزوية في أقصى السطوح حيث أسكن أنا.

علاقتي بالجيران كما يلي بالضبط.

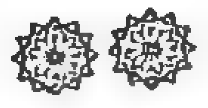
علاقتي بالطابق الأول جيد جدًا

علاقتي بالطابق الثاني مقبولٌ

علاقتي بالطابق الثالث ضعيف جدًا

فكنت أتحاشى التعامل مع الدور الثالث لكثرة شجارهم ولغيرة (وليد) العظيمة على تلك الجوهرة الغارقة في الطين والكدمات (سمية)، ففي كل مرة أراها ألاحظ كدمات وكسورًا وأربطة تحتل جسدها اللدن المائل للامتلاء وصفحة وجهها الأبيض المشوب بالاحمرار والجروح السطحية والسحجات والتورمات..

و(بيني وبينكم) كنت أتسلى ليلاً بالاستماع إلى عراكهما وسبابهما، كذلك كنت أختلس آهات مشحونة بالإثارة عندما يجتمع (وليد) مع زوجته بعد أن يعطيها طريحة اليوم من السحل واللكمات وكأن الحب والجنس عندهما مرتبطٌ بشكل وثيق بالسباب وتبادل الخمش والصراخ والإصابات المتورمة التي باتت مظهرًا ثابتًا على وجه وجسد (سمية) فدائمًا كنت أصادفها صعودًا أو هبوطًا على الدرج وقد تورمت شفتاها أو ازرقت جبهتها أو ربطت إحدى عينيها إثر كل هذا التوحش في العلاقة، ولكن الحق يقال كنت أبصر (وليد) أيضًا وقد امتلأ صدره بالخدوش والكدمات أو العضات أو تركت أظفارها علامات واضحة على وجهه أو رقبته وبالطبع كنت أعرف المصدر بلا أي شك.



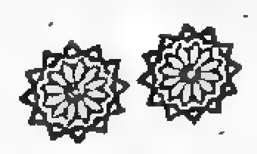


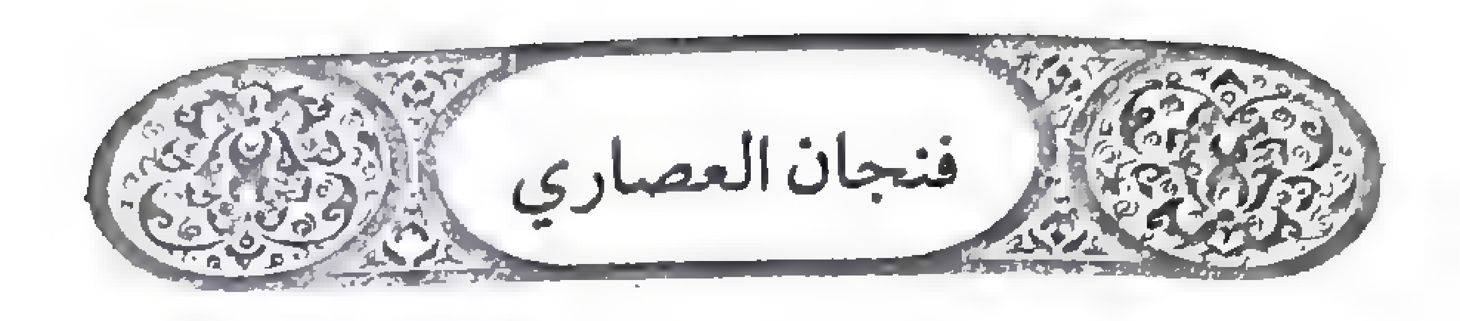
بيت السيدة

كان بيت السيدة من النوع المترنح السكير بخمر الزمن المعتّق في أقبية النسيان فعلاً لكنه أبدًا لا يسقط بل كان مسنودًا ببنايتين، إحداهما يمينًا وهي متهالكة أصلاً وإن كانت أكبر مساحة وأعرض واجهة، والأخرى تم تنكيسها وترميمها حديثًا ببناء أعمدة خرسانية تقوم بدور العكاز للبيت كي لا يقع على بوزه وكأنهم إخوة عجائز متراحمون مع بعضهم البعض في تكافل جدير بكل شفقة.

وككل البيوت العتيقة كان فيها مسقط للنور (المنور) تطل عليه كل شقق العقار الأربع تحتفظ فيه (أم زينهم) ببطتين و(نسناس).. نعم كما سمعتم، كانت عائلة أم زينهم تملك نسناسًا مُسنًا متهالكًا هرب من صاحبه في مولد السيدة لتفاجأ به أبلة كريمة يجلس على إطار نافذتها يحملق في وجهها ويصرخ بطريقة الميامين، وبالطبع تبادلت معه الصراخ كما لو كانا على شجرة في الأدغال أثناء موسم التزاوج، وبعد كل هذا الترحيب المذعور اعتبرته أبلة كريمة هدية عظيمة من الله وعلامة على مباركة (السيدة زينب) لها، كان نسناسًا خبيثًا كشيطان فاشل، متمرس على التحرش وبعزقة كرامة مَن لا يروق له صاحب مزاج يحتسي الشاي ويلتقط أعقاب السجائر لتشعلها له أبلة كريمة فيمتص الدخان بكل رضا، كنت أخشاه كثيرًا وأتصور أنه مسعور لأنه كان يعاملني بطريقة قذرة لا تليق أبدًا، كان لا يكف عن العبث بسحّاب سروالي أمامهم بالذات ويحاول كلما اقترب مني أن يشده لأسفل ثم يصرخ

بطريقة القرود ضاحكًا كأنه يسخر من توتري وذعري، هو يفعل ذلك على غفلة مني لتفلت مني صرخات متقطعة تثير ضحكاتهم، كما أنه مدرب على وضع إصبعه في مؤخرة أي شخص يختاره، حتى مؤخرة أبلة كريمة لا تنجو من أصابعه، لأجدها تصرخ من المطبخ صائحة بطريقتها الطفولية: "آه يا بعبوص يا ابن الوسخة" كنت أكتم ضحكاتي وأعرف أنه نفّذ فيها فعلته الدنيئة، وبالمناسبة كان اسمه (بعبوص)، وهذا الاسم المشين أطلقته عليه أبلة كريمة نفسها بسبب إصراره على البعبصة التي لم ينجُ أي فرد في البيت منها سواء أهل الشقة أو النساء اللاتي يأتين لقراءة الفنجان أو حتى الجيران ولكَمْ تسبّب في شجارٍ وملاسنات بين أبلة كريمة وشادية التي أقسمت بمقام السيدة أن تضع له السم وستذبحه لو أمسكته لأنه أعطاها الكثير من البعابيص على حين غفلة منها، أما أنا فأخذت منه القليل وبتُّ أحاذر وأتحايل عليه بإعطائه سيجارة أو بعض الفول السوداني حتى يعفيني من ذلك الفعل المهين، وبالفعل بات يرحب بي في كبرياء وينتظر مني الهدايا وإلا أخذت نصيبي من البعابيص أنا الآخر، كان باستمرار يجلس بجوار (أم زينهم) العجوز الضريرة طيبة القلب، ينظر لي في غطرسة وسخرية بينما هي تقرأ الفنجان وقت العصاري..





نعم كما سمعتم كانت (ضريرة البصر) ولكنها كانت تقرأ نقوش الفنجان بأطراف أناملها المرتعشة الرقيقة وقت العصاري بالذات فهو الوقت الرسمي لقراءة الفنجان حين تكون الأرض بين قرني ثور، ولا تقبل أبدًا أن تقرأه ليلاً حتى لا ينقلب عليها وعلى من تقرأه؛ فهي لا تقرأ أبدًا حين تغيب الشمس لا بُدَّ أيضًا أن يكون البن سادة بلا سكر حتى تستفيق الشارِبة على مرارة القهوة وتستجلب أحزانها وتعازيها لنفسها. كان الفنجان يدور بين كفيها المعروقتين بحنكة وانسيابية بينما تتحسس أناملها النقوش التي جفت وبرزت بالطالع لشاربة الفنجان، ثم تترنم كلامًا منغومًا شديد التأثير عليهن، كان معظمهن يبكين وينوحن على حالهن أثناء ترديدها لما تقرأه في الفنجان، كنت أرى النسوة يأتين خصيصًا لها لتقرأ لهن وتترنم بأخبار حياتهن الخاصة والشديدة السرية، لدرجة أنها تخبرهن عن عاداتهن في الفراش وأخبار خصوبتهن ومزاجهن المدفون في حشوات القلوب، أو ترقيهُن ملقية عليهن كلامًا مودوزنًا بحديث الروحانيات حين تريح راحتيها على رؤوسهن التي مالت في حجرها مطلقين دفقات من الدموع والحسرة على كبتهن وآهاتهن.

"يا هادي الهادية، يا شافي الشافية، تمنع النفس الرّدية، حادّرجه بادّرجه من كل عين زرجه، بسم الله الرحمن الرحيم، رَقيتك واسترقيتك من كل عين شافتك ولا سَمِت. رَقيتك من عين المَرَه.. يجعل فيها حربه وشرشرة.. رقيتك من عين الأخت..

يجعل فيه خُشت.. رقيتك من عين الراجل.. ربنا يجعل فيها المناجل.. رقيتك من عين الولد.. ربك يجعل فيها وتد، رقيتك من عين الجّاره الشوم النكّاره.. ومن عين كل اللي شافوكي ونضروكي ولا صلوش ع النبي.. لا صلى الله عليهم ولا على والديهم.. قولي آمين."

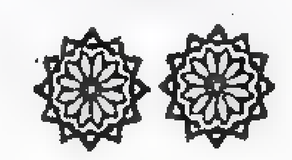
أو تمارس عملية (التجريس) وهي عملية شائعة في أوساط الأرياف بالذات وفيها يوضع الطفل ما بين الثالثة والخامسة على ظهر حمار بالمقلوب ويشوه بالدماء وريش الطيور ويدور به أقرباؤه وجيرانه في الشارع حتى يُجرس (يُفضح) وبالتالي يخرج من دائرة الحسد خصوصًا لو كان الطفل يتمتع بالصحة والجمال، ويزُفه الأطفال حينئذٍ بقولهم الشهير (يا أبو الريش إنشالله تعيش)، وهذا الطقس مخصوص للأمهات اللواتي لا يعيش لهن أطفال.

وكنت أعرف أن مصدر دخل الأسرة الأساسي هو ما تضعهن تلك النسوة من وريقات نقدية في كفها الطيب الراضي بأقل القليل.

منها تعلمت قراءة الفنجان فيما بعد، كنت أحِبُّ جلستها في غرفة (المسافرين) النظيفة المدهونة بالجير الأزرق على أريكة محلية (كنبة أسطامبولي) بجسدها الضئيل وسنوات عمرها المتخطية السبعين وشعرها الخفيف الملوّن بالحنة البرتقالية وقد تضفر مع منديلها الأبيض حول رأسها، ولهجتها وصوتها المقبور ورائحتها التي تذهب بك فورًا لأضرحة العارفين والمباركين وأهل الخطوة والثبات، رائحتها المكوّنة من البخور والزيوت العطرية والحبهان والمستكة وكل مواد العطارة الفواحة، كانت فقيرة مستورة، بيتها عامر بالضروري من متطلبات العيش مع لمسة فقر نظيفة ومتأصلة في مفردات البيت نفسه من رياش قديمة وسجاد نحل وبَرَه بفعل نظافة أبلة كريمة اليومي..

كانت تقرأ الفنجان بجنيهين وتتلو الرقية بعشرة جنيهات، إذ أن الرُّقية تأخذ منها وقتًا ومجهودًا مضاعَفًا أما حفل (الزار) فبمائة جنيه كاملة، كنت أتوق دومًا لجلستها

وطعامها الحارق المتبل بالشطة والكمون وكانت صِلتي بهن وليقة إذ اعتبرهن عائلتي البديلة وكن معي في منتهى الترحيب والمعايشة، أستخدم هاتفهن الأرضي الأسود في أعمالي وأساهم معهن في مآدب الطعام والنُذُر الذاهبة للمسجد الزينبي، إذ أن الحاجّة (أم زينهم) تُخرج دومًا نذرًا معيّنًا لكل سيدة تم قضاء حوائجها من (الأسياد)، فتارة تجد الأرغفة المحشوة بالأرز واللحم وتارة تجدها محشوة بالفول النابت أو الطعمية، أو أكياس الكُسكي أو أكواب الأرز بالحليب المسكر، وعلى حسب درجة (الزبونة) وقدرتها المادية كانت أم زينهم تفرض نوع النذر وتخرجه هي من بيتها وتشرف عليه ابنتها الكبرى أبلة كريمة، وبالطبع كان ينوبني من الحب جانب باعتباري واحدًا من أولئك المساكين والمستحقين عن جدارة تلك الهبات والعطايا الخارجة في صورة جنيهات من صدور تلك النسوة (إذ كانت النساء تضع النقود في منديل مدسوس بين حنايا أثدائهن الرَجْراج).



أبلة كريمة الفنانة

كانت (أبلة كريمة) تستخدم السطوح كمنشر للغسيل حيث أنهن يسكنّ الطابق الأرضي فلا نافذة ولا شُرفة تنفع لنشر الغسيل فقد يتعرض للسرقة أيضًا، ولكَمْ فوجئت بها وهي تمارس عصر وفرد النسيج المبتل برائحة السافو (مسحوق غسيل سافو الشهير وقتها) وهي لا تكف عن الدندنة بصوت عالٍ ونغمة حزينة بعض مواويل نجمة الإسكندرية في ذلك الوقت (بدرية السيد) وكنت أسمعها تقول شيئًا عن الطيور والحمام والسطوح:

"طلعت فوق السطوح أنده على طيري

لقيت طيري بيشرب من عند غيري

صرخت بعلو صوتي وقلت يا طيري

قالّي زمانك مضى روح دوّر على غيري"

سأخبركم بمعلومة خبيثة:

في مرة من المرات كنت أراقبها خلسة وهي تغني بينما أكتم ضحكتي حتى لا تكشفني وتطالني وصلة من (الردح) الطفولي والمطعم بمفرداتها الخاصة(يا منيّل على عينك - يا مدهول - يا مضروب على قلبك - يا اللي تِنشكّ في لسانك)وكل هذا الغضب الأقرب للكوميديا مع أنه نابع من عصبيتها فعلًا، كانت تُغني بطريقة تمثيلية

مندمجة وكأنها تعتلي خشبة مسرح ما فتقطب وجهها بألم في المقاطع الحزينة ويفرد صفحته وتبتسم في المقاطع الفرحة، بل وتمثل وكأن هناك مايكروفون أمامها، وقد رمتْ ما بيدها من غسيل وراحت تشيح بيدها وهي تغني بعد أن اطمأنت لخلوّ السطوح من الناظرين وخصوصًا أنا، فقد كانت تنظر لي بشكٍّ دائمٍ وتتوّل أفعالي كلها على أنها مبطنة بسوء النوايا وتعتبرني رجلاً آخر يود التحرش بتجاعيدها وبلاهة معتقداتها، هي تكره صنفَ الرجال في كل مراحله وتعتبرهم كلهم صورًا مكرّرة من جلّادِها المأفون وطليقها (زينهم) الغادر، الغريب أنها فعلاً تملك صوتًا عذبًا يذكّرك بأصوات الموهوبين من الأطفال (من حُبي فيك يا جاري، يا جاري من زمان، بخبي الشوق واداري ليعرفوا الجيران)، أو (غريب الدار عليّا دار زماني آسي وظلمني مشيت سواح مسا وصباح، أدور ع اللي راح مني، غريب غريب غريييب غريب الدار)، وبالرغم من شخصيتها الأقرب للطفولة إلا أنها فعلاً تشدو بحزنٍ واندماج مؤثر يذكّرك بغناء الأيتام في الحفلات الخيرية، كانت تهز رأسها وتغمض عينيها بينما تقطر الملابس المنشورة على الحبال بقطرات الماء وتهتز بفعل الهواء وكأنها جمهور انبهرت أنفاسه من أصالة الطرب الخارج من فوّهة تلك الستينية التعسة بجلبابها القطني (الكستور) المزخرف بأوراق الشجر الصغيرة وضفيرتها الهزيلة المرمية على كتفيها الموسوم بالفقر وقلة الحيلة ومنديل رأسها الأبيض الذي يكسبها بؤس ونظافة، وتلك البدانة الناتجة من التهام أرغفة النذور المحشوة بالصدقات والأماني، كتمت ضحكاتي وقررت ألا أقطع عليها تلك النشوى وتواريت خلف النافذة المطلة على السطح حتى لا تفضح تلصُّصي عليها، انتهت أخيرًا من وصلتها كالمحترفين ثم وقفت وضمت ذراعيها لصدرها وأحنت عنقها وكأنها تتلقى التصفيق الحار من الحضور وتلقي التحية عليهم بالمقابل وترميهم بقبلاتٍ في الهواء، انتهت من فقرتها الغنائية ثم استأنفت عمليةَ نشر الغسيل وقد اعتلت وجهَها ابتسامةٌ غزَتْ كل التجاعيد بالرضا والسعادة وكأنها يتيمة تلقّت العيدية من يدِ محسنٍ كبيرٍ، شيءٌ ما في هذه المرأة

بثغر تعاطفك وأنت ترقب وجهها المتغضن بالسنين وطفولتها التي لم تغادرها بعد

كأنها فتاة مشاكسة تعشق ضرب الصبيان، كانت عدوانية تمارس الشخط والتبرم

في حديثها، ربما لتداري كل تلك الهشاشة وتلك (اللسعة) الفنية، عرفت فيما بعد

أن زوجها طلّقها بعد أقل من عام من الزواج وتركَ لها طفلتها وغادرها إلى غير

رجعة مكتفيًا ببضعة جنيهات يلقيها لابنته، بل عرفت أن (أم زينهم) تلك العجوز

هي (خالتها) وليست أمها البيولوجية وأن طليقها الغادر هو (زينهم) نفسه والذي

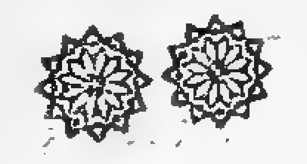
كان يعمل سائقًا للنقل العام ومتزوجًا من امرأة سليطة اللسان في شارع (مراسينا)

الملاصق لقسم شرطة الحي العتيق وبالرغم من أنه يعيش معنا في نفس الحي إلا أن

أمه حرّمت عليه دخول بيتها أبدًا حفاظًا على كرامة ابنة أختها الراحلة، بل اعتبرت

أن (أبلة كريمة) هي ابنتها الكبرى بشكل نهائي، ربّاه إنهم فعلاً أناسٌ طيبون يصبغهم

الحزن والحظ القليل بشيءٍ من الجاذبية والشجن.



وليد برشامة

كان أحفاد أحفاد المالك يستخدمون شقتي نفسها كمخزن للحشيش والحبوب المخدِّرة والبانجو والأسلحة البيضاء، وكجلسة مزاج دائمة لهم وبَدَا عليهم التحفُّظ والعدوانية باستئجاري لهذه العين من عمهم الأصغر والذي لم تكن علاقتهم به على ما يرام بسبب تحرُّش (وليد) الفاضح بزوجة عمه وتحريرها محضرًا رسميًا له مما ألقاه في السجن لستة أشهر وحدا بالعم مغادرة الشقة اتقاءً لشره بعد رجوعه من اليمان، كانت العلاقة بيني وبين وليد فيها الكثير من التحفظ فهو يكبرني بعامين فقط، وفي الحقيقة أنا أيضًا قوي الشكيمة ليس من السهل انقيادي لأي شخصٍ كما كنت متهورًا بعض الشيء في تصرفاتي، فبادلته التعالي بمثله ولم يظهر عليّ أي خوف من وضعه كبلطجي وتاجر مخدرات فقير بالإضافة لإدمانه، وكذلك لم أشعر معه بأي كراهية أو نفور، في شخصيته شيء مريح فهو يدعوك لتقبله فقط ولا يفرض عليك أي التزام، فهو لا يتحرش بجيرانه ولا يفتعل معهم الخلافات ويعتبر بيت السيدة هو بيت عائلته فعلاً، وكأن هناك اتفاقًا سريًا أن يكفيهم كبسات البوليس وإدمانه على الحبوب فقط، فلا يزيد الطين بلة بالشجار مع جيرانه، وبالطبع دخلت أنا ضمن هذا الاتفاق السابق، وبالرغم من حرمانه من مخزن تجارته إلا أن الوضع بدا هادئًا فيما بيننا، كانوا يعيشون في الشقة الكبيرة أسفل شقتي، تتسم شقتهم بالخواء إلى

حدٍّ بعيد ويقطع الأثاث التي تركها جدودهم مع لمسة إهمال واضحة في البيت كـ

ـه (سمية) لا تطهو طعام بل يأتون به جاهزًا من كل مكان، زجاجات البيرة دون ها

ملقاة هنا وهناك وقمامتهم كلها من أكياس الطعام الجاهز ومرتع للقطط التي

تشاركهم التعاسة، لا يتسم البيت بأي ضوابط وكأنهم مساجين هاربون وجدوا الملجأ

الآمن وكفى، فلا ارتباط واضح بينهم وبين السكن، يتشاجرون فيما بينهم طوال

النهار ويتبادلون السباب بدلاً من الكلام العادي وخصوصًا العلاقة بين وليد وأخيه

الأصغر أحمد والتي تتسم بعدائية شديدة واتهامات بالسرقة لأحمد طوال الوقت،

وبالرغم من كون أبوهم أحد التجار المعروفين في الميدان إذ إنه يملك مع إخوته

محلاً لبيع لعب الأطفال، إلا أن وليد وأخاه لا يملكان الجرأة حتى من الاقتراب لمحل

أبيهما، إذ إنه قاطعهما للأبد بعدما تورطت أم وليد نفسها في قضية مخدرات كبيرة

وذهبت لغياهب السجن إلى وقتنا هذا، وبدأ الأب حياة جديدة مع فتاة تصغره

بثلاثين عامًا وأتت له بصبي وفتاة، فمسح الرجل سجلّ أبنائه القدامى من حياته

ورمى بهم لعرض الطريق إثر دخول الزوجة لسجن القناطر، وعرفت فيما بعد أنها

تاجرة مخدرات من العيار الثقيل ومن ثم ورثَ وليد تجارتها التي تضاءلت لواحد

في المائة من حجمها الأصلي، ومرّ الوقت وكبر وليد على الإدمان والتخبط في شوارع

السيدة وهو لا يجرؤ حتى على النظر تجاه دكان الأب العنيف جدًّا، إلى أن شاهد

(سمية) وهي خارجة من مدرسة السنية للبنات، ولفت نظره جمالُها وشقاوة عينيها

العسليتين وبدأ ينسج شباكه حولها إلى أن سلمت له في علاقة كاملة والتي نتج عنها

جنينٌ سرعان ما بانت علاماته على الفتاة، فرماها الأب في الشارع فعليًّا لتعلق مع

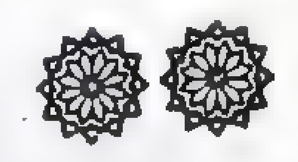
وليد في هذا الزواج بعدما أجهضها عند امرأة تدعى (سميرة شبشبة)، العجيب أن

مع كل هذا التخلُّط المشوب بالعدائية نمت علاقة (صداقة بريئة) بيني وبين زوجته

سمية، ثمةَ ما جذبني إليها، ربما تعاستها أو أصلها الطيب أو قصتها السينيمائية

وأنت لن تجد من الزلقت لقصر زواج غير متكافئ وتعالي الأمرّين كل يوم، شيء ما يجعلني أرحّب بابتسامتها المضطربة وهي تتلفت حولها بحذرٍ قبل أن تهمس لي على الدرج حين أقابلها مصادفة:

- صباح الخير.. أشوفك كمان شوية عندك.



المولد

بعد غد هو (الليلة الكبيرة) في مولد السيدة زينب وهو أول (مولد) يأتي وأنا مغروس بهذا الحي العريق، قبلها بأسبوع فوجئت بأن الشوارع المحيطة جميعها مفروشة بسجاد عملاق بل وأقيمت السرادقات المرفوعة بالأعمدة الخشبية والمكسوة بالقماش السميك والسقف الزَفراف لاحظت أيضًا عددًا لا نهائيٌ من الوسائد (المخدات).. نعم (مخدات) متحجرة والتي تساوت صلابتها مع الخشب وفهمت بعد ذلك أنها مكانٌ للنوم الجماعي لمحبي وعاشقي ومريدي (السيدة زينب)، وأنهم مُرحّب بهم من قبل البيوت المحيطة في الحيِّ العتيق وأن كل سُرادق يخص طريقة أو انتماءً صوفيًا بعينه وهي كثيرة ومتشعبة تكاد تفوق عدد المريدين أنفسهم.

وقبل الليلة الكبرى -الليلة الكبيرة وتليها الليلة اليتيمة- في المولد بيوم فوجئت في عودتي لشقتي بأكثر من ثلاثين (صعيديًا) ينامون على أرضية السطوح وكذلك أمام عتبة باب عشتي -عفوًا أقصد شقتي-، جُننت ولم أفهم ووقفت متصلبًا بحماقة وشعور بالحصار، أنظر لهم في حيرة وقد اتخذ كل واحد منهم هيئة استرخاء محددة وذهب في عمق البحار الصوفية يذكر الوجود بطريقته ويعلو غطيطه (شخيره) كما لو كان دراجة نارية.

خطوت متوترًا فوق جثثهم النائمة إلى حيث الباب وعالجت القفل ودخلت والعصبية تركبني، تصورت أنه اقتحام ووضعٌ دائمٌ ليس في وسعي زحزحته.

ظللت واقفًا في الصالة الفسيحة الخالية تقريبًا من الأثاث إلا من سجادة قديمة نظيفة وبعض الوسائد الأرضية وطقم الصالون المقعر بالقش، أنا في حيرة من هذا لاحتلال الصعيدي للسطوح، أتفهم أن يحتلوا الشوارع والعمارات، ولكن لتجدهم يشخّرون أمام شقتك فهذا شيء لا يطاق.

ثم ثم ثم ..

ثم شعرت باهتزاز عميق الموجة في الأرضية وكأنه وتر تحرر من ضغط عملاق دِب مع اهتزاز.. ثم دِب مع اهتزاز.. هناك اقتراب من بابي ذي الدرفتين..

شعرت بهذا الثقل أنه وصل لباب شقتي..

ثم سمعت طَرقة هادئة على قدر كبير من الاستحياء تكاد تكون صامتة..

انتظرت لبرهة أجمع شتات نفسي وتحركت..

عالجت القفل الداخلي (الترباس) وهو من النوع الغليظ الذي يُوصد الأبواب وهو مدعوم بالحائط فيشكِّل مع الباب والحائط مثلثًا قائم الزاوية فتحت الباب ببطء لأجد بين فرجة الباب والضوء القادم من ورائي وعلى مستوى نظري رأيت.. كرشًا عملاقًا كقبة الجامع، كان مستديرًا صلبًا كالكرة الأرضية نزلت بنظري لأبصر ساقين رفيعتين نوعًا مقارنة بحجم الكرش الهائل، فرفعت عيني لأعلى لأستجمع البازل كاملاً فرأيت عملاقًا يتراجع بخفة بين جثث النائمين، بدا كسحابة دسمة هبطت من سماء الشتاء على السطوح.

يلبس جلبابًا صعيديًا واسعًا كغطاء السيارة ومن تحته سروالاً أبيض يناهز ملاءة فراشك، والذي نسميه "قلسون" أو "كلسون" كان يقبض على طرف جلبابه بأسنانه بينما كفاه الضخمان تتحسسان بطنه بنوع من الألم والانضغاط.

كان - وياللغرابة - يتحرك بخفة الغازات وكأنه يعرف أين يضع مشطَ قدمه بالضبط بين جثث النيام من بني جلدته من الصعايدة.

وقعت عيناي بعينيه لأجدهما تلمعان في وجهٍ مستديرٍ مشعر أشعثٍ مشرب

ظللت واقفًا في الصالة الفسيحة الخالية تقريبًا من الأثاث إلا من سجادة قديمة نظيفة وبعض الوسائد الأرضية وطقم الصالون المشعر بالقش، أنا في حيرة من هذا الاحتلال الصعيدي للسطوح، أتفهم أن يحتلوا الشوارع والحارات، ولكن تجدهم يشخرون أمام شقتك فهذا شيء لا يطاق.

ثم ثم ثم..

ثم شعرت باهتزاز عميق الموجة في الأرضية وكأنه وتر تحرر من ضغط عملاق

دِب مع اهتزاز.. ثم دِب مع اهتزاز.. هناك اقتراب من بابي ذي الدرفتين..

شعرت بهذا الثقل أنه وصل لباب شقتي..

ثم سمعت طَرقة هادئة على قدر كبير من الاستحياء تكاد تكون صامتة..

انتظرت لبرهة أجمع شتات نفسي وتحركت..

عالجت القفل الداخلي (الترباس) وهو من النوع الغليظ الذي يُوصد الأبواب وهو مدعوم بالحائط فيشكّل مع الباب والحائط مثلثًا قائم الزاوية فتحت الباب ببطء لأجد بين فرجة الباب والضوء القادم من ورائي وعلى مستوى نظري رأيت.. كرشًا عملاقًا كقبة الجامع، كان مستديرًا صلبًا كالكرة الأرضية نزلت بنظري لأبصر ساقين رفيعتين نوعًا مقارنة بحجم الكرش الهائل، فرفعت عيني لأعلى لأستجمع النازل كاملاً فرأيت عملاقًا يتراجع بخفة بين جثث النائمين، بدا كسحابة دسمة هبطت من سماء الشتاء على السطوح.

يلبس جلبابًا صعيديًا واسعًا كغطاء السيارة ومن تحته سروالاً أبيض يناهز ملاءة فراشك، والذي نسميه "قلسون" أو "كلسون" كان يقبض على طرف جلبابه بأسنانه بينما كفاه الضخمان تتحسسان بطنه بنوع من الألم والانضغاط.

كان - ويا للغرابة - يتحرك بخفة الغازات وكأنه يعرف أين يضع مشط قدمه بالظبط بين جثث النيام من بني جلدته من الصعايدة.

وقعت عيناي بعينيه لأجدهما تلمعان في وجه مستدير مشعر أشعث مشرب

بلون الشيب ومخضّب بلون الحناء البرتقالي الكاسي على ذقنه وشاربه وشعر رأسه

بينما تنظر لي عيناه (المكحلتان) في رجاء وحرج.

كان في طوله يتعدى المترين بأي حالٍ من الأحوال بل أجده يقارب ارتفاع باب

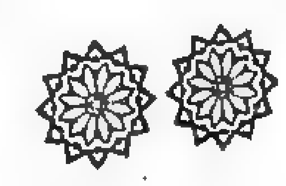
الشقة نفسه.

نظر لي قليلاً ثم تخلت أسنانه عن طرف جلبابه وبأسوأ ابتسامة خجل سمعته

يقول بلكنة جنوبية قحة:

- لا مؤاخذة يا وَلَدي.. ممكن (الكابينيه)؟

والكابينيه لمن لا يعرف هو المرحاض الأرضي الذي تجده في ميضة الجامع.



"نعم؟"

قلتها في استوضاح.

قال لي في رقه مشوبة بالانفجار ولكنته الجنوبية تتقافز من بين شفتيه مبعثرة بسبب الانضغاط.

- لا مؤاخذة يا ولدي عاوز (الكنيف).

طبعًا لا يخفي عليكم أن (الكنيف) هو المرادف الصعيدي لكلمة حمام أيضًا.

استغرقت ثواني لأستوعب الطلب فهو مجرد رجل يريد أن يتغوّط بشدة وهو موقف مؤلم لنا نحن الاثنين بالطبع، انتابتني بعض مشاعر الانتقام للحظات فتعمدت عدم الفهم بطريقة مبتذلة عاقبت نفسي عليها فيما بعد، تركته - هذا العملاق - ينتظر مني الاستجابة.

- اتفضل.

وتقدمت أولاً لأفتح الدرفة الثانية من الباب كي يتمكن من الدخول.

تحرك بخفته العجيبة وطأطأ برأسه انخفاضًا ليدلف إلى عشتي ومع كل حركة منه تهتز الأرضية بالمقابل.

نظر لي من أعلى بعدما فردّ طوله يوجد فارق أكثر من نصف متر بيني وبينه

وأشرت له بالاتجاه وأنا لا أتصور هل سيتحمله مقعد مرحاض قديم أم
على رؤوس وليد وعصابته في الطابق الثالث.

ابتعدت لأقصى مسافة لأسمح له بخصوصية "ولادة فينا "العملاق و
منذا لا بدّ أنه سيلد تلاً من الـ... لا أستطيع تصوّر "حجم وكمية التي
هذا الـ "الديناصور.

اقتربت من النافذة الكبيرة في أقصى المكان وهي نافذة تطل على عدة
وأطلال لبقايا بيت كبير مات منذ سنوات تحته من الشمال لتقبل شقتي
سكنية حديثة شاهقة تقف بصرامة أمام تلك الخرابة كحارس يلبس الدروع
هذه الخرابة من الزوغان. تطل عليها بكل كبريائها الإسمنتي على تحت
الميتة حاجبة جزءاً كبيراً من أفق الميدان. كانت كل نوافذ شقتي ثلاثية
فهي طويلة وعريضة وعميقة إذ أنني أستطيع الجلوس على قاعدة النافذة
الراحة.

كنت معتاد التأمل لهذه الخرابة فهي لا تحوي مخلفات ولا قمامة بل
أطلال بيت عملاق بائد. أرى الحجرات العارية من السقف وأعرفها حجرة
هناك بعض الحوائط ملطخة بالبياب وأرض الخرابة كلها مغطاة بالأخشاب
ميتة من منظر شاعري يمثل ما يسمى بالخراب وكنت دوماً أتصور أنني
بالزمن حيث كانت هذه الخرابة لأناس عاشوا وحزنوا وأخطأوا وماتوا بينما أنا
تسعينيات القرن العشرين.. أنا المستقبل.. أو هكذا كنت أتصور.

وبينما أنظر متأملاً لمساحة الخلفية الغارقة في الظلال إلا من انعكاسات الضوء
بسبب أعمدة الإنارة في الشارع.

ما هذا؟!

هناك من يتحرك بحرية (فوق) الخرابة. نعم فوقها فأنا أراه ينساب بين أطلالها

ويهيم فوق حجراتها المختلفة بلا قيود، هناك غلالة من شجن تلوّن ذلك المُتفقد، أسمع همسة نواح ترن في أذني الداخلية وتجعلني في حالة أقرب للبكاء، كان عليّ كبشر أن أتجمد وأنا أنظر لتلك اللوحة الجديرة بـ (فرناندو جويا) ذلك الفنان الكابوسي الذي يهوي رسم الفواجع، وبالفعل تسمرت عيناي على ذلك الطيف الهائم بين حوائط الخرابة المهدم، اشتعل شعري بالقشعريرة وأنا أرمق ذلك المشهد، شيءٌ ما قال لي إن هذا شيءٌ ليس طبيعيًا أبدًا، أنت تشاهد عفريتًا الآن يا مافون، إنه تجسدٌ نادر الحدوث كندرة اليورانيوم في الطبيعة، أنت تعرف الآن أنك ستقضي عمرك تقسم بأن ما رأيته واقعٌ وحقيقةٌ لا تقبل الجدال، ستتكلم بكل حماس وأنت ترى نظرة عدم التصديق في العيون، رؤية الأشباح ليست بالطرافة ولا الخطورة ولا الأذى الذي تتصوره، إنه انبهارٌ عاتٍ وهيبة تجعلك تسجد أمام عملية اختراق الأرواح لجدران واقعك الغارق في الحقائق، إنها لحظة التجمد والفزع من احتمال أن يلتفت الشبح إلى وجودك، وفي نفس الوقت أنت لا تستطيع إبعاد عينيك عن ذلك المنساب بين الأطلال، كانت امرأة يظهر ذلك من شعرها الذي ولا بُدّ أنه ملوّنٌ يتطاير خلفها كما لو كانت تغوص بالماء، تسبح حولها أسمال سوداء لا تستر من جسدها اللدن إلا رقاقات تلتف عشوائيًا حول صدرها ووسطها لكن الجسد عارٍ بما يكفي أن تدرك تفاصيله، كانت قطط الخرابة تسير وِفق اتجاهها وتتبعها وتموء مواءً ممطوطًا شاعريًا جدًا ويمثل تداخل المُواء مع الليل وأجواء الخرابة موسيقى تصويرية غاية في الانقباض، كانت كالعويل المترابط بألم لا يزول، أما هي فكانت تحوم كطائر البشلوش المتصيد لسمكة يراها عبر انعكاس الماء، كانت تبحث أو تنقب لا أعلم، كانت هذه الخرابة تمثل صفيحة القمامة بالنسبة لي فنافذة المطبخ تطل أيضًا عليها وبالتالي كنت ألقي بكُلّ مخلفاتي وفضلاتي منها مباشرة للأسف، تراجعت ببطءٍ للداخل تجنُبًا لكارثةٍ أن تراني أراقبها، أسمع ضربات قلبي

بصدى عالٍ، العرق يتفصد على منابت شعري وأشعر به باردًا لزجًا، رباه إنه..
إنه.. إنه... شششششش اصمت يا أحمق فقد ترفع رأسها وتراك، سكنت في مكاني
أتلصص مرتعبًا متحفزًا جاهزًا للصراخ والإغماء، الثواني تتوالى في صمتٍ مطبق إلى أن
اختفى الشبح من مجال رؤيتي، لا بُدّ أنه الآن أسفل الحائط، تحت جداره المشبع
بالرطوبة ومواسير المجاري الصدئة، ماذا تفعل تلك ال.. ال.. الروح، نعم لا بُدّ
أنها روح ؟، ششششش، اصمتووووا، اخرسووووووا حتى أسمع، شششش.. سأمد
عنقي للخارج قليلاً علّني أضيف مثلثًا آخر لمجال الرؤية، يتناهى لأذني صوتُ المواء
المتداخل من جمهور القطط كجوقة من الأموات تصرخ من العقاب، أسمعكم
تقولون "ارجع" لكني لو رجعت لن تكون هناك قصة والفضول المعتم يتملكني
تمامًا، لا لن أفعل، أريد رؤية إضافية لأعرف ما الذي يفعله الشبح، مددت عنقي
للخارج أكثر وأكثر حتى بات صدري وكتفاي خارج الإطار، لأجده.. أقصد لأجدها
عائمة لصق الحائط الرأسي لظهر عمارتي المجعد، ألمح شعرها المتوهج جيدًا الآن
إنه.. إنه أحمر، تجمدت في مكاني وأنا أراها بذلك الوضع الرأسي المزعج، قبل أن.
قبل أن ترفع رأسها فجأة.. وتنظر إلى حيث أراقب أنا، هي الآن تنظر لأعلى مادّة
عنقها كأنها تستوضح الرؤية قبل أن تنقض، إنها.. تنظر إليّ أنا فعلاً، تُراها ماذا
قررت الآن؟، كانت القطط تحوطها بنصف دائرة منتصبة الذيول مهتزة بالانتماء
والتمسح الكامل فيها بينما هي تُلقي لهم شيئًا ما، لا بُدّ أنه طعامٌ، حاولت التراجع
بسرعة وأنا أدرك أنه فات الأوان، ثم انفجر هلعي وأنا أراها تس.. تس.. تستطيل.
نعم كما قرأتم.. تستطيل من حيث موقعها تحت الجدار الخلفي، تمتو وتستطيل
كالتليسكوب ببطءٍ لتصل إلى حيث أنا، أفقت للحظة من تأثير عينيها المضيء في
ظلام الخرابة الباهت والمشوب بمصابيح الشارع، كانت العيون مضيئة كالنمور في
أدغال النبچاب بل كان وجهها يشبه القط مع لمحة نقمة وغضب جعلها أقرب

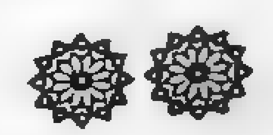
لأسد غضوب، كان التمدد يقترب مني بينما كنت مسحورًا من فعل الحضور وفعل الاستطالة نفسه، تتسارع دقات قلبي منذرةً بتمرد وشيك، لا أستطيع الحراك أو حتى التقهقر للوراء نهائيًا.

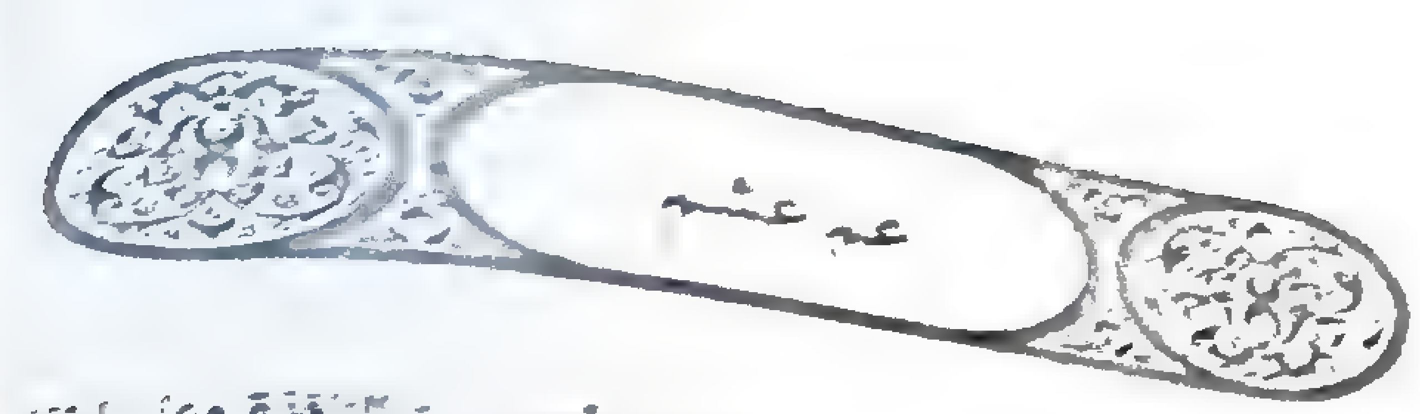
ثم.. ثم.. ثم وفجأة هبط شيء ثقيل على كتفي الممدودتين خارج الإطار.

ليطير صوابي متصورًا أن الشبح باغتني من أعلى..

وأصرخ وأنتفض وأفقد اتزاني تمامًا..

بل.. وأقفز ملتاعًا صارخًا هاويًا من.. النافذة عن ارتفاع لا يقل عن عشرين مترًا.





لحظ توازني تمامًا فأهوي من الناقلة وعلى ارتفاع

احتفظ مراحي بمفاصلي ليختل توازني وذراعي إلى الأسفل المظلم مستقبلًا

يتجاوز العشرين مترًا ومتوجهًا رأسًا ويكامل وزني لحظة أن يضرب قلبك الذعر ويدهمك الموت

الموت المحقق، إنها لحظة لا تُشترى، لحظة الصدمة العصبية، لحظة الشهيق الأخير وهو يتفجر

يقولون إنها تمثل المعنى الحرفي للصدمة، كان لحمي يهتز ويداي ترفرفان مستقبلًا صورة أشلائي مبعثرة على

قلبك بكل قسوة، تحت أقدام صاحبة الشعر الأحمر، كانت لحظة يمضغ الساعات من

نومات الحرية وتحت أقدام صاحبة الشعر الأحمر، كانت لحظة يمضغ الساعات من

العذاب مَن قال إن الذي يهوي من حالق لا بدّ أن يصرخ لم أصرخ ولكنني شهقت

لتداخل شعوري إنه آخر نفس أحرقه في الحياة.

عاد ...

كنت رشيق الجسد إلى حدٍّ ما، كنت مفتولًا بتلاحم الطارج الخشيم ابن العشرين

كنت رشيقًا أقرب للشكل الرياضي بحكم الشغل والتنقل في حافلات المواصلات العامة

طول النهار، كنت وسيمًا مشبعًا بغرور الطزاجة ومعتمدًا على تناسقي باعتبار

الحياة ستعاملني بنفس كيفية رشاقتي ووسامتي وطبعًا لكم أنتم تصوّر ما

يحدث بشاب غرير لم يترك حضن أمه إلا منذ شهور مضت.

ففي اللحظة الحاسمة وبطريقة "الإنقاذ السينمائية (تكنيك جريفث في الإنقاذ

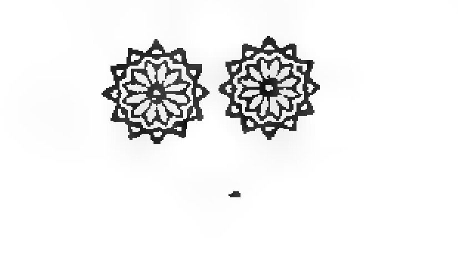
على آخر لحظة، يتجمد السقوط دافعًا جسدي للارتطام بالحائط الرأسي بكل عنف

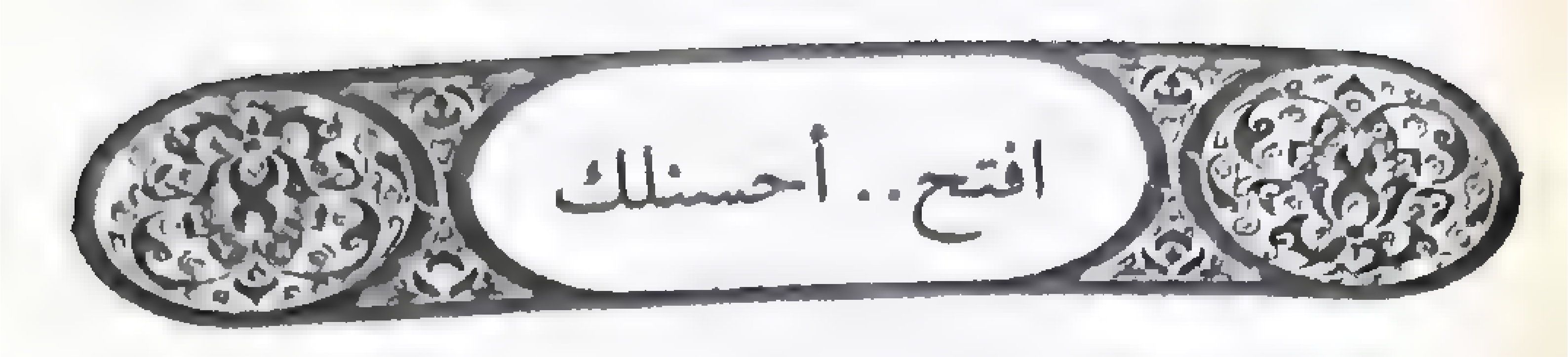
شعرت بأصابع عملاقة تقبض على كاحلي الأيمن، بينما تصطدم جمجمتي وصدري وبطني بعنف بالحائط الخلفي للعمارة وقد سقطت كل متعلقاتي من جيوبي منها محفظتي الجلدية ونقودي وساعتي للأسفل المظلم حيث تنتظر القطط سيدتهم ريثما تحولني إلى بلوبيف، انفجر الدم من أنفي وفمي وارتطم صدري بخشونة الحائط القديم وتشققاته، وبقيت معلّقًا لبرهة من الزمن بينما تتساقط دمائي من أنفي وفمي غزيرة لأسفل، وكلما شهقت كلما اندفعت دمائي بفعل انفجار شفتيّ من الداخل، إن للدم طعمًا مقيتًا خصوصًا لو كان مخلوطًا بذعرك اللا نهائي، وفي لمحة عابرة لأسفل وجدت الشبح ينظر لي بتمعن، ألمح عينيها المضيئتين تلتمعان بإثارة قبل أن تقرر الصعود والاقتراب، لا لا أقصد قبل أن تقرر أن تستطيل وتستطيل بينما أنا مُعلّق كذبيحة طازجة تمارس الفرفرة والتشحط في دمائها، تمالكتُ نفسي محاولاً النظَر لأعلى، فوجدت عملاقًا ينحني بجزعه عبر نافذتي مستميتًا ومتشبثًا بكاحلي، ويحاول جرّي لأعلى مُسبّبًا سحلي في خشونة الحائط أكثر وأكثر فعاودت النظر لأسفل لأجد... لا لا لاااااااا، عاااااااا

انطلقت مني صرخة عاتية أخيرًا وأنا أحرك كل جسدي مستحثًا الذي يجرني على الإسراع، باصقًا كل ما خزنته أنفاسي من دم ولعاب، كانت صرختي عاتية رجت ذاتي نفسها وزلزلت كياني كله بكل ما في الكلمة من معانٍ، لا بُدّ أن أصرخ ثانيةً لعل الوجود البشري يتجلى في صورة أي جارٍ قد يسمعني..

وشعرت بنفسي أنسحب لأعلى بقوة وببطء بينما ذلك الشبح قد استطال بما يكفي وقد اقترب مسافة لا تزيد عن المترين، كان لوجه امرأة ملطخ بالألوان يشتعل شعرها بأحمر ناري يتماوج حول رأسها كما لو كانت جثة غارقة في أعماق المحيط تعلو ملامحها زرقة رمادية ناطقة بالموت، احمرارٌ مقيت يكلل نظارتها، شعرت بأن معدتي ستتدلى الآن منزلقة عبر فمي ورغبة عارمة في ان ألطم على وجهي من هول اللقاء، كنت احدق في الموت والخوف والسمعة السيئة للعفاريت، انهمرت من عيوني

وأنا أفقد كل مشاعر المستقبل دفعة واحدة، الوجه اقترب الآن تمامًا من الدموع وجهي، رائحة حريق ما تم غمره بالماء هي ما يفعم أنفاسي.. الآن اقترب الوجه أكثر وأكثر مضيقًا المسافة بيننا، أغلقت عينيّ لحماية البقية المتبقية مني ولكن قبل أن أغلقهما لاحظت أن الشبح يفتح فمه ويقترب من شفتيّ، فأسرعت بإغماضهما لأشعر بملامسة كهربية تغمرني في صورة.. في صورة.. في صورة قُبلة عميقة انحبس فيها تنفسي وكأنني أغرق في الرمال، قبلة أخذت مني رشفات لتقضي على البقية الباقية من حيويتي، قبلة مبتلة بلزوجة مريرة وتجعل الانغلاق بين شفتينا محكمًا كما سدادة الزجاجة، قبلة تعتمد على تفريغ الهواء من صدرك توطئة لموت محقق، تعالى الطنين مع احتباس أنفاسي، تبًّا لك يا نيوتن سأرتفع الآن رغمًا عن كل قوانين الجاذبية الصارمة، القبلة مستمرة تمتصني ولكنني بالفعل أرتفع لأعلى، أرتفع.. أرتفع بالرغم من سقوطي في براثن ذلك الغرام الخرائبي.





افتح.. أحسنلك

افتح ح ح ح ح ح ح ح ح أنا نادية

اقترب من الباب وأنا أشعر بصقيع يرجني بعنف..

الصمت سيد الموقف

ولكني أسمع ذلك الهرير الشاخر والذي يميز حناجر القطط وإن كان أعلى من المعتاد بدرجتين..

ولكن أين تلك النادية التي كادت أن تخلع مفصلات الباب.

عاودت الكلام المرتجف:

- مين؟ مين بره؟

لأجاوب بمواء ممطوط يختلط بهمهمة أقرب للكلام الأخرس للحيوانات، ولكنه فعلاً أورثني رعدة جعلتني أتوقف كالتمثال، ثمة رهبة تلتف المشهد فعلاً.

هل أفتح الباب؟ ربما الأمر قد اختلط عليّ، إنها مجرد قطة. على كل حال استجمعت شجاعتي وعالجت الرتاج العملاق والذي لا تتناسب صلابته مع هزال الباب وضعفه وفتحت الباب كما تتصورون.

لا أحد..

لا يوجد أحد..

ثم شعرت بلمسة ناعمة تمس أسفل ساقي وكان هناك من يعلن عن وجود

ذعرت وتراجعت للوراء ونظرت لأسفل بكل توجس.

لأجد هرًا سمينًا رائعًا يموء بهدوء، نظرت للهر الفخيم في استغراب من أين

أتى ذلك القط الملكي لهذا السطوح الفقير، كان سمينًا مدملجًا يلمع بموفور الصحة

والنضارة كأنه يملك خدمًا يتولون تغذيته بالطيب من اللحم، يتماوج فراؤه بالأبيض

المرقط بالمشمشي بالسمنة والغنى، يمس ساقي بمخميلة فرائه الأقرب للقطيفة

الكثيفة، أدركت أنه أنثى من أثدائها المتدلية أسفل بطنها.

كانت تموء بنعومة متعاكسة مع ما كانت تصدره من حنجرتها قبل أن أفتح

الباب، يالروعتها نسيت خوفي وحذري ونزلت على ركبتي لأتفحصها عن قرب، يا

الله على إبداعك.. جميلة بلا جدال وأنيقة بلا شك.. مددت يدي لأنعم بالتمسيد

على ذلك الديباج الفاخر، رباه إنها ناعمة كلحم المانجو متماسكة كتفاحة خضراء،

كثيفة دافئة كالأحضان، تملك عيونًا جلية كالعسل المقطر مليحة كديدن عيون

القطط مع لمسة عمق حقيقي في نظرتها كذلك تملك فمًا مرسومًا كما تفعل الفتيات

في حفلات التنكر، انتابني إحساس عجيب أشبه بكهرباء إستاتيكية رفعت من

حرارتي وأنا جاثٍ على ركبتيّ أتحسسها، الغريب أنها تركتني أتحسسها بصمت

وكبرياء بينما تنظر لي في تركيزٍ وتعالٍ حقيقي فبان الموقف وكأنني أجثو على ركبتي

احترامًا، ومع مرور الثواني تحوّل هذا الاستكشاف لإعجاب حقيقي بل وتعلقت بها

لآخر حدود التعلق، انتابتي شهوة الاقتناء في لمح البصر ووجدتني أفكر في اقتنائها

حتى لو اضطررت لسرقتها لو كان لها مالكٌ يبحث عنها حتى، تركتني أتحسسها

بتعالٍ وكبرياء وكأنها تمثال جميل يترك أيدي العابسين تتبرك بلمسه والتربيت عليه،

إنها جديرة بالتصوير فعلاً، دارت حولي ببطء وجعلت تموء بتركيز مطوّل أكثر من

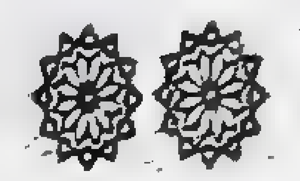
المعتاد وهي تتحرك.

ثم وقفت أمامي مرة أخرى وأنا ما زلت راكعًا على ركبتي أتفحصها بتوتر وتعجب..

ثبتت عينها ذات الضوء العسلي بعيني لبرهة..

قبل أن تموء بحروف مسموعة وتقول:

- أنا جدالة.



مايكل جاكسون

كان العالم يستعد للحدث الموسيقي الأكبر في تلك الأثناء، إنه الألبوم الغنائي الجديد (history) لمطرب الملايين ونجم نجوم البوب (مايكل جاكسون).. نحن الآن في وسط يونيو 1995 وبقي على الإصدار ثلاثة أيام، كانت أجلس في مقهى الساعة في الميدان أنتظر الأستاذ (محمد ناجي) رئيسي ورب علمي الأول، القلق يعتريني بشدة لسبب ستعرفونه الآن، ثمة قرار يجب أن أتخذه، قرار عصيب ولكن لا بُدَّ من اتخاذه، شاهدته وهو يقترب من بعيدٍ بقامته الضخمة وسمنته المفرطة يبلِّل العرق ما تحت إبطيه وحول أثدائه، قمت من فوري لأستقبله، كان سلامه جافًّا فهو لا يقبل التلامس مع أي شخص.. ويعتبر جثمانه المترامي الأطراف حرمًا محاطًا بالأسلاك الشائكة، كان شديد النهم يأكل من أطايب الطعام وأغلاه وبكميات لا تُصدّق، وكان لي نصيبٌ من موائده العامرة في أحايين كثيرة، كان غارقًا في اكتئاب مزمنٍ أورثه ذلك النهم غير العادي في الطعام، جاء النادل بكرسيٍّ خشبيٍّ ليريح عليها الأستاذ جثته الهائلة ويطلب ليمونًا باردًا، عدت للجلوس بعد مراسم استقبال أستاذي وأمسكت بمبسم النرجيلة لأمتص الدخان الـ "أصّ" وأحسو حسوات القهوة والتي لا يرضى ناجي أن أشربها لصغر سني.

تجرع (ناجي) كوب الليمونادة مرة واحدة وطلب واحدًا آخر، كان شخصية جادة مفكرة لا تعرف الهزل أو المداعبة، يتكلم بلغة أقرب للفصحى بحكم عمله كمدرس

في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ورئاسته لعدد من الجمعيات الأهلية، كان يملك شركة توزيع شرائط الكاسيت كمنتج للألبومات الأجنبية وإعادة طبعها هنا في مصر، موسوعة ثقافية تسير على قدمين، يملك من الغموض ما يريحك من عناء البحث، موفور المال يسيطر بحكم ثقافته وعلمه الغزير على مقاليد أي حديث، صفحة وجهه عريضة كأنك تنظر لشاشة، تكلله الدهون فتجعل منه قطعة لحم تكفي قبيلة كاملة من آكلي لحوم البشر، كان يحبني ويرعاني وكنت أخلص له بالمقابل وأعمل معه كمساعد أساسي في كل أعماله، أخرج ناجي ظرفًا غليظًا وفضه أمامي متمتمًا بحزم:

- دي تذكرة السفر بالأتوبيس وده الباسبور وده تصريح السفر.

وناولني ورقة صفراء سميكة تخوّل السماح بالسفر لدول البحر المتوسط كانت مرفقة بجواز سفري الجامعي.

نظرت له بقلق فهو يدرك تمامًا حجم تردُّدي في تلك السفرية ولكنه كان متشبثًا برأيه مُصرًا على التنفيذ.

- مالك؟ شكلك لسه متردد؟

تلعثمت كعادتي عندما أكذب وأنا أقول:

- لا أبدًا أنا تمام.

نظر لي بعينيه من تحت طبقات الدهن والتجاعيد فشعرت بالحصار.

- ماتكدبش إنت متردد وخايف كمان.

التزمت الصمت وعُدت أمتص دخان السلوم من الشيشة، وتظاهرت بمراقبة حركة المارة في الميدان والتي لا تهمد أبدًا، كان (ناجي) هو معلمي الأول، كان رجلاً منفتحًا على العالم واسع الثقافة عميق التأثير فعلاً، كان يشجعني على فعل كل شيء لمجرد التجربة ويرى أن التجارب هي ما تشد ظهر الفرد وتجعله مدعومًا قادرًا على كل المواجهات، ولكن طبعي الريفي كان يرفض بعض تصرفاته خصوصًا أنه يعاقر الخمر ويتكلم في مواضيع أعتبرها محظورة بحكم النشأة والتربية، أنه منفصل عن

زوجته الأجنبية والتي استحوذت على ولده الوحيد وعادت لأمريكا تاركة إياه بعد عشرة دامت لعشرين عامًا في غربته مما حدا به التفرغ التام لأحزانه ونهمه المتزايد تجاه الطعام، لدرجة أنني تصورت أنه يأكل أثناء نومه أيضًا. يقطن في شقة أمه القديمة بشارع زين العابدين، شقة واسعة بالطابق الأرضي كثيرة الثنايا والخبايا، ويملك مكتبةً عظيمةً لم أرَ مثلها من قبل تحتل غرفة واسعة وحدها كان لا يسمح لأحد بالولوج فيها، في مرة لمحت بابها مفتوحًا فاسترقت النظر؛ كتب ومجلدات تمثل أبراجًا في وسط المكان بينما تتراص أخواتها على الرفوف التي تحتل الحوائط كلها، كان لا يسمح لي بالدخول فيها بل ويُحكِم إغلاقها دومًا بالمفتاح وعبثًا حاولتُ دخولها بلعنة الفضول التي لا تتركني، ولكنه كان صارمًا في هذا الموضوع بالذات. يعيش في غرفته القديمة منذ كان تلميذًا، ولا يستخدم باقي غُرَف الشقة الخمسة، كانت تعتريني القشعريرة حين يطلبني للمجيء عنده، ثمة وجود ثقيل في المكان خصوصًا وأنه دومًا يحافظ على إضاءته خافتة وسط هذا الكم من الغرف المغلَقة، تجده دومًا بالمطبخ يطهو شيئًا أو يلتهم شيئًا؛ فهو شره جدًّا، فمه لا يهدأ عن المضغ والبلع، يعشق اللحوم العامرة بالدهن ويطهوها بالسمن المحلي الممتاز، كان بيته تجتاحه تلك الروائح التي تشمها عند الحاتي، يعبُّ الخمور كالماء ويأتي لنفسه بأغلى الأنواع وأفخرها إن كنت لم أشهده ثملاً إلا في مناسباتٍ قليلة جدًّا، وكنت أعرف مظاهر السُّكرِ عليه وكانت غريبة جدًّا، إذ كان يقف إلى مقابل الحائط ويتكلم بوفرة وثقافة كبيرة كأنه يحاضر في السوربون أو يلقي بتحليل سياسي في الأمم المتحدة، ثم يغرق في البكاء الحقيقة أنه كان يملك أخلاقًا أنيقة لا تتماشى مع غلظة قوامه وعدم انتظامه، والغريب أيضًا أنه يتمتع بصحة جيدة جدًّا، كنت أتابع كلامه بعدم اكتراث حقيقي خصوصًا لو نابني من الحب جانب بعد استئذانه في بضع رشفات لا يسمح بها إلا بعد إلحاح، كان يعاملني كأبٍ يحافظ على صرامته تجاه ابنه الوحيد وبالطبع كنت أضيق ذرعًا بتوجيهاته وأوامره التي لا تنتهي، ولكن مع الوقت بدأت

أصغي لرسائله التي يقولها، ووجدتها نبوءات لم أعرف قيمتها في حينها، كنت ألتزم الصمت حيال تلك التصرفات فهو عصبي ذو لسان لاذع بالنقد ويملك من مفاتيح الحوار ما قد يخرسك للأبد، لم أكن أبدًا أشك في حبه لي وهو من ساعدني لأستأجر تلك الشقة وشجعني على الاستقلال عن بيت أهلي بعدما لمس إصراري وأنا ما زلت ابن العشرين وهو أمرٌ لم يتقبله الناس وقتها أبدًا ولكنني تحليت بشيء من الشجاعة لأخطو تلك الخطوة الجبارة بمساعدة ناجي كان عيبه الوحيد هو الاختفاء، إن له قدرة هائلة عن الاختفاء من حياتك وكأنه لم يكن فيها أصلاً، يختفي بالأسابيع وأحيانًا بالشهور تاركًا إياي في حيرة شديدة من أمره، وكما كان يختفي فجأة يظهر فجأة وكأنه انبثق من العدم ليعود في حياتك كأنه كان موجودًا البارحة، كنت دومًا أعتب عليه وأطالبه بتفسير فكان يبتسم ويهديني شيئًا ليخرسني..

أخرج ناجي وريقات ملونة بدت كعملة أجنبية خضراء..

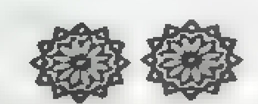
- دول 200 دولار عشان تشتري 3 نسخ أو 4 من الأسطوانة.

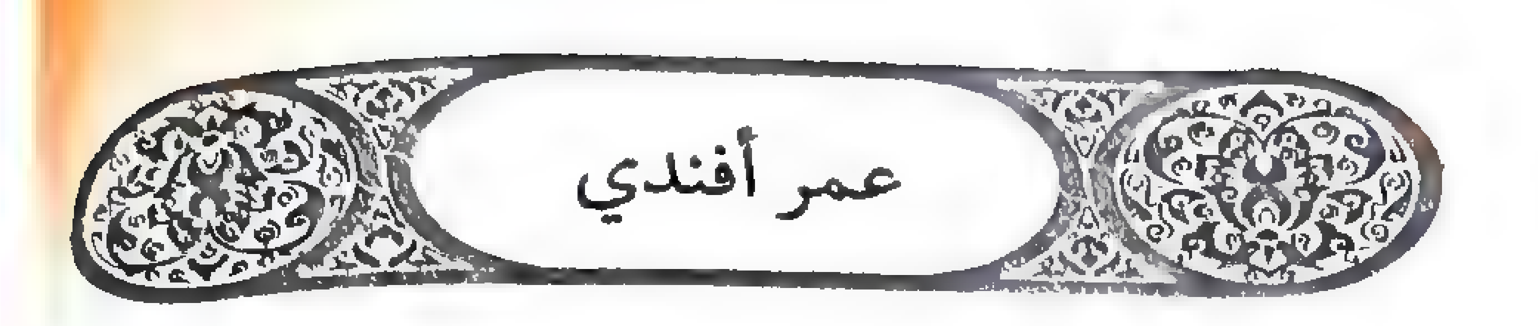
ثم دفع إليّ بعملات أخرى كنت أراها لأول مرة.

- ودول 500 شِيكل لزوم المصاريف وعشان تشتري هدايا وانت راجع.

- شيكل؟

- أيوه شيكل ماتعرفوش؟ دي عملة إسرائيل.

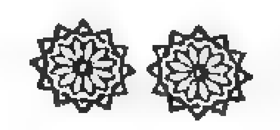


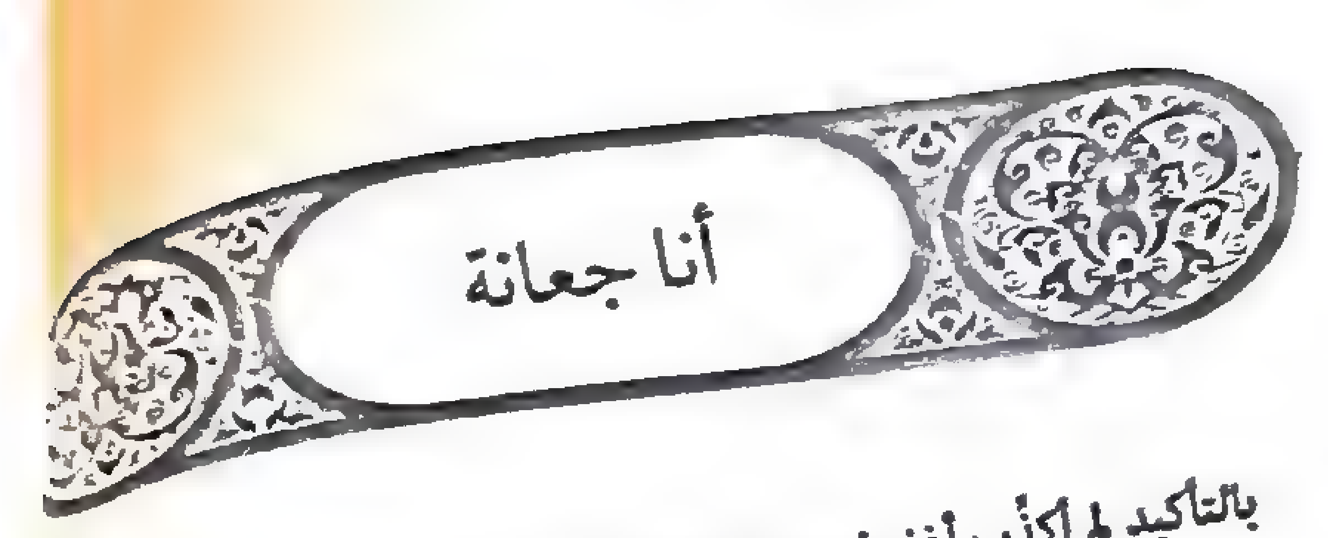


عمر أفندي

كانت الآنسة (أمل) أول من يصحو في بيت أم زينهم، فهي موظفة المبيعات في (عمر أفندي) تلك السلسلة التي ورثناها من اقتصاد اليهود وأورثتنا بطالة مقنّعة في صورة موظفين لا يفعلون شيئًا على الإطلاق وبفرعها الواقع في ميدان السيدة زينب، يبيعون كل الأصناف الحكومية الرديئة الصنع من ملابس قطنية تلصح للعجائز وأدوات كهربية وأدوات مطبخ، الغريب أن أسعار (عمر أفندي) أغلى من السوق ولا أعرف السبب، كانت أربعينية بضة تشي ساقاها المدمجلتان بجسد وافر وخصوبة مُعطّلة وحظ راكد بطعم العجين، فتحت المذياع على محطة القرآن الكريم واتجهتْ للحمّام لتغتسل من آثار النوم قبل أن تشرع في زينتها المكوّنة من الكحل وأحمر الشفاه، شعر أسود طويل ووجه له بياض العنوسة وعينان محرومتان من لمعان النشوى وحظ متعثر منذ عقدين من الزمن، فهي (عانس) للأسف لم يتقدم رجلٌ لخطبتها بالرغم من جمالها وأنوثتها المتورمة والواضحة لعين أي حمار، تأملت ملامحها بقلق وشرود وهي تمشط شعرها الغني قبل أن تعقصه على شكل كعكة سميكة وأتمت زينتها ورسمت عينيها وحاجبيها بعناية شديدة إذ كانت تعشق عينيها وشعرها وكانت دائمة النظر للمرآة لدرجة أن أمها نهرتها كثيرًا ألا تفعل حتى لا تتعرض لعشقٍ من الذين يعيشون تحت الأرض ولكنها فعلاً تعشق المرآة وتترك مكانها في العمل لتذهب للحمّام وتنعم بالنظر إلى عينيها المرسومتين وشعرها الغني

كانت أختها الكبرى (التي هي ابنة خالتها في الواقع ومطلّقة أخيها زينهم - كريمة) تغط في النوم على السرير المجاور وفي أحضانها ابنتها الوحيدة (عزة) والتي لم يحن استيقاظها للخدمة في مطاعم الخواجة كنتاكي بعد، هي لن تُحضر شايًا أو حليبًا؛ فهي ستفطر مع زملائها في العمل من عربة الفول القائمة على رأس شارع مراسينا، واليوم هو دورها في جلب الفطور لهم وقبل ذلك أيضًا هي على موعدٍ مبكر مع أحدهم فلا مجال للمقابلة إلا في هذه الأثناء المبكرة جدًا، كان رأسها صاخب بالأفكار، ثمة قرار يؤرقها ويجعلها لا تنام الليل، أتمت هندامها وتأكدت من ضبط الأكتاف الإسفجية لفستانها على كتفيها لتظهرها عريضة الصدر إذ كانت تعاني من أكتاف ضيقة نوعًا ما وذلك الابتكار الإسفنجي قد جعل من كل سيدات التسعينيات عريضات المناكب كالعساكر، كان من عاداتها أنها تنسى شيئًا ما، مفتاحها، مرآتها الصغيرة، كيس النقود، كانت تملك هيستيريا النسيان بسبب تزاحُم أفكارها في موضوع واحد فقط؛ لماذا لم يتقدم لها عريس إلى الآن، لماذا بقيت عانسًا مع جمالي وأنوثتي، لا بُدّ أن أتزوج ليس لفعل الزواج ولكن وضعي بين الناس بات مزريًا، لكم رقتني أمي ودعت الله بفك عقدتي ولكن أمي التي حلت مشاكل كثيرات عجزت أمام نحسي وركودي وتكوم بجوار جهازي الذي بطلت موضته من طول التخزين، توجهت لباب شقتهم الأرضية وفتحته ثم تذكرت أنها نسيت شيئًا فتراجعت لغرفتها وأخذته وتوجهت لباب الشقة مرة أخرى، وقبل أن تخطو من عتبة الباب أبصرت شيئًا جعلها ترقع بالصوت الحياني ويرتفع صوت صراخها ليشق أجواز الصباح الصامت ليسمع البيت كله وبيوت الجيران.. وفي أقل من دقيقة تجمّع الأقرب إليها من الجيران ومنهم أنا وقد هرعت لأسفل حافيًا مشعثًا من أثر نومٍ قصيرٍ في أحضان مادة المحاصيل.





أنا جعانة

بالتأكيد لم أكذّب أذني فهي قالت إنها جائعة.

نعم لقد خرج الصوت من الهرة الجميلة تطلب فيها طعامًا

شعرت بكهرباء تسري في منابت شعري وإن لم أكن قد استوعبت الموقف كـ

ماذا أفعل.. هل أستجيب أو أنتفض وأغلق الباب

شيءٌ ما يحثني ألا أرفض طلبها

هناك بقايا طعام قد يصلح لها عندي

تركتها وأنا أمشي كالمنوّم مغناطيسيًّا للمطبخ لأبحث عن شيء يصلح؟

وجدت وريقة بها فتات من الجبن الرومي وبقايا حليب في الغلاية الألومنيوم

صبيت الحليب في طبق وأخذت الورقة وعدت للخارج لأجد الهرة وقد افترشت

الأرض بالقرب من الباب..

كانت تنظر لي بتركيز، بل إنني لمحت.. لمحت ما يشبه الابتسامة وهي تُبصِر

ما في يدي من طعام، لم أجرؤ على الاقتراب أكثر منها بل هي من دانت إليّ تتمسح

بطريقة القطط المحببة.

وضعت لها طبق الحليب، اقتربَتْ وهي تدور حول الطعام والشراب تتشممه

ثم شربت منه حتى مسحته وأكلت بعض فتات الجبن الرومي، ثم لم تلبث أن لعقت

[illegible] الأرض بجسدها اللحيم قبل أن تتوجه إلى الباب المفتوح سلفًا.

لم أبرح مكاني وقد أدركت أن هناك شيئًا ما على غير ما يرام.

وقبل أن تغادر، أصدرت مواءً قصيرًا مُختلِطًا بكلمة واحدة وهي تعطيني ذيلها المنتفش المنتصب بنعومة:

"شكرًا"

ثم تبخترت مغادرة المكان بكل هدوء فحاولت احتجازها بأن سددت عليها الطريق لتنفخ في وجهي بغضبة مرعبة جعلتني أتنحى جانبًا لأوسع لها الطريق فمضت تتبختر ببطء ولم تنظر وراءها أبدًا، تركتني متحسرًا على جمالها النادر وحجمها الملكي.

***

وصلني الصراخ حيث كنت غافيًا بعد سهرة مملة في مقرر المحاصيل اللعين والذي يشعرني بأنني موظف الجمعية الزراعية لقرية ميت يزو بالدقهلية، فقمت من فوري أتشمم الجو، أعرف أنني من الناس بطيئة الاستجابة ويلزمني ثواني قبل أن أستوعب الموقف وأعرف أنه ثلاثي الأبعاد، إنه صوت الآنسة (أمل) في الدور الأول، يا ترى هل ماتت العجوز الحبيبة؟، جريت نازلاً السلم بملبسي المكوّن من فانلة داخلية وبنطلون قصير حافي القدمين مشعث وصوت نهنهة (أمل) مستمر وفي أثناء نزولي وجدت باب الطابق الثالث يُفتح عن وجه سمية المنتفخ بالنوم وتورمات الشجار مع وليد، نظرت لي متسائلة فتجاهلتها وأتممت هبوطي، باب الدور الثاني لم يُفتح على عكس المتوقع باعتبارهم أقرب الجيران لأمّ زينهم، واصلت الركض لي أن وصلت للدور الأول حيث وجدتُ أمل وكريمة وعزة يقفن للداخل بينما باب شقتهم مفتوح، نظرت لهم في حيرة وأن أتوقع الخبر الأسود عن أم زينهم، وقبل أن أسأل سمعت صوت (أم زينهم) تنادي (أمل) وتأمرها بأن تأتيها حالاً، ازدادت حيرتي مع انصياع

شقتهم صرخت في أبلة كريمة بأن أمل واختفائها من المشهد، وقبل أن أخطو لداخل شقتهم صرخت في أبلة كريمة بأن أتوقف مكاني ولا أعبر، توقفت فعلاً وأنا لا أدرك معنى أن تطلب مني الوقوف وعدم الدخول إذ أن شقتهم تعتبر امتدادًا لشقتي وأنا أدخل عليهم كلما مررت حيث بابهم المفتوح ليلاً ونهارًا لقد نسيت أنني تقريبًا عارٍ.

- فيه إيه يا أبلة كريمة؟

كان الشعث يظهر عليها إذ إنها قامت من النوم مفزوعة على صراخ أختها أمل، بينما كانت شفتاها ترتعشان بترديد آيات القرآن قبل أن تختفي تاركةً إياي واقفًا كما أمرتني، نظرت لـ (عزة) مستوضحًا أي شيء فما كان منها إلا أن أشارت لأسفل حيث عتبة الباب الحجرية، فنظرت مليًا لأجد بقعة ماء تشمل أسفل العتبة بالكامل، بقعة ماء خبيثة لونها أصفر وتعوم فيها بقع حمراء تشمل مسافة العتبة كلها، لم أفهم نهائيًا ما المقصود، ربما كان هناك كلب ضالّ قد تبوّل على العتبة مثلاً أو أي شيء من هذا القبيل، ظهرت كريمة وبيدها دلوٌ وممسحة وكيس من الملح أضافته لماء الدلو.

- إوعى تخطي العتبة يا واد إنت.. استنى لما أطهرّها.

لم أفهم أبدًا بينما يأتيني صوت أمل الباكي وهي تندب حظها بهيسترية:

- هو أنا ناقصة .. حسبي الله ونعم الوكيل.

نظر لي (ناجي) بعينيه القويتين مليًا قبل أن يقول:

- هتنزل (طابا) وتعدي المعبر لحد ما توصل لمينا (إيلات).. هتركب من هناك باص هوديك المدينة نفسها.. هتلاقي أوتيل على الطريق اسمه (أرافا)، هو نُزُل للشباب سعره من 20 لـ30 شيكل في اليوم، الأسعار هناك رخيصة نسبيًا عشان دي منطقة حرة مافيهاش ضرايب والتصريح الأصفر ده هيخليك تعدي من غير أي مشاكل.

انفجرت فجأة طافحًا كل مخاوفي في وجهه:

- بصراحة أنا خايف أسافر.

نظر لي يتمعن لبرهة قبل أن يستأنف كلامه كأنني لم أبد الاعتراض والتردد.

- لما تنزل هناك هتلاقي محلات الأسطوانات على طول الشارع الرئيسي هتشتري 3 نسخ هتلاقي النسخة بحوالي 60 شيكل اشتريهم وترجع فورًا عشان ماعندناش وقت.

- بقولك أنا خايف يا ناجي من السفر لإسرائيل.

- خايف من إيه إنت معاك تصريح من أمن الدولة نفسها وإنت رايح في شغل محدد هتعمله وتيجي على طول وهتشوف الدنيا هناك وتتفسح.

- وإيه اللي يضمنلك إن أسطوانة مايكل جاكسون هتنزل عندهم في نفس وقت نزولها في أمريكا.

- لأن إسرائيل تُعتبَر ولاية من ولايات أمريكا، ده إن ماكانتش أهم ولاية كمان وطبيعي أسطوانة مهمة زي مايكل جاكسون تنزل فيها في نفس التوقيت.

- ولما الناس تعرف إني سافرت إسرائيل.

- ما يعرفوا.. إحنا في حالة سلام دائم معاهم وعلى فكرة هما بيحبوا المصريين جدًا.

نظرت له وأنا غير مستوعب للموضوع وإن باتت الإثارة هي ما يعتريني بخصوص السفر في حد ذاته ولأنني أثق في الرجل وفي اتصالاته الواسعة وحبه لي لما وافقت أبدًا على السفر.

- لولا أني ورايا مؤتمر لازم أنظّمه كنت سافرت أنا، وأهي فرصة تشوف الدنيا يا متخلف إنت.

ثم شاعت في وجهه ابتسامة نادرة وهو يناولني أوراقي وتذكرتي وعملاتي وهو يقول:

- إوعى تركن هناك، أول ما تشتري الأسطوانات ترجع بسرعة عشان محدش يسبقنا في نزول السوق عاوزين ننزل كمية حلوة.

-

ناولني ورقة مطوية بعناية وهو ينظر مباشرة في عيني.

- ده عنوان لوعام يعقوب)ورقم تليفونه)

- يعقوب مين؟

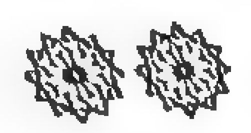
- يهودي من أصل مصري.. كمان هتلاقي عنده علاج.

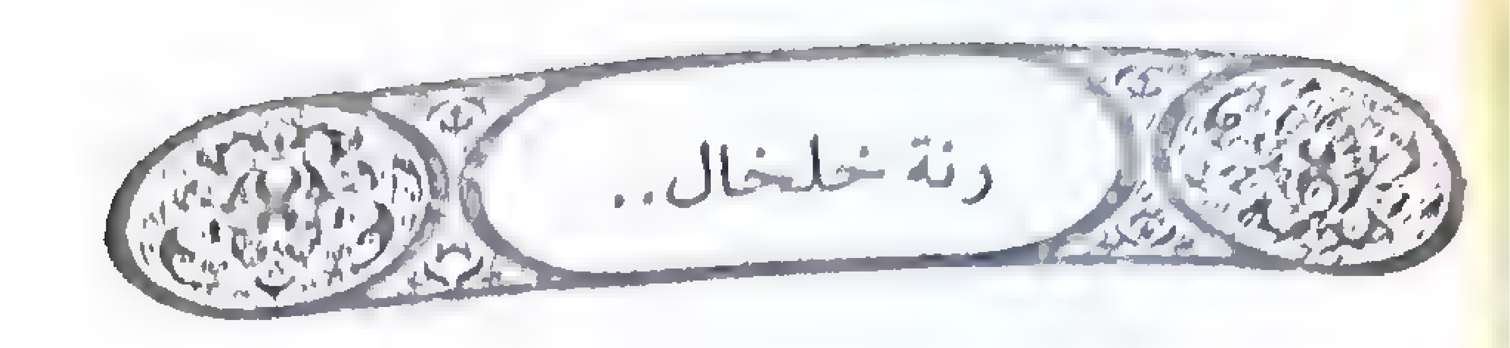
- علاج..؟

- آه علاج من الحاجات اللي بتشوفها دي.

لم أستوعب كلامه أولاً لم صعقت عندما أدركت أنه يقصد موضوع الزيارات التي أصبت بها مؤخراً..

كانت لهجته الآمرة وطريقته المباشرة في إدارة العمل تريحني جدًا وتطمئنني. يا لها من ذكريات؛ فبعد ساعات سأكون فعليًا في أرض العدو الأكبر ورمز الكراهية المزروع في قلب كل عربي، سأكون في أرض إسرائيل.





1970

أنيقة متينة كقطعة أثاث غنية بالزخارف، تطأ الأرض بخفة ولكن برسوخ وتهتز أردافها كاملة الاستدارة بنفس درجة اهتزاز صدرها العامر والمشكوف دومًا للناظرين والمختلسين النظر حين يبصرونها تتهادي قادمة من شارع السد الكثيف لشارع سيدي علي الأخرس والذي ازداد خرسه حين هلّت عليه نادية، مُطلّقة من أربع ذكور سابقين، كلهم حرقتهم الغيرة الكبرى على ذلك الكنز ذي الشعر الأحمر والخصر الضيق كإبريق الماء البارد في عز عز القيظ، والعيون الواسعة كثيفة الأشواك تلمع بلون عسلي لم يُصَفَّ بَعْدُ وذلك اللادن الذي يصرخ في فمها ذي الشفاه الوحشية بصوت دبيب القلب لحظة الانتشاء، وقد التفت الملاءة السوداء محبوكة على عجيزتها كتصريح لها بالرقص والتمايل على أرض الشارع وقلوب رجاله وشبابه وكهوله أيضًا، هي أمٌ لقبيلة من الأطفال والشباب إذ إن عمرها تخطى الأربعين بعامين أو ثلاثة، ولكنها كانت كالجبن الرومي، كلما تعتقت كلما فاحت رائحة المكونات وتشنفت خياشيم الرجال والصبية أينما حلت، باختصار كانت مُهيجة للرأي العام، والغريب أن أحدًا لم يكن ليقدر على التعرض لها، كانوا يكتفون بنظرات الحسرة من بعيد يتأملون تلك الأعجوبة في ملاءتها السوداء بلون الليالي، هل ذكرت لكم اسمها.. كان اسمها.. نادية.

((الحب الحب يا ناديين..))

يا نااااااااااصير يا نامييييييير..

هكذا تصرخ أبلة (كريمة) في مسقط النور، كانت تناديني بنغمة ممطوطة ...

بصوتها الطفولي رغم تخطيها الخمسين، زاعقة في شخصي أن هناك مخابرة هاتف...

في تلك الأيام كان دخول الهاتف منزلك أشبه بمعجزة أو أعجوبة وكانت أع...

بجانب دراستي في الجامعة تستدعي أن أترك لبعض عملائي رقم هاتف، ولم أ...

سوى هاتف (أم زينهم)، خرجت رأسي تطل عليها بعدما نادتني عشرين مرة ع...

الأقل نابحة بالممطوط من اسمي الذي شعرت أنها استهلكت جزءًا كبيرًا منه في ذل...

النداء الحازق.

- نعم يا أبلة.

جاوبتني بصوت مختنق من كثرة النداء والحزق:

- صوتي انبدح يا منيل.. جايلك تليفون.. يالا دَلْدِل السبت.

جاوبتها كاذبًا:

- كنت في الحمّام.. حاضر هدلدله أهو.

ونظرت تحت قدمي لأبحث عن ذلك الاختراع الذي صممته عوضًا عن الطلوع

والنزول على سلم البيت العالي ولكي أجري مكالماتي بعيدًا عن تنصت أبلة كريمة

المعتاد، وكان الاختراع هو سلة تتدلى بحبل من داخل المنور (أو مسقط النور) فتضع

أبلة كريمة التليفون الأرضي الأسود بكامله والمزود بقفل يضمن عدم إجراء اتصال منه

(كانت تلك الظاهرة موجودة بكل هاتف في البيوت المصرية، تضعه ربّات البيوت

حتى لا يتجرأ أولادهن على عمل اتصال دون الرجوع للأم وحتى لا تزيد الفاتورة

قروشًا إضافية تُنهك ميزانية بيوت مصر الموشكة دومًا على الإغماء) ثم أجذب الحبل

رافعًا (العدة) وكم من مرة نسيتها في مكانها ونزلت لأنجز بعض الأعمال، كانت أبلة

كريمة تغضب وتشن الحرب عليّ معلنة أن لا رجوع لخدمة (الـ...

تعاود النداء ناسية أو متناسية ما قد مضى من استهتاري غير المتعمد، كانوا أناسًا بسطاء رائعين حتى غضبهم كان لا يتعدّى الأصول ولا العدوانية بالرغم من أدالهم المبالَغ فيه أحيانًا، وبالرغم من استهتاري وذهولي اللذين باتا يلازمانني من وقت سقوطي غير المكتمل في الخرابة.

رفعت السماعة السوداء السماعة والتي تزن طنًا على الأقل إلى أذني، وأسمع صوتًا بدا مألوفًا إلى حد ما.

- أيوه يا تامر بقالي ساعة على التليفون كنت فين؟

كررت كذبتي قائلاً:

- لا مؤاخذة كنت في الحمّام.. مين معايا؟

- أنا الحاج (مصطفى) يا ابني.

سرحت قليلاً محاولاً التذكُّر قبل أن يقاطعني بنفاد صبر.

- أنا الحاج مصطفى.

تلعثمت قبل أن أجيبه محاوِلاً تذكُّر الاسم أو الصوت.

- الحاج مصطفى مين؟

أجابني وقد بلغ منه الكلل والتعب من الانتظار السابق.

- يا ابني أنا الحاج مصطفى.. بتاع الكباريه.

- ..

- ماتجيش النهارده يا ابني.

انقبض قلبي ووقع متكسرًا حول قدميّ.

- ليه يا حاج هو أنا عملت حاجة لا سمح الله؟

- ماتجيش وخلاص تعالى بكرة.

تحايلت عليه ليخبرني السبب فجاوبني بعد إلحاح:

- (طلال) جاي يسهر النهارده ولو شافك ممكن تحصل جريمة وإحنا مش ناقص

سرحت للحظة متذكرًا ذلك الكهل الخليجي ، والذي تدور بيني وبينه مصادم

متتالية بفعل عشقه وغرامه الذي يلاحق به حبيبتي (نادين) قبل أن أضع السما

بينما أسمع صوت أبلة كريمة تنبح من أسفل كالأوراح المعذبة.

- يا واد يا تامر يلا دلدل السبت ونزّل العِدة لحسن تنساها عندك.

عاودتُ إنزال السلة وفيها الهاتف وأنا سارح في كلام الحاج مصطفى و ذكريات قريبة تتجمع كالغيوم لتزيد من لوعتي الخاصة.

أشياء تمس قصة حب لم أعلن عنها أبدًا لتلك الهيفاء صاحبة العيون القا وخصرها المشدود كالرمح وذلك النهد النافر اللعوب وتلك البراءة التي تحي وجهها بزغب يفضح نضارتها المؤكّدة وقُبلتها اللاذعة بطعم البرتقال، وضحكتها ال توازي الطموح، تعرفت عليها وهي تتهادى عائدة لبيت أبيها الذي كان صدية من المدرسة التجارية، كانت تخطف الأبصار بزيّها الأزرق وشعرها الكثيف النا وعينها التي تجبرك على التوبة من كل المعاصي.. كانت الابنة الصغرى لعازف الإيقا العتيد (طبّال) في الملهى إنه (العم شافعي) كان رجلًا مزواجًا اقترن بنصف دستة م الغواني، أي إنّ كُلّهُن من نفس الكار، أما راقصات أو مضيفات (مضيفة الكباريه هم التي تكون مسئولة عن فتح زجاجات الويسكي والبيرة في المكان وهي حالة وسط بين الراقصة والعاهرة وفي العموم يكون سنها متقدمًا بشكلٍ واضح على كميات الأصباغ التي تدهن بها صفحة وجهها لتضيف أضواء ملونة لسحنتها التي أعتمت من الداخل)، يحمل قسامة في وجهه -العم شافعي- تشي بجاذبية قديمة بشاربه العريض الذي يخفي شفته العليا ووجهه الحليق المعطر ولباسه الرسمي دومًا من البذلات ذات الألوان المعدنية البراقة وقامته الطويلة الأقرب للنحافة، كان طبالاً ممتازًا موهوبًا يضرب بدقاته ونقراته ليهز حتى خصور الوقورين من الرجال ولسانًا زلقًا بكل عبارات السباب المنتقاة بعناية وفن، كان

متحرر لأقصى درجات التحرر؛ فهو ملك ملوك (القافية) في مجال العازفين، كانت علاقتي به علاقة انبهار من جانبي وأبوية من جانبه إذ أنني كنت أستمد الجراة منه، ومن ناحيته فكان يلاطفني ويحلو له عجزي الدائم عن مجاراته في الكلام، وعندما كنت أغضب منه كان يلاطفني ويؤكد أن ما يفعله بي من تهزيق وبعثرة لكرامتي هو مجرد (تدريب) لا أكثر لأصبح أكثر جرأة وحضور ذهني أو ما يُطلَق عليه في العموم (شغل آلاتية) فهو له في كل شخصية مسمى يلخص به الشخصية (التَرَس) مثلاً هو الرجل الذي يتدخل بغباء فيما لا يعنيه ويتورط فيه، (البيومي) هو الرجل الساذج الطيب، (الشنف) وهو القوي المستخدم من قبل الآخرين.. والحقيقة أنني كنت أتقرب منه لسبب أبعد من (تدريبي) على كلام القافية والردود المُفحمة، فقد كان يملك أعذب وأجمل وأرق فتاة صادفتها، كانت الست "نزيهة" ترحب بي ضيفًا في بيتهم وترى في شخصي عريسًا مناسبًا لابنتها الوحيدة وكان التجاوب بيننا في أعلى امتزاجه إذ رأيت فيها أعمق معاني الحب التي قد تطرأ على قلب شاب جامعي مكافح يملك قدرًا لا بأس به من الوسامة والجاذبية والرغبة في قصة ما، باتت زياراتي لهم شِبهَ منتظمة في عُطلات الأب من العمل، كانت تستقبلني بقبلة خاطفة على درج العمارة السكنية التي يقطنوها في حي العتبة فائق الشهرة وبالتحديد في أحد شقوقه بدرب المهابيل، كنت أحمل لها الهدايا المتمثلة في الدببة والقطط وزجاجات العطر، كانت (نادين) على مشارف الثامنة عشر تلمع كالذهب الجديد، وكما لاحظت ترحيبًا من الأم لاحظت وجومًا وتحفظًا من الأب الذي بدا غير مرتاحٍ للعلاقة العاطفية السامية التي كنت أبثها لابنته الأخيرة في عنقود ذريته غير المتناغم أبدًا نظرًا لتعدُّد زيجاته، كنت أقضي معهم الليالي ساهرًا أسمع نقرات الأب على الطبلة بينما يجلس معنا رفاقُ دربِه من مختلف أشكال العازفين والذي يعتبر هو (الشاهبندر) بالنسبة لهم، واختلس اللحظات التي اقترب فيها من (نادين) التي كانت تمدني بمختلف وأشهى أنواع النظرات وعبارات الحب المصنوع منزلياً

من فتاة لم تعرف من الشارع إلا أنه الطريق الذي تأتي منه وتذهب لمدرستها
أن جاءت ليلة كنت فيها مدعوًا عندهم فوجدت جمهورًا كثيرًا يجلسون في الر
والشرفة المطلة على (درب المهابيل) المتفرع من شارع محمد على الشهير وثمة في
موسيقية مكونة من ثمانية عازفين يطقطعون ويدوّزنون تمهيدا لعزف مقطو
ما، أصابني الكدر في هذا الجو المزدحم فلن أنعم ببعض الملطفات بيني وبين
بل إنني لم أبصرها وسط الحضور، فقط الأب يجلس في مقدمة الفِرقة بينما الفتا
وأمها مختفيتان تمامًا.

- إزيك يا عم شافعي.. إنت عندك حفلة ولا إيه؟

فابتسم بتركيز ونظر في عينيّ مباشرة قبل أن يرد:

- أهلاً يا لوز، وشك حلو عليًا.

- خير يا فنان؟

شاعت الابتسامة وهو يشير بذقنه لركن فتوجهت ببصري لحيث أشار لأجد (الحاج جعفر) مدير الملهى الذي أعمل فيه يجلس أرضًا وقد تخفف من حذائه وحوله جوقة من رجال يتبادلون النرجيلة (البوري) النحاسية والمطعومة بالحشيش المغربي الفواح، فأشرت له بيدي في تحية متوترة إذ إنه مشهور بسلاطة لسانه وحزمه في إدارة الكباريه بقوامه الأقرب لثمرة قرع العسل ووجهه الموشك دومًا على الانفجار بكل الشتائم.

- ريّح هنا وهبعتلك بيرة مشبرة مع الواد كتكة.

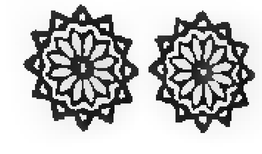
تركته مرتبكًا ولم أجرؤ في السؤال عن غزالتي (نادين).

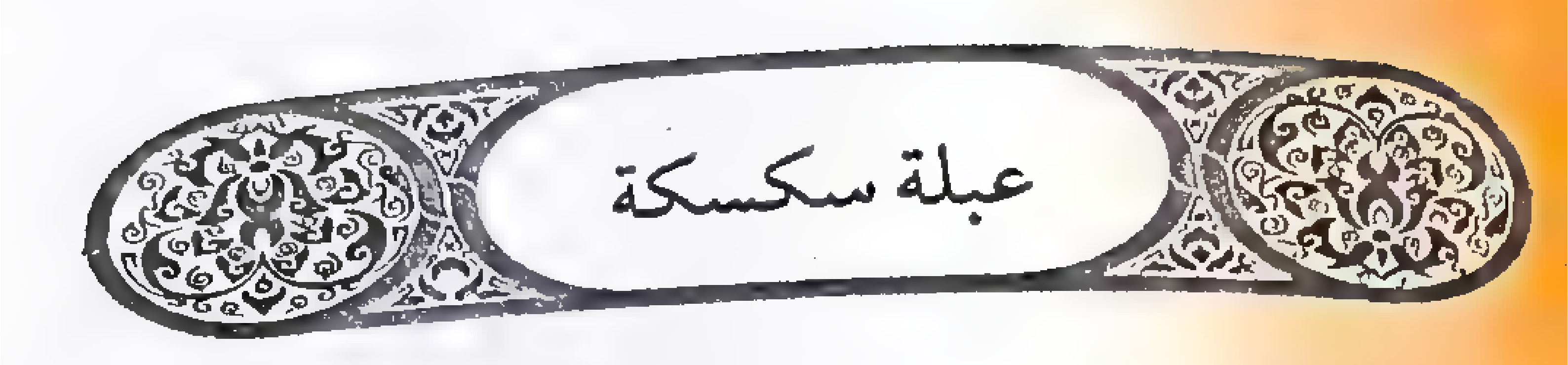
ثم لمحت الأم تخرج من الردهة الداخلية المعزولة عن التجمع بستار سميك، كانت تحاول احتواء اهتزاز شحمها في فستان أسود ضيق جدًا أبرزَ الترهلات مكبوسة متكورة بطريقة مثيرة للشفقة، إنها المرة الأولى التي أرى فيها الست

(نزيهة) بهذا التبرج الصادم، كنت أراها دومًا في ثوب منزلي محتشم أما اليوم فثدياها يحاولان الهرب من كيسهما الضاغط عليهما بالكورسيه الواضحة تفاصيله أسفل لباسها المحزق على عموم جسدها، بدت مرتبكة بطيئة الحركة مع أنها في الأصل راقصة بدرجة (أسطى)، اقتربت من شافعي تهمس في أذنه بشيء ما فهز رأسه موافقًا، ثم تركته إلى زر الكهرباء لتطفئ النور ويسود شيءٌ من الظلام على التفاصيل، ثم بدأ شافعي بالتحسيس على جلد الطبلة لتسخينها ولتنظيم الإيقاع كمايسترو لفرقته المرتجلة، ثم بدأ الهزيم، توالت الدقات مصحوبة بوتريات أحادية خنفاء لأغنية أم كلثوم (سيرة الحب) بدا اللحن مضعضعًا في أذني وإن استقام على دقات الطبلة (الدرابوكا) التي جعلتنا نشغف بأذننا في هذا الظلام بحثًا عن التشابه بين اللحن الأصلي وعزف رجال شارع محمد على الأقرب للهواية أو نظام أكل العيش المنتشر عندنا في مصر بلا أي موهبة اللهم إلا تقليد الناتج الأصلي بكل عشوائية، ثم كبست نزيهة الزر مرة أخرى فجأة ليشكف عن فتاة مصبوغة الشعر بلون الذهب وجسد ممشوق ناضج يرتدي بذلة رقص بنفسجية اللون عالية الإضاءة من زخم المشغولات البرّاقة عليها، كانت الراقصة تعطي الحضور ظهرها فبدت المؤخرة بارزة بالبنفسجي المعدني لتخبرنا أننا بصدد جسدٍ راقص من الطراز الأول، تتلوى تبعًا للإيقاع كما لو كانت موصلة الاقطاب بنقرات الطبلة تتحرك باحتراف ووعي كامل بالحركات، كانت ترقص كما لو كانت تتبع خطوات سابقة التجهيز وإن لم يخلُ الموضوع من جمال عجيزتها الرشيقة الشبيهة بأرنبين يتزاوجان في ظلام العُش، يا لها من مؤخرة جديرة بالمتاحف، كان الحضور يصفق برتابة لا تخلو من تشجيع مع شعور كبير بحب الاستطلاع، قبل أن تستدير الراقصة إليهم عندما وصل اللحن لجملة (طول عمري بقول لا أنا قد الشوق وليالي الشوق..)، كانت تدور حول الجالسين في مشهد بانورامي لتعرض بضاعتها الأساسية من نهد وخصر وفخذ

فاخر الصنع، إلى أن اقتربت من موقعي ونظرت لي بقوة وتركيز وخرج من عينيها ألف ألف معنى.. لا.. لالالا، إن من ترقص وتلهب مشاعر الجميع بفخذها المشدود وصدرها الشبيه بثمرة مانجو خضراء هي من أحببت حتى الثمالة، هي من اتفقت معها على الزواج، هي من كنت أحلم بها طوال الشهور الفائتة، هي نادين نفسها.

آه يا بنت الكلب.. إنتي الرقاصة؟





عبلة سكسكة

الساعة الآن الرابعة عصرًا وقد حان موعد نزولي للعمل كصبي جمرات الرجيلة في ملهي الليالي، ما زال الوقت مبكرًا وفي استطاعتي المرور على أم زينهم لمجالستها وقد ترضى عني وتقرأ لي الفنجان، تعلمت منها الأداء ولكنني ما زلت عاجزًا عن قراءة الفنجان لنفسي فعليًّا، وعلى الدرج وجدت أبلة كريمة تمارس تنظيفه ومسحه بالخيشة المبتلة وقد فاحت رائحة الدرج الحجري بالرطوبة الممزوجة بمطهر الفينيك الشعبي فشعرت أنني مريض على فراش بمستشفى حكومي بينما الـ (التومارجية) تسمح تحت فراشي، كانت تدندن بأغنية شعبية مشهورة للمطرب ذائع الصيت أحمد عدوية (راحوا الحبايب بقالهم عام والتاني ..راااااحو الحبايييييب -ما زلت مصرًا أن أبلة كريمة تملك صوتًا مميزًا منتظمًا فيه لمحة غنج لا تتلائم أبدًا مع مظهرها المُسن، وبمجرد أن رأتني هابطًا صمتت وحل محل اندماجها التنمر الذي اعتدت عليه لدرجة الإدمان، وقالت وهي تمسح كفيها في جلبابها المبتل أصلاً:

- إوعى يا واد إنت تلبخ السلم أنا لسه ماسحاه.

- يعني آخدلي تعسيلة على البسطة ولّا أقلع ولا مؤاخذة الجزمة؟، هو ده سِلّم ولا مقام السيدة؟

بدت مستعدة للعراك والتلاسن فهو هواية أكثر منه شعور لديها.

- أنا خايفة عليك بدل ما تتزحلق وتنزل على جدور رقبتك تتكسر ولا تقع عل
دماغك يجيلك تخلف عقلي أكتر من اللي انت فيه وتلاقي نفسك بتشخ على روحا
وانت نايم.

- أشخ على روحي؟ أستغفر الله العظيم ع المسا.

فبادرتني بسرعة خاطفة:

- أستغفر الله العظيم منك إنت.

- نينة أم زينهم عاملة إيه؟

تعمدت أبلة كريمة التظاهر بالأهمية كعادتها وهي تشيح بيدها بطريقة
العدوانية الفكاهية.

- مشغولة مش فاضيالك يلّا روح شوف أكل عيشك مش ناقصة فقر.

ابتسمت واعتبرت أن هذه تحية المساء من جارتي اللدودة.

- والله صوتك حلو يا أبلة كريمة، أنا ممكن أجيبلك شغل.

للحظة اقتنصت ارتعاشة فرحة اختلج به وجهها قبل أن تعود أدراجها للشخ
والتذمر قائلة:

- تجيبلي شغل يا عِرة؟ هو إنت لاقي تاكل؟

- اسمعي كلامي بس أنا ممكن أخليكي تغني عندنا.

- عندكوا فين يا متّيل.

- في الكباريه.

دارت عيونها كسمكة وجدت نفسها في الغلاف الجوي، فجعلت تفتح فمه
وتغلقه وهي تبحث عن سُبة مناسبة تصوبها ناحيتي قبل أن أسمع صوت حبيبتي
(أم زينهم) تهتف من الداخل بصوتها المجوف المرتعش.

عبّه يدهك يا كريمة)
يبتسم لي تشفقاً لإغاظة أبلة كريمة التي وقفت وقد أدخلت لثنية قماش من
جلبابها المنزلي إلى حيث سروالها الداخلي في مشهد كلنا نعرفه جيدًا.. لتفسح لي
بطريق متمتمة بعصبية ومشيرة بكفها القابض على خرقة المسح.
. ادخل.. ربنا يتوب علينا من الأشكال دي.
توجهت إلى أم زينهم في مجلسها المعتاد ولم أنسَ المرور على صينية القلل
الفخارية أرتشف منها ماءً باردًا له نكهة الآبار وهبشت قبضةً من منقوع الترمس
المالح لأمضغه بسرعة، ثم دخلت عليها فهبت رائحة البخور والقهوة وحيث أم
زينهم جالسة مرتدية الأبيض ومطوقة بمسبحة طويلة حول عنقها، وأمامها (عدة
القهوة) متمثلة في صينية وفناجين وموقد الكحول المعروف باسم (السبرتاية) وكنكة
نحاسية صغيرة تسع لفنجان واحد، وأمامها على المائدة فنجانٌ مقلوبٌ على طبقه،
وتجلس أمامها على ما يبدو سيدة تحمل وجهًا.. من أشنع وأشرس ما رأيت، له قوة
طرد مركزية تجعلك على وشك الفرار من المكان.
سمراء عميقة غليظة تحمل وجهًا مستديرًا واسعًا وعيون سوداء ضيقة سامة
وملطخة بالكحل ليزيدها ضيقًا وسُمية، موسوم على خدها آثار لجرح قطعي من
أول زاوية فمها إلى أذنها اليسرى لترتسم اللوحة بلمسة شناعة، تلبس جلبابًا أسودَ
وطرحة منحسرة عن مقدمة رأسها شبه الصلعاء وتتحلى بأساور ذهبية تحدث
شخلخة كلما رفعت يديها لتمتص لفافة التبغ وتعبق الهواء بدخان كثيف ويتدلى
قرط ذهبي مستدير يشد شحمة أذنها لأسفل بفعل وزنه، كانت تجلس متكورة في
جسد مربوع مؤسس بالشراسة والدسم، تجلس أمام (أم زينهم) وقد بان الغم على
ملامحها الوحشية فبدت كلبؤة ملول لم تمارس النهش من أيام.

- سلامه عليكم.

ألقيت التحية كما تلقي أنت التعويذة على شياطين المكان قبل أن تدخله.

لم تردّ إلا بنظرة مسعورة في حين هتفت أم زينهم وهي تشيح بذراعها النحيل:

- تعالى يا نور عيني.. اقعد جنبي.

ففعلت راغبًا ومحتميًا من أنثى التنين هذه، في حين هتفت أم زينهم بفخر وحماس:

- ده بقى تلميذي وتربية إيدي.

ثم مدت يدها تتحسس طريقها للفنجان فهي تتلمس تمييز الأشياء من تركيز السمع وملامسة النتوءات الجافة والمترسبة في جدار الفنجان، التي يسميها العلماء بحاسة التقدير الفراغي.

دست الفنجان في يدي قائلة بحزم:

- يلّا يا حبيبي.. اقرأ وقول اللي تشوفه.

أمسكت بالفنجان بطريقة استعراضية ودققت النظر فيه.. وسرحت مستعيدًا أول مرة أمسكت فيها الفنجان أتذكر تلك الرعشة التي غمرتني عندما سمعت ذلك الصوت، جالسًا وحدي في البيت عندما أعددت لنفسي فنجانًا من القهوة قلبته وانتظرت لبرهة مقلدًا أم زينهم عندما أمعنت النظر في النقوش السوداء ترى كيف يقرأ الناس الفنجان وهل تلك النقوش العشوائية تقول شيئًا فعلاً، إن قراءة الفنجان من أوسع العادات انتشارًا في العالم أجمع إنهم يقرأون أيضًا بواقي الشاي والكاكاو، فهل تلك الخطوط تقول شيئًا فعلاً، ظللت أحدق في الرواسب لفترة كبيرة وأقلب الفنجان لأرى بزوايا عديدة ثم سمعت همسًا بجانب أذني.. لالا ليس همسًا بل هو مواءً ممطوطًا حزينًا ثم.. شعرت بلسان يلحس أذني، نعم يلحسها كمن يؤكّد على موافقته. لسان صغير خشن مبلل كلسان القطط، ومن وقتها إلى الآن أعتمد على تلك الهمسات التي لا تأتي فقط إلا عندما أقلب الفنجان.

فالحقيقة أن (أم زينهم) تقتات عيشها هي وبناتها من تلك الصنعة النادرة، فهي تقرأ الفنجان نظير جنيهين، وتتلو الرقية نظير خمسة، بل وتقيم أحيانًا حفلات الزار بمائة جنيه كاملة وتستقبل أيضًا النذور لتوزعها بنفسها بالاستعانة بالأبلة (كريمة)، فجأة استوعبت منها قراءة الفنجان أو بمعنى أصح أداء القراءة نفسها، وجدت نفسي أقرأ النقوش برموزها وأتلو النبوءات البسيطة بطريقة سلسة لدرجة أنني أثرت ذهولها هي شخصيًا، امتياز لم أطلبه ولم أتوقعه أبدًا، أن تدير فنجان الشاربين بين يديك لتقرأ بصوت خفيض ما تراه أو بمعنى أصح ما.. ما أسمعه من همس مشوب بالمواء الحزين، لم أصرّح أبدًا بما أسمعه بل واعتبرته سرًا مُركّزًا يجب أن أحفظه في طيات عقلي من الداخل، لقد أظهرت كرامات فقط لهذه المرأة العبيبة التي لم تجد مانعًا من الترحيب بهذا التحول بل وأصبحت تتلو عليّ الرقية من فمها المترعش وهي تريح رأسي في حجرها طالبة من الأسياد أن يحفظوني من العكوسات والشرور والحسد المقيت وتؤكد على أنه لا بُدّ من الحفاظ على هذا السر الروحي الفريد، لم أصارحها بالزيارة ولم تسألني قط.

- يلّا يا حبيبي قول اللي إنت شايفه.

جفلت عائدًا من أفكاري لمجلسهن وأمسكت بالفنجان وبدأت أقرأ ما أراه من نقوش وطلاسم وأرقام وحروف متناسيًا أو متغافلاً أننا كنا أربعة في الحجرة لا ثلاث. كان رابعنا طيف هرة قفزت لما فوق كتفي لتموء وتخبرني بلغة ممطوطة ما سأقوله:

- هوايش مكسورة وزفة عريس وغايب هيرجع من سفر بعيد.

نظرت لي المرأة الشنيعة باهتمام يظهر لأول مرة على ملامحها، وضيقت عينيها الوحشيتين عن رمح مسنون جاهز للغرس في كرامتي نفسها، من الواضح أنها قادرة على بعثرة كرامة من لا يروق لها قبل أن أسمع صوتها المتحشرج بفعل التدخين المفرط.

والحقيقة أن (أم زيلهم) تقتات عيشها هي وبناتها من تلك الصنعة النادرة، فهي تقرأ الفنجان نظير جنيهين، وتتلو الرقية نظير خمسة، بل وتقيم أحيانا حفلات الزار بمائة جنيه كاملة وتستقبل أيضًا النذور لتوزعها بنفسها بالاستعانة بالأبلة (كريمة)، مجاة استوعبت منها قراءة الفنجان أو بمعنى أصح أداء القراءة نفسها، وجدت نفسي أقرأ النقوش برموزها وأتلو النبوءات البسيطة بطريقة سلسة لدرجة أنني آثرت ذهولها هي شخصيًا، امتياز لم أطلبه ولم أتوقعه أبدًا، أن تدير فنجان الشاربين بين يديك لتقرأ بصوت خفيض ما تراه أو بمعنى أصح ما.. ما أسمعه من همس مشوب بالمواء الحزين، لم أصرّح أبدًا بما أسمعه بل واعتبرته سرًا مُركزًا يجب أن أحفظه في طيات عقلي من الداخل، لقد أظهرت كرامات فقط لهذه المرأة الحبيبة التي لم تجد مانعًا من الترحيب بهذا التحول بل وأصبحت تتلو عليّ الرقية من فمها المترعش وهي تريح رأسي في حجرها طالبة من الأسياد أن يحفظوني من العكوسات والشرور والحسد المقيت وتؤكد على أنه لا بُدّ من الحفاظ على هذا السر الروحي الفريد، لم أصارحها بالزيارة ولم تسألني قط.

- يلّا يا حبيبي قول اللي إنت شايفه.

جفلت عائدًا من أفكاري لمجلسهن وأمسكت بالفنجان وبدأت أقرأ ما أراه من نقوش وطلاسم وأرقام وحروف متناسيًا أو متغافلاً أننا كنا أربعة في الحجرة لا ثلاث. كان رابعنا طيف هرة قفزت لما فوق كتفي لتموء وتخبرني بلغة ممطوطة ما سأقوله:

- غوايش مكسورة وزفة عريس وغايب هيرجع من سفر بعيد.

نظرت لي المرأة الشنيعة باهتمام يظهر لأول مرة على ملامحها، وضيقت عينيها الوحشيتين عن رمح مسنون جاهز للغرس في كرامتي نفسها، من الواضح أنها قادرة على بعثرة كرامة من لا يروق لها قبل أن أسمع صوتها المتحشرج بفعل التدخين المفرط.

- اسم الله عليك يا أفندي طب وده معناته إيه.

عاودت التمعن في النقوش متجاهلاً نظراتها المفترسة شاعرًا أنني أحكم الغز
حول نفسي، قبل أن يتناهى الهواء إلى وجداني يهمس بحروف متداخلة كالدخار

(كو.را..ش.. كوراشي.. قرشي.. شي شي)

ثمة قشعريرة تجتاحني وتجبرني على غلق جفنيّ لأسمع بوضوح كالخفاش ؛
شيئًا من الهمس الواشي ووجدتني أردد ما أسمعه بطريقة متقطعة تبعًا لما أسمع

- الحبس.. اتفك والغايب.. هيرجع.. بزفة واسمه.. اسمه.

سمعت الاسم يتردد في داخل عقلي وإنْ لم أتبيّنْه جيدًا.. ق.. وار شي..

- اسمه.. اسمه قورشي.

فتحت عينيّ على شهقة صدرت وصرخة خرجت من فوهة المرأة لدر
جعلتها تقوم واقفة في مكانها ينقصها التهليل والتكبير، في حين سمعت أم زين
تبسمل وتحوقل وتهلل بالله أكبر الله أكبر ثم تهدّج صوتها وهي تحشرج قائلة:

- اسمه كُوارْشي يادلعدي ..اسمه سيد كوارشي.

سمعت أم زينهم تقول بفخر:

- اسم الله عليك يا نور عيني.

كانت أوصالي ترتجف داخليًا وقد توترت مشاعري فأنا في كل مرة لا أضمن تمامًا
سماع أي شيء وفي كل مرة يأتيني الهمس بدون مقدمات تجعلني أجفل من مكاني
في أحيان كثيرة، همسات وامضة تَبرُق في ظلام تصوراتي بكلمات مضيئة خاطفة لا
تلبث أن تظلم وتختفي فجأة كما جاءت فجأة.

لانت ملامح المرأة ورأيتها تنظر لي بطريقة لا تخلو من الإعجاب بل والوله،
ودست يدها في صدرها الكبير قبل أن تُخرِج منديلاً وتبرز جنيهين ورقيين لتضعهما

في يد (أم زينهم) التي قالت وهي تدسه في صدرها الطيب هي الأخرى:

- من يد ما نعدمها يا (سِكْسِكَة).

ثم قامت تلك (السكسكة) وتوجهت لحيث أجلس، وحلت منديلها المبروم مرة أخرى لتدس في جيب قميصي ورقة أخرى وقبل أن أعترض قرصَتْني قرصةً خفيفةً في صدري باقتحام وجرأة جديرة بقارحة مثلها، ومالت بوجهها الوحشي وقبّلتني على سطح خدي قُبلةً لزجة مبللة بإعجابها، بالطبع لم ترَ أم زينهم تلك اللقطة، وقبل أن أتخذ أيّ ردّة فعلٍ كانت قد غادرتْنا مسرعة فقالت أم زينهم موجهة الحديث لها:

- ماتنسيش الندر يا سكسكة.. عيش ولحمة وزر يلبن.

سادت لحظات من الصمت بعد مغادرة تلك الجاموس، فمددت يدي وأخرجت ما دسته في جيبي فوجدتها ورقة من فئة العشرة جنيهات.

وقبل أن أتكلم سمعت أم زينهم تقولِ وهي تضغط على حبيبات سبحتها:

- دي تبقى (عبلة سكسكة) على سن ورمح أكبر فتوة في السيدة وهي اللي بتسرّح الشحاتين وبتوع البخور حوالين الجامع، والظابط قبل الحرامي بيعمله لها ألف حساب.

إذًا فالمرأة على قدرٍ غير مسبوقٍ في الخطورة المشوبة بإجرام المنصب.

قلت وأنا اتأمل الورقة المالية بشرودٍ:

- طب ومين اللي اسمه (قورشي) ده؟

- اسمه (كَوارْشِي) يا حبيبي.

- كوراشي؟

- أيوه يا حبيبي اسمه المَعلم (سيد كوارشي).. بتاع العيال.

لم أستوعب الكلمة في بادئ الأمر وسألتها مرة أخرى:

- بتاع إيه؟

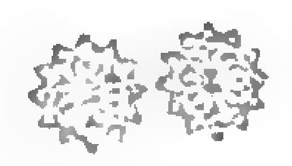
ضحكت أم زينهم بخفة وحياء وهي تضع طرحتها على فمها قائلة:

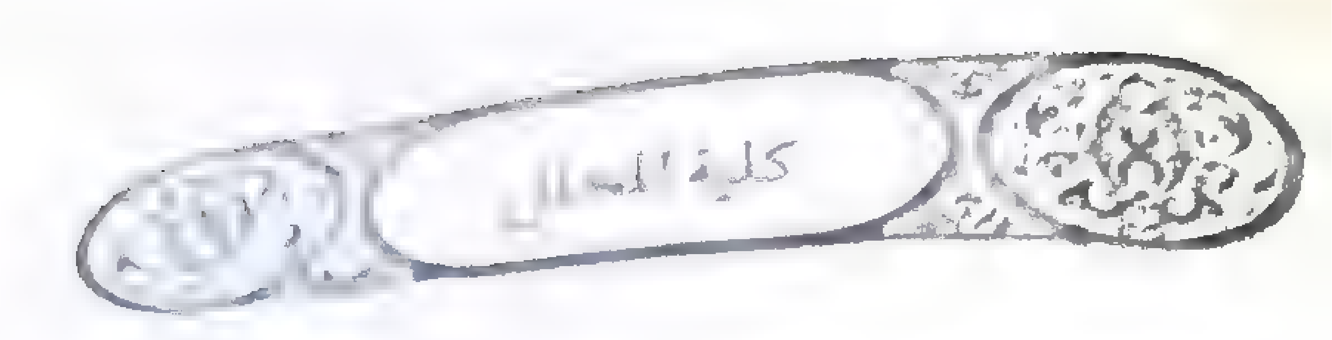
- العيال ..هو شهرته كده اسمه كوارشي بتاع العيال.

- يعني هو بيخطف العيال؟

ازدادت قهقهتها من تحت طرف الطرحة البيضاء وهي تقول بحيرة كمن يبحث عن إجابة مناسبة:

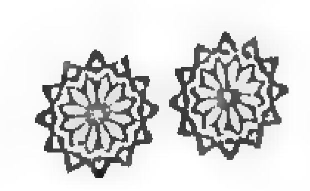
- لا مش بيخطفهم.. ده بيحبهم.. أوي.





لا تسألوني عن حياتي الجامعية لأن ليس بها شيء مميز، كنت على يقين أني [illegible]
أعمل أبدًا في المجال الزراعي، مع أنني أهوى الكيمياء والبيولوجيا، ولكن الحياة في
مصر تتسم بالحول العنيف، نعم طبيعة الحياة في مصر حولاء أو ربما عوراء أو حتى
عمياء، فأنت تريد أن تكون طبيبًا وتجد نفسك مهندسًا أو تريد أن تكون ممرضًا
وتجد نفسك في محاميًا، الكل يمثل أنه هو مع أنه ليس هو بالتأكيد، ربما بسبب تلك
الكارثة المسماة بالثانوية العامة، وربما لأمور وراثية، ولكنني في ذات الوقت أجهل
تمامًا ما الذي يمكنني أن أمتهنه ويكون لي عملاً، طرقت أبوابًا كُثر بحثًا عن فرصة ولكن
مع ظروف دراستي بدا الأمر مستحيلاً؛ فالكليات العملية بالذات لا تعرف المزاح،
محاضرات ومعامل وتطبيق عملي وكل هذا الصداع الذي لم أكن أنتمي له أصلاً، كنت
أحلم بدراسة الفنون، كان حلمي أن أصبح مخرجًا مثلاً أو ممثلاً أو حتى قطعة ديكور
صماء، ولكنه الفن يا أحبتي، ذلك السحر الحلال وذلك الغنى المعنوي والذي يجعلك
تتخيل وتفعل، لا أن تأخذ الأوامر وتفعل (أقصد) وتُمثِل أمام الناس أنك تفعلها بل
وتجديها، نحن في مصر نمثل أننا نؤدي أعمالنا ونمثل أننا سعداء ومستقرون، بل نمثل
أننا نعيش بتوازن بالظبط كما تفعل الأميبا وحيدة الخلية. وفي يوم تعيس كنت
أتناول وجبة إفطاري عند دادة (أم عماد) مشرفة النظافة في استراحة الطالبات،
كانت تقدّم بعض المشروبات والوجبات الخفيفة المتمثلة في شطائر الطعمية وأكواب

السحلب، كانت سيدة مستديرة تلبس العوينات بيضاء ضاحكة راضية عن الحياة، تظهر عليها مخايل السعادة وهي ترى طلاب الكلية يُقبِلون عليها ليأكلوا إنتاجها من الشطائر والمخللات، نعم كانت تصنع الخضار المخلل من خيار وباذنجان وزيتون بطريقة رائعة تجعلك تأكل عددًا لا نهائيًّ من شطائرها الرخيصة الملائمة لجيوبنا شبه العارية من النقود، بل كان أغلبنا يفتح حسابًا دائمًا عندها وهي دومًا تقدم وجباتها مصحوبة بابتسامة أمومة خالية من الجشع والانتهازية التي تكلل من يعملون في هذا المجال، كانت دادة (أم عماد) تطبيقًا للأمومة مدفوعة الأجر زهيدة التكاليف عظيمة الفائدة، بالإضافة لكونها صاحبة تمثل لي مصنع المخللات التي أوزّعها في فترة ما بعد الظهر على ملاهي شارع الهرم، كنت أستعين بخبرتها الفائقة فو توريد طعم متوازن يقبل عليه الزبائن ويطلبونه بالاسم، كانت مخللات (أم عماد) هي رأس مالي في دنيا العمل إلى أن توقفت فجأة عن العمل بعد وشاية نقلها لها أولاد الحلال بأنني أتاجر بمصنوعاتها في مواخير شارع الهرم ومن ثم توقفت خوفًا على نفسها في المشاركة في فعل تراه حرامًا، ولم أجد بدًّا من قبول عملي البديل كصبي شيشة في ملهى الليالي كما ستعرفون لاحقًا، ومن خلال هذا العمل تعرفت بأول حب في حياتي، نادين ابنة شاهبندر العازفين العم شافعي.





الحاجة شوشو

أوقفت سيارتي النصف نقل أمام ذلك (الكباريه) الشهير بشارع الهرم، وتوجهت لباب دخول المطربين والراقصات والذي يجلس أمامه رجل عظيم الأرداف، عظيم الصدر، أصلع بلا شعرة واحدة، كان ضخمًا كديناصور يتساوى حجمه مع حجم الباب الذي يحرسه بل ويزيد، كانت ملامحه شرسة عدوانية بلا مبرِّر، بمجرد ما رأيته تذكرت حكايته التي أخبرني بها الحج مصطفى وأنه كان حارسًا خاصًّا (بودي جارد) ذائع الصيت في السبعينيات يستخدم قوته الغاشمة في السيطرة على السكارى والمتحرشين من رواد صالة الملهى الليلي ومع التقدم في العمر وذلك الترهل الواضح على بنيته العضلية تحول من (بودي جارد) مهم إلى حارس للباب الخلفي للكباريه، كان يحمل باستمرار وريقات مقصوصة من جرائد قديمة فيها صورته أيام البطولة الرياضية الفائتة بل وأن يضع على الحائط المجاور للباب بروازًا يحمل صورته وهو شبه عارٍ في أحد الشواطئ يستعرض فيها صلابة صدره وخصره النحيل وبطنه المدرعة التي تشبه التكوين الحشري للدبور، كنت أعرف أنه سيمنعني من الولوج لمجرد أنه جالسٌ على فوهة الماخور، توقفت على مبعدة منه أفكر، من المستحيل التفاهم معه لأنه دومًا في حالة سُكرٍ كحولي فواح وهذا يزيد من خطره وشراسته.

لا بدّ من الحيلة حتى أمضي بسلام في طريقي للداخل، عدت للسيارة وتناولت من صندوقها علبة بلاستيكية مغلقة قبل أن أتوجه له مرة أخرى.

- مساء الفل يا عم شابوري يا دبابة.

نظر لي الرجل من تحت جفنيه الثقيلين بالبيرة قبل أن يشيح بذراعه المترهل في عنفٍ:

- عاوز إيه ياض؟

ارتبكت قليلاً قبل أن أقترب منه بحذرٍ وأبرز له العلبة البلاستيكية.

- أنا داخل للحاج مصطفى يا عم شابوري وجايبلك مخصوص دي.

انتبه الديناصور وهو يزن العلبة بعينيه.

- فيها إيه العلبة دي ياض.. فيها فيل؟ هعهعهعهعهع

من الواضح أن الكحول يطلب منه بعضًا من السخرية.

- لا يا عم شابوري دول شوية بتنجان مخلل يستاهلوا بقك.

تناول العلبة وفتحها ثم تناول بأصابعه الغليظة عشرة أصابع سوداء من الباذنجان ورماها في زوره مذكرًا إياي بمشهد فرس النهر مع الحارس بحديقة الحيوان.

وأشار إليّ أن أدخل ففعلت.

بالطبع لم يتسنّ لأحدكم دخول ملهى ليليًا في وضح النهار، لم أجد الحاج مصطفى في المطبخ فسألت عنه فقالوا لي إنه مع (الحاجة):

- الحاجّة مين لا مؤاخذة؟

- الحاجّة (شوشو) صاحبة الكباريه.

انفعلت داخليًا فأنا أعرف أن تلك الحاجة ما هي إلا مطربة كبيرة اعتزلت الغناء

في الثمانينيات وأنها قد مثلت دور البطولة في أفلام الزمن الجميل أمام العمالقة وإن لم تحرز النجاح الكاسح الذي أحرزته بنات جيلها أمثال وردة الجزائرية وفايزة أحمد، ولكن هي فعلاً من الأسماء اللامعة، أنا شخصيًا كنت أهيمُ حبًا في صدرها البيضاوي النافر من ردائها في حفلات السبعينات إذ كانت تستخدمهم كآلة مهتزة ومصاحبة لصوتها المشروخ بالآهات، تسللت للصالة الكبيرة بدافع الفضول، فأنا من الذين ينبهرون بالفنانين وأراهم آلهة عاصية لم يحن وقت حسابهم، فالشهرة لها توهج خاص لا بُدّ أنهم أدمنوه، وأن تراهم عن قرب فذلك ممتعٌ كما يتثنى لك رؤية الأناكوندا في قفصها الزجاجي.. وأنا أريد مشاهدة الأناكوندا عن كثبٍ أقصد الفنانة، الإضاءة مطفأة إلا من بعض أنوار النيون الطباشيرية، ثمة صوت للقرآن يأتي من أحد الأركان على إذاعة القرآن الكريم، المقاعد مرفوعة فوق الموائد باستثناء مائدة كبيرة تراص حولها أشخاص وفي صدر المائدة لمحتها، التقدم في العمر واضح على شعر رأسها الذهبي الملفوف بطرحة سوداء شفافة ووجهٍ عارٍ من الزينة.. اللهم إلا دوائر الكحل العنيف حول عينيها الواسعتين تلبس جلبابًا عربيًا مزركشا من الواضح أنه هدية من أثرياء رواد الكباريه العرب، جسد ضئيل تحايلت عليه الفنانة بزخارف القماس ليبدو أكثر امتلاءً، لها هالة قديمة بلون الزيت وكأنها لوحة عتيقة تم ترميمها، وتضع مبسم النرجيلة في فمها الجاف لتجذب منه أنفاسًا متتابعة في حنكة وتمكن، بينما يقف الحاج مصطفى إلى جوارها يعرض عليها بعض أوراق حسابات المطبخ ويهمس لها في تبجيل وهدوء، لم أستطِع الاقتراب من منطقتها المكهربة بالهيبة خاصة عندما لمحت أباطرة الغناء الشعبي وقتها يجلسون صامتين على مقاعدهم الملتفة حول مائدتها بينما فجأة يعلو صوتها لواحد ممهم بدا أنه فنان.

- بقولك إيه يا عبد الله وحياة أبوك خلاص بقى كفاية نكد حرب الخليج خلصت بلا بيتي بلا بيته وأهو كل واحد خدْ جزاءه، كفاية غُلب ده كباريه يا حبيبي مش صوان عزاء.

نظر لها المطرب الخليجي الشهير ذو الشارب العريض برفض صامت وإن لم يجرؤ على الاعتراض العلني ثم هز رأسه موافقًا قبل أن تعود للحاج مصطفى بعينها مرة أخرى، لا بُدّ أنها توصي المطرب بالكف عن النواح بسبب اجتياح العراق لبلاده الغنية بالبترول وتطالبه بأغانٍ جديدة تستهدف رواد الملهى الخليجيين، ثم انتبهت لواحد آخر كان يعطيني ظهره فلم أتبين من هو على وجه التحديد قبل أن تصرخ فيه:

- وانت يا حبيبي مش عاوزة علوقية وألحان مش مفهومة إديني في الشرقي شوية (الكيت) بتاعك مش عاجبني، عاوزاك تركب على الشرقي بلا دموع بلا مُحن فارغ، الرقاصة قربت تتوب من الحزايني بتاعك ده.

طبعًا (الكيت) هو ما ينهال على المطرب من مبالغ (النقطة) من رواد المكان.

اقتربت كثيرًا وأنا مبهوتٌ من هذا التجمع الفني، لطالما كنت مبهورًا بأهل الفن وأحاول مرارًا وتكرارًا تخيُّل حياتهم وكيف يعيشون، لا بُدّ أن الأموال تنهال عليهم لمجرد ظهورهم فقط ناهيك عن موهبتهم سواء بالغناء أو التمثيل، ولكنني لم أتصور أبدًا أن يكونوا تحت أمر صاحبة المكان إنهم يتقبلون توجيهاتها وهم صاغرون أمام جبروتها، لمحني الحاج مصطفى فامتقع وجهه وأشار لي بذقنه الحليقة أن أخرج فورًا، ولكن بعد فوات الأوان، لأن السيدة الرهيبة كانت قد أدارت رأسها ورأتني، احمرّ وجهُها الشاحب من الغضب الذي لا أعرف سببه.

- مين الواد ده يا مصطفى؟

ارتبك الرجل وردّد بصوت خفيض بلا ملامح:

- ده ..ده ..دا..

قاطعته الحاجة شوشو:

- ده إيه ما تنطق إوعى تكون ليك في اللون ياراجل وأنا ما أعرفش.

احتقن وجهي بالغضب والإحراج بينما لمحت الجالسين يمعنون النظر في شخصي.

- أستغفر الله يا حاجة ماتقوليش كده ده تامر.

- تامر مين وهيثم مين؟

فجاوبتها أنا بشيء من التسرع والغضب:

- أنا تامر يا حاجة بتاع المَزّة.

تراقص حاجباها وهي توزع نظراتها علينا:

- مَزة إيه وتامر إيه مش فاهمة ماتفهمني يا مصطفى.

- ده تامر اللي بيجيلنا نواقص المزة يا حاجة ده طالب في كلية الزراعة وبيعمل مخللات بتطلبها الزباين بالاسم.

نظرت لي مليًا قبل أن تشير بأظافرها الملونين:

- تعالى يا واد قرّب هنا.

اقتربت منها بنفس تحفظك وأنت تقترب من كلب مسعور، ووقفت بجوار الحاج مصطفى ليحميني من عضاتها المتوقعة، تعتريني الرهبة وأنا أتابع وجهها العجوز القوي، وشخصيتها الكاسحة بينما وجوه الفنانين أنفسهم ترمقني بارتياح إذ إنها انصرفت عنهم ولو لبرهة، الحقيقة أنني كنت وسيمًا قسيمًا طازجًا وكنت أهتم بنظافة ملبسي وأناقة ترتيبي بما يلائم تلك الأيام، بل كنت أقص شعري بنفس قصة المطرب المشهور عمرو دياب بل كنت أشبهه لحد بعيد وقتها.

- أحيه، ده شبهك يا واد يا عمرو الخالق الناطق.

نظرت لهذا العمرو الذي تخاطبه فوجدته.. نعم كان هو ذلك المطرب الشهير بشحمه ولحمه وقصة شعره وما إن رآني حتى ضحك بخفة وقام من فوره ليسلم عليّ.

رباه إنه مهيب طويل مُتقَن الصنع معطّر وفي منتهى الأناقة، كما أنه أطول مني كثيرًا ولكن بالفعل توجد أشياء مشتركة في ملامحنا، كأن أبي عشق سيدة تركية من وراء أمي.

- خُد يا واد.

نظرت للحاجة شريفة فوجدتها تمد يدها بورقة فئة الخمسين جنيهًا إليّ فغمرني شعور بالإحراج بل والإهانة أيضًا، فأنا لست شحاذًا، أنا أعمل بعرق جبيني.

فانطلقت مني جملة رغمًا عني:

- عيب يا حاجة أنا مش جاي أشحت، أنا جاي للحاج مصطفى عشان طلب مني شغل.

شاعت ابتسامة مشوبة بالخجل والتعالي في عينيها المكحلتين واستمرت في مد يدها في إصرار على إكمال الإحسان لشاب في مقتبل العمر مثلي، لأن رفضي يعني اهتزازًا بسيطًا لسطوتها أمام الفنانين.

- ماتكسفش إيد الحاجة يا تامر دي بتحبيك.

نظرت لها مرة أخرى فوجدت أمامها فنجان قهوة لم تكمله بعد:

- طب كملي قهوتك وأنا أقرالك الفنجان.

ثم مددت يدي وتناولت منها الخمسين جنيهًا واعتبرتها مقابل خدمة القراءة.

كنت أعرف مدى تأثير تلك الموهبة على الناس مهما عظمت قاماتهم، واستعنت بالحاج مصطفى الذي قرأت له الفنجان قبل سابق وانبهر فعلاً لدرجة الصدمة من قوة استبصاري.

ووجدت الفنانة الكبيرة تنظر لي مليًا قبل أن تقول:

- إنت مخاوي يا واد؟

تصنعت الخطورة والعمق وأنا أنظر في عينيها مليًا:

- حاجة زي كده.

لمعت عيناها وطلبت من الكل الرحيل فورًا الذين أذعنوا فورًا لأوامرها وهم ينظرون متعجبين من انقلاب الموقف تمامًا، بما فيهم عميلي الحاج مصطفى.

بينما أمسكت شوشو بمبسم النرجيلة وامتصت شهيقًا عاتيًا وهي تهز مفاصل رقبتها قائلة:

- لو طلعت هجاص ههلبسك بدلة رقص وأطلِق عليك الإخوة العرب.

فنظرت لها بقوة فأشاحت بالخرطوم بعصبية مما أسقط قطعًا متوهجة من الجمر عن نرجيلتها فما كان مني إلا أن أمسكت بالجمر المشتعل بأطراف أصابعي بسرعة (حركة تعملتها من صديقي القهوجي محمد بيرة في شارع ماراسينا) وأعدتها لرأس النرجيلة مما جعلها تطلق ضحكة إعجاب ورددت وهي ترعش حاجبيها الرفيعين.

- ده إنت أراجوز يا واد.

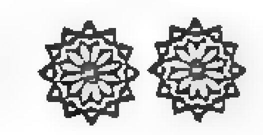
نظرت لها في ثقة وإن كنت مصدومًا من تلك اللهجة السوقية التي تتلفظ بها فنانة كبيرة وقلت في ثقة:

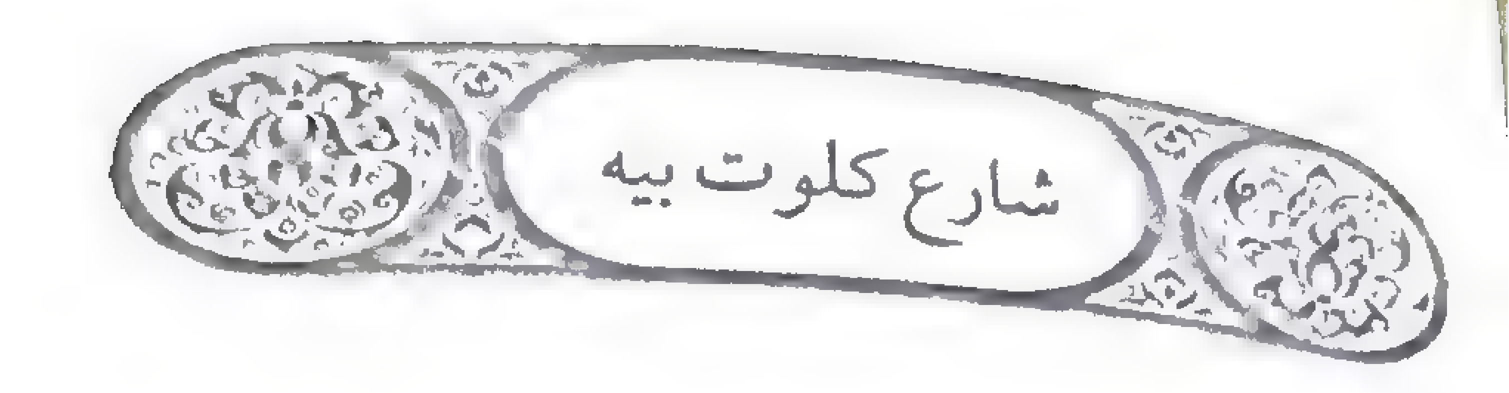
- كملي القهوة وسيبيني أنا أقلب الفنجان وهتشوفي.

فاحتست باقي الفنجان وهي تنظر لي مليًا من خلفه.

وناولتني إياه فأمسكت بالطبق ودورته في يدي ثلاثًا وأنا أستجلب روحانياتي.

ومن ثم قلبته على طبقه وطفقت أنتظر بهدوء، ساد صمت فتشاغلت أنا بالنظر لأجواء المكان وأتعجب إذ أن هذا المكان سيتحول لقطعة من الجحيم في غضون ساعات، كنت دومًا أحب شكل بار المشروبات وأراه أنيقًا لكنني أبدًا لم أحب جو الملاهي الليلية ولا هزيم الطبول وهز الخصور، وانتظرت لبرهة قبل أن اقلبه مرة أخرى لأبصر النقوش المترسبة على جدارنه.. حسنًا ها هو طالعك يتجلى يا صاحبة الكباريه.. يا نهارك الأسود يا حاجة.. شوشو إنتي بصدد.. بصدد.. كارثة.





صيف 1948

لم يكن الشارع على نسقه السابق من الحركة، فالكل التزم مكانه وقد شاعت أخبار بأن البرلمان المصري يدرس طلبًا من النائب (سيد جلال) بتشريع قانون لإلغاء البغاء في مصر، مئات البيوت وآلاف البغايا والقوادين لسوف يموتون جوعًا حتمًا، أما الزبائن والرواد فقد تلقوا الخبر بنوعٍ من الصمت، إذ أن الشارع حيويٌ للغاية ومسرح دائم لصفقات الجنس المدفوع مسبقًا، كانت الموتيلات والنزُل واللوكاندات التي تحف الشارع الشهير وأزقته عامرة بالعاهرات والذين يُمثلن وقودَ آلة الدعارة الرسمية في مصر المحروسة، تسرّب الخبر المشؤوم وذهل الناس وكأن على رؤوسهم الطير، وبدا أصحاب المواخير في حالة ترقب مشوبة بالذعر العارم على مستقبلهم المهني، تولى بعضهم حالة من التكذيب المستمر، كان هذا المجتمع مشمولاً بحماية الحكومة المصرية فعلاً، وأحد مصادر مدخولها من ضرائب وتصاريح وجباية أيضًا، نهر من السيولة النقدية ينساب من بين أفخاذ أولئك البغايا من كل لون، علاوة على الأنشطة الجانبية من موردين للبغايا الجدد وعشرات الحانات المعتقة بمنقوع الكحول وصفقات الفراش، مجتمع كامل يمثل مدينة فاضلة تحررت من أغلال العيب والحرام وأصبحت حرمًا للفحشاء العلنية، فالنشاط هناك لا بُدّ أن يكون بتصاريح

من الحكمدارية المركزية بالقاهرة، بل وهو تحت إشراف ورقابة صحية طبية بُني من أطلقها مرحًا طبعًا فهم؟ في حي السيدة اسمه (الحوض المرصود) ولا أعلم سرّ هذه التسمية فعليًا، فهل يقصدون بالحوض هو حوض المرأة مثلاً وأن هذا الحوض مرصود من الجهات الطبية ليتأكدوا مثلاً من نظافته وتسليكه من الشوائب العالقة أم إنه يعتبر عينًا تجارية تدفع الضرائب مثلها مثل أي مطعم أو محل تجاري، لا أعرف على وجه التحديد وإن كان هذا التوصيف مريحًا بالنسبة لي، الوقت كان العصاري وقد بدت الشمس قوية لاهبة في هذا اليوم الصيفي تأبى الهبوط لمغربها الأورجواني، قد استعاد الشارع جزءًا من حيويته وبدأ العاملون يخرجون لقارعة الطريق يرشون الأرض بالماء وتتصاعد روائح البخور من الغرف، بينما تجد البغايا وقد نشرْن غسيلهن وملاءات أسِرّتهن طلبًا لتعقيم الشمس بعد ليلة عمل ممسوحة بالعرق والتأوهات.

كان بيت (سميحة أرجوك) من علامات الزقاق، مكوّنًا من أربعة طوابق تمثل ثماني شقق، وبكل شقة أربع غرف ولكل غرفة امرأة تعيش فيها لتستقبل الزبائن بعد أن تستقبلهم (سميحة أرجوك) في مدخل المنزل ليدفعوا لها رسوم الزيارة أو تجُره العاهرة نفسها من قارعة الطريق فنساء (أجوك) لهم رقعة مخصصة تحت إحدى نواطير الضوء في الشارع الرئيسي، وسر تسميتها بـ (أرجوك) نابع من كونها مشهورة بهذه الكلمة منذ كانت مجرد بائعة هوى (سريحة) تنادي على الرجال في قارعة الطريق هاتفة (أرجوك يا أفندي) للمارة من الذكور، دعونا نقترب من سطح بيت(أرجوك) لنرى هذه الغرفة المنعزلة في آخر السطوح والتي تتجمع القطط أمام بابها الموارب تشمشم عن بعض الفتات، حسنًا ادفع الباب فلا أي شيء سيمنعك حيث أن الباب أصلاً بلا رتاج، هل تُبصِر معي تلك الفتاة التي لم يتعدّ عمرها الخامسة عشر، ما زالت لم تغادرها سمات الطفولة القريبة بعد، وقد أخرجت إحدى ثدييها لتلقمه رضيعًا لم يتجاوز أسابيع من عمره الشقي، كان مسفوحًا من أب ما، وجدتها (أرجوك) تتسول أمام ضريح السيدة زينب وقد بان عليها الإجهاد من

علامات الحمل، زهرة يانعة اقتلعت من جذورها وألقيت في طين المدينة، هاربة من ذويها كيلا تُذبح، خطيئة تورمت عن جنين يتحرك في أحشاء الطفولة التي لم تغادرها بعد، هاربة من أحد الكفور الشمالية التي تقبع على نيل مصر السعيد، كانت ترفل في الأسمال حين تلقفتها عيون (أرجوك) حين كانت في زيارة لـ (أم العواجز) طلبًا لتوسعة الرزق ورواج الحال في بيتها القابع في زقاق (حلاوتهم) بعدما جفّ توارد الزبائن بسبب منافسة بيت (تحية خزانات) لها بمجموعة من العاهرات الجدد بينما تعاني عاهراتها من ظاهرة التصحر والشيب، وظنت أن في الأمر تقصيرًا في حق أولياء الله ومن ثم جاءت مهرولة لاسترضاء السيدة زينب لعلها توقف نزيف الخسارة التي مُنيّت بها من تحت رأس تحية خزانات ونسائها، واعتبرت أن تلك الفتاة هدية من السيدة، خصوصًا مع تلك الملاحة الواضحة التي تعمر وجه الفتاة المتسخ بأوساخ الشارع وثمن الخطيئة، أشارت لها فهرولت الفتاة إليها وهي تظن أنه ستلقي لها بإحسان، وعندما اقتربت هالها ذلك الجمال النادر والعيون العسلية وذلك الشعر الأحمر الملبّد بالأوساخ والمبروم على غطاء رأسها الكالح.

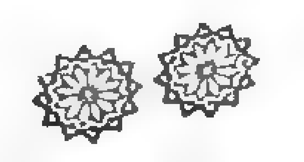
- اسمك إيه يا بت؟

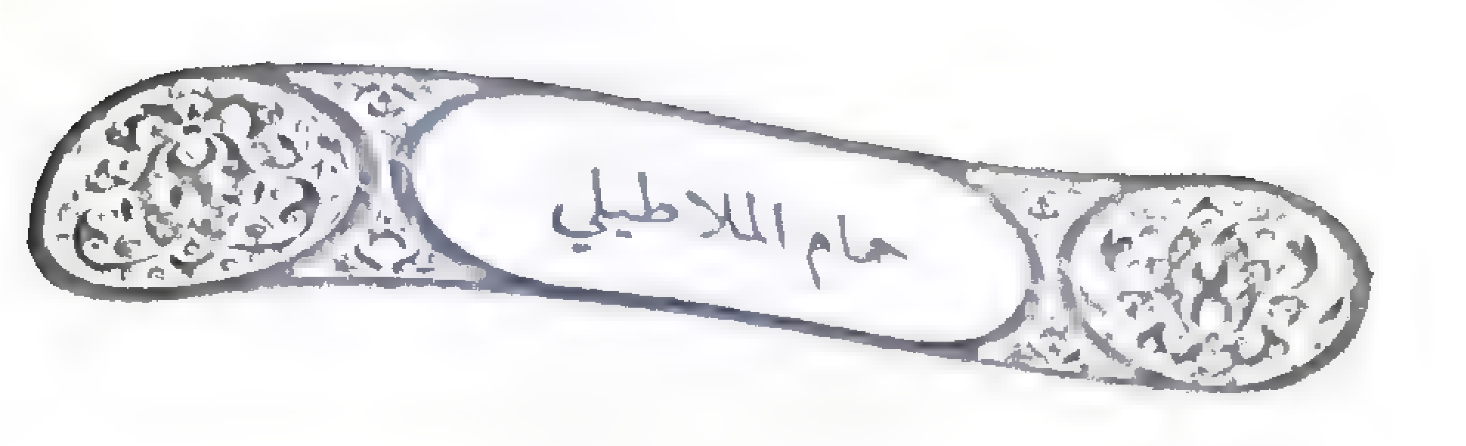
ذُعرت الفتاة وزاغت نظراتها وأوشكت على الرحيل خوفًا من شيء لم تدركه (أرجوك)، فأمسكت بذراعها مطمئنة بينما تفوح رائحة العطن من ثنايا الفتاة التي نظرت لها بارتباك فكررت:

- انطقي يا بت.. اسمك إيه؟

فأطرقت الفتاة أرضًا وهي تهمس بخفوت وضعف:

- اسمي.. اسمي.. نادية.





سينما الشرق 1995

بخمسين قرشًا شاهد أربعة أفلام في بروجرام واحد كان ذلك إعلانًا ثابتًا مكتوبًا بخط يدوي على شريط عريض يشمل بوسترات الأفلام الأربعة، لطالما كنت أمرُ أمام واجهتها المطعومة بالقيشاني المنمنم وتجتاحني رائحة باهتة هي مزيج من الأمونيا الباردة متزاوجة مع رائحة التبغ والبطالة، كنت أبصر روادها في الصباح الباكر وقد وقفوا ينتظرون بصبر أن تفتح دار السينما أبوابها لهم وكأنها ملجأ للعجزة في موعد الحفلة الصباحية في تمام العاشرة، كانوا خليطًا غير متجانس بين شباب في سن المراهقة وكهول تخطوا الخمسين، بالإضافة لزمرة من النساء اللواتي تظهر عليهن بعضٌ من مظاهر الخبل أو الدروشة ولا يمتون لنساء الحي بصلة اللهم إلا الحيز الجغرافي، كن يضعن أصباغًا المفروض أنها للزينة والتي جعلتهن يظهرن بمظهر المهرجين في تلك الساعة المبكرة من اليوم. وكيفما اتفق يحملن جميعًا أكياس الإفطار والتسالي استعدادًا لمشاهدة الأفلام، كنت أمر يوميًا أمام السينما ولم يخطر ببالي أنني سأدخلها في وقت ما، ثمة شيء منفرٌ يجعلني أزهد تمامًا في ارتيادها، ربما لذلك الطابع العطن الذي يكلل روادها من المتسكعين وأشكالهم التي يصبغها الفراغ والركود الجاثم على حظوظهم.

الى أن قررت يومًا الدخول بفعل الإغواء الشديد وذلك بسبب عرض فيلم (أحلام الملاطيلي) فائق الشهرة والذي أعيد عرضه لمئات المرات في ١٠٥ سينما الدرجة الثالثة المنتشرة وقتذاك في أحياء القاهرة العامرة بالبطالة والكبت، كان الملصق الدعائي يجسم يُظهِر سيقانًا نسائية ملساء تقف منفرجة الزاوية بينما يظهر من بين الساقين الممثل (محمد العربي) عاريًا وملقى على الأرض وهو ينظر لما بين الساقين بذهول وشبق ومنذرًا بعرض جنسي حي يوازي تصورات الشباب من أمثالي، كنت أسمع من أصدقائي الذين شاهدونه أنه فيلم (سكس) من الدرجة الأولى وأن المخرج أصر على واقعية الفيلم لدرجة العرق، وأنه جريء لدرجة الاهتياج السائل، وفي نهار صيفي حارق بلا أي التزاماتٍ تُذكَر توجهت لشباك التذاكر والذي تقبع خلفه سيدة في الخمسين ملطخة بألوان الببغاء تمضغ اللادن بملل وإحكام، ناولتها الخمسين قرشًا طالبًا تذكرة، فتفحصتني مليًا قبل أن تقول من بين شدقيها وهي تطرقع باللادن السمارة:

- أنا ماشُفتكش قبل كده.. أوّل مرة؟

لم أتحر جوابًا مباشرًا فهل من الطبيعي أن تكون السينما كالنادي مثلاً يدخلها الأعضاء فقط؟، الذي أعلمه أن السينما مكان عام يرتادها من يرغب في المشاهدة، ولكني جاويتها متصنعًا الثبات وكأنني أقضي حاجتي من تاجرة مخدرات.

- أيوه ممكن تذكرة صالة.

قطعت من الدفتر تذكرة وناولتني إياها وهي تبتسم بلا مناسبة، ثم رفعت عقيرتها فجأة منادية لشخص ما:

- يا سمكة.

فيخرج شخص ما فعلاً له شبه وطيد بالقرش بفكه المربع وبرودته القاسية ووجهه الحليق ليجيبها قبل أن يحول ناظره نحوي بعد أن أشارت بذقنها إليّ:

فأتوجه إليه مبرزًا التذكرة التي ابتلت من عرق كفي بسبب توتر لا أعرف

- أول باب شمال.

قطعت الطريق لهذا الباب مرورًا بقاعة استقبال فسيحة خاوية إلا من بوفيه عتيق يجلس خلفه رجل شديد القدم يمارس فتح أرغفة الخبز ليحشوها بأقراص من الطعمية ومخلل الطماطم، بدا طعامه المعروض محنطًا مثله مثل البائع ومثل المكان الذي تفوح منه روائح القدم والفخامة الغابرة بضخامة تصميمه وذلك الغبار المغلف لكل شيء بما فيهم البشر وكأنهم تجمدو في المكان منذ عقود، علاوة على الرائحة التي ازدادت قوة وتركيز كأنها رائحة (الفورمالين) الحافظة للجثث من التحلل، داهمني شعور بالندم على فعلتي هذه، وأوشكت على التقهقر للشارع مرة أخرى، ولكن المكان فعلاً له سطوة تجعلك تخشى من الفرار كأنك ستعاقب لو نويت الرحيل، المكان نفسه يجعلك تبقى تحت شعورٍ من القهر لا تدري سببه، استقبلني شابٌ أقرب للشياطين منه للبشر يتواثب كالبرغوث يلبس سروالاً من الجينز الممزق على فانلة داخلية كانت بيضاء، كان بادي الشراسة والإجرام ماسكًا بيده كشافَ ضوءٍ ففي من الذي يعمل بالبطاريات الجافة، ناولته التذكرة فتصلب واقفًا ثم فرك أصابع يده اليمنى في حركة تدل على أنه يريد بقشيشًا، فهمت على الفور ما الذي يريده وتصنعت الغباء فكرر الحركة فلمْ أهتم لقد أورثتني طريقته نوعًا من العناد أكره تلك المهن التي تعتمد على البقشيش المسجّل في صورة حق مكتسب والتي لا صلة لها إطلاقًا بمعنى العمل الحقيقي، اقتادني للداخل حيث الظلام وشاشة السينما المغلوبة على أمرها كانت تعرض نهايات فيلمٍ تركيٍّ مليء بالبيكيني والرصاص والشوارب العريضة، ولكن الظلام حالك فعلاً وهذا الشاب يتعمد ألا يضيء كشافه رغبة منه في تركي أتخبط وراءه كعقاب على تجاهلي في نقده بقشيشًا، ثم توقف فجأة بجانب صفٍّ يعمره بعض الرواد والذين يتصاعد منهم دخان السجائر كما لو كانوا منسيين في فرن الزمن إلى أن تصاعدت رائحة شياطهم، الغريب أن صالة العرض كانت خاوية وكبيرة لدرجة لا تُصدّق، بأركان بدت مهجورة فعلاً وتسكنها عفاريت الممثلين الراحلين؛

فلماذا ألقاني بجانب هؤلاء بالذات، شعرت كأنه يجبرني على الجلوس في مربعهم فقط وأنه يحول دول تسللي لمكان منعزل آخر، استويت على مقعدي وعلى مقربة مني ثمة ثنائيات هنا وهناك، وقبل أن يرحل سألته بخفوت:

- هو فيلم حمام الملاطيلي هيبتدي إمتى يا كابتن؟

سمعت صوته يجيب في غلظة ونفاد صبر:

- بعد الفيلم دا.

وتركني حانقًا ثم سمعته يزعق بشخص ما قريب:

- منور يا عم سيد.

وما إن اختفى الشاب حتى غيرت مكاني لصف فارغ تمامًا من هؤلاء الزومبي، ثمة شيء يجعلني لا أستريح في الجلوس في نفس حيزهم.

لماذا أشعر أن في الجو شيئًا يمت للسجون بصلة، شعرت فعليًا أن هؤلاء خالدون في مقاعدهم وكأنهم وُلدوا في ذات المكان ولم يبرحوه، أفرغت جيوبي من بذور اللب السوبر ومارست القزقزة وتفل القشور إلى ما أمامي بلا أي تأنيب للضمير فالأرض تزخر بأعقاب السجائر وقشور اللب وأكياس الفشار زجاجات الكحول الرخيصة، وتابعت بقية هذا الفيلم التركي الرديء على شاشة السينما المتسخة كما لو كان هناك من يتبول عليها ليلاً تاركًا مساحات من البقع البنية الصفراء على شاشاتها الضيقة وائحة المكان هي مزيج من المطهرات والعطن وأشياء أخرى لم أتبينها في حينها، أخيرًا انتهى الفيلم السخيف المعبأ بمشاهد التأوهات الأجنبية غير المثيرة وكل أولئك النساء من الجميلات العاريات مشعرات الإبط رخيصات التكاليف، إنني أنظر للعاهرات الأجنبيات وكأنهن صُنعن في خط إنتاج ما، فهن يفعلن نفس التكتيك تقريبًا، كأنهن مبرمجات على وظيفة محددة سابقة التجهيز، أين هن من صدر (نبيلة عبيد) وهو يهتز غضبًا في وجه (فاورق الفيشاوي) أو أن تسمع الآهات البرتقالية لـ (نادية الجندي) حين يمتص عنقها كُلٌ من صلاح قابيل ومحمود حميدة وعادل إمام

وعادل أدهم وعماد حمدي وحسين فهمي، وفريد شوقي وبابا، نعم أبي يحبها لدرجة الاحتراق ويراها مثالاً للأنوثة.. ربّاهُ إنها تملك نفس التردُّد وتعامل كل الملتاعين عليها بنفس التسلط والدلال، إنكِ لمُعجزة يا نادية هههههه كانت التسعينيات فعليًا هي أوج مجد المرأة القوية التي تغوي الرجال لتحقيق انتقام ما وفي سبيل ذلك كل شيء متاح، أضاءت أنوار الفلورسنت الرخيصة المتناثرة في بعض بقع صالة العرض مبددة الظلام بضوء طباشيري متسخ لتتضح الرؤيا أكثر، تجولت ببصري لأجد الثنائيات وقد انفصلوا عن بعضهم كأن الظلام فقط هو الصمغ الذي يلصقهم ببعضهم، ثنائيات عجيبة بلا أي رابط منطقي؛ فذلك الرجل الخمسيني جالس بجوار مراهق لم يتخط السابعة عشر بعد. وهذه السيدة الأربعينية تناول شابًا لم يتجاوز الخامسة عشر سيجارة معرجة، الغريب أن الضوء الخافت لم يجعلني أميِّز الوجوه إطلاقًا وإن كان هناك انطباعٌ عامٌ بالاختفاء والرغبة في التواري من شيءٍ ما. ثم وجدت رجلاً فارع الطول أسمر يملك أسخف شارب رأيته في حياتي إذ إنه يملك واحدًا رفيعًا جدًّا يخط شفته العليا في سماجة واستواء من أول شفته لآخرها وكانه مرسومًا بقلم حبر، تشي شفتاه الغليظتان وأنفه المفلطح بإتقان صنعة يدوية ما، يلمع جبينه الأسمر بالعرق بالرغم من رطوبة المكان يرتدي سروالاً قماشيًا يرتفع لما تحت صدره يستدير كرشه بداخل سرواله لتكتمل الأناقة القاتلة، أبصرته يغادر مراهقًا لم يتعدَّ الرابعة عشر وإن لم أبصر ملامح ذلك المراهق جيدًا، إلا أنني لاحظت أن الولد يحسو جرعات من زجاجة صغيرة قدرت أنها زجاجة (كينا) الشهيرة وقتها، توجه الرجل إلى حيث أجلس أنا وفردَ الكرسي الذي بجانبي ووضعَ عليه كيسًا بلاستيكيًا.

- لا مؤاخذة ممكن أسيب الكيس هنا لحد ما أدخل لا مؤاخذة الحمّام.

- ...

تركني دون أدنى استجابة مني، ألقيت نظرة على الكيس لأجده عامرًا بالشطائر والمسليات وعلبة التبغ ماركة (كليوباترا) والتي كنا نسميها بـ (كوكو الضعيف) نظرًا

لرخص سعرها وانتشارها بين المدخنين من محدودي الدخل في عموم شباب ورجال مصر، انتابني ضيق مفاجئ.

فجأة ماتت مصابيح الفلورسنت ليعلن الظلام بدء العرض التالي.

تتوالى المَشاهد التي تحكي عن شابٍ مُغترِب في مُقتبَل العمر في القاهرة يعيش في أحد حمامات البخار ويعشق فتاة ليل في مثل عمره بينما هو أيضًا يغازل زوجة صاحب الحمام اللعوب والتي تراوده عن نفسه مستخدمةً أشد أسلحتها فتكًا وهو مؤخرتها العالية وصدرها المستدير، إنها الممثلة اللاذعة (نعمت مختار) والتي أصر كل المخرجين على خلع كل قطعة من ملابسها في أفلام الستينيات السوداء حتى يغمون عين شعب مصر عن آثار نكسة 67 العاتية، كانت نموذجًا للمرأة (الملبن) بكل ما تحمله الطراوة والنعومة من معانٍ تصلح صوَرُها لتُعلَّق في حمامات المراهقين وبالرغم من قدم الفيلم إلا أن الغواية طازجة تمامًا، ربما لعبقرية المخرج أو لأن هؤلاء فعلاً يمثلون أدوارًا حقيقية تمامًا تعبرعن غددهم التناسلية، كما لو كانوا يهتاجون فعليًا من كم القُبَل والغواية والأحضان الغارقة في السرية، كنت أشعر بإثارة حقيقية تضاهي سنواتي العشرين، ووجدتني أعرق وأغرق في تفاصيل المشاهد، فاسترخيت في مقعدي لإراحة أعضائي التي توترت من الفيلم، إلى أن وصل الرجل مرة أخرى وتناوَله من مكانه شاكرًا إياي على حراسته، ثم جلس على المقعد الملاصق لي تاركًا كل تلك المقاعد الشاغرة في عموم الصالة، أصابني الضيق خصوصًا عندما اجتاحت خياشيمي روائح الكولونيا التي تذكُّرني بحلاقة الذقن، لم أعلق وتابعت الفيلم وأنا أشتم الكولونيا الفواحة التي يفرزها ذلك الرجل، أفرغ محتويات الكيس ومدَّ يده بشطيرة لا بُدَّ أنها من صناعة ذلك الرجل القديم المتوفي في الردهة وناولني إياها بكرم وإلحاح فرفضت شاكرًا وعاودت المشاهدة بربع استمتاع، فلم ييأس وعزم عليّ بسيجارة فرفضت أيضًا فأنا وقتها لم أكن أدخن السجائر بل كنت أفضِّل النرجيلة الشعبية بطعم المعسل السلوم والتي تعطيني شعورًا بالخطورة، على الشاشة احتدم

الصراع بين الملبن اللعوب والشاب الجاف المغترب بفوزها عليها وجلبها إياه لفراشها عاريًا مرتبكًا في غفلة من زوجها الذي هو ربُّ عمله، رباه إنه لفحش طازج بالرغم من مرور أكثر من ثلاثين عامًا على إنتاج الفيلم إلا أنه فعلاً مثير للخيال مثير للأفكار مثير لل... تلقائيًا انتفخت عروقي لتصنع حالة من التركيز على رغباتي، كنت مبهورًا ناسيًا لكُلّ مَن حولي من هؤلاء الموتى الأحياء من رواد المكان، تعصبت هرموناتي وارتفعت درجة حرارتي لحدٍّ كبيرٍ، كانت عيناي مركزتين على مشهد الغرام الغارق في بخار حمام الملاطيلي بين بطلي الفيلم الشابين، تصورت نفسي مكان البطل بينما الفتاة تنزلق على جسدي بخفة وليونة، لم أنتبه لهذا الكف الذي بدأ يتحسس فخذي الأيسر في تلصُّص النشالين، إلى أن وصلت الكف إلى ما بين فخذيّ تريد أن تكبش فوران مشاعري إثر متابعة الفيلم.. انتفضت في مكاني بينما لم أجرؤ على النظر ليساري لقد نسيت وجود ذلك الرجل المعبّق بالكولونيا والجالس إلى جواري، انتابني مزيجٌ ثانٍ من مشاعر الرعب والهلع وتندى جبيني بالعرق وانتشر التصلب في أرجاء جسدي، شعرت باقتراب وجهه من وجهي بينما يداه تعبثان، لقد تناثرت رغبتي مهشمة على أرض الواقع وحل محلها الذعر، ماذا تريد بالضبط يا صاحب الكيس؟

-

انتفضت وأنا أنظر لجانبي في الظلام وأزحت يده بعيدًا عن فخذي بتلقائية أقرب للتخشب، لم أستوعب في بادئ الأمر أي شيء ولكني اعتبرت الحركة تمثل انتهاكًا صارخًا لخصوصيتي خصوصًا وأنا أصلاً كنت أعاني تلك الإثارة التي وضعتها (نعمت مختار) في عروقي، ذلك التداخل في المشاعر أصابني بالتوتر، وقررت النهوض وتغيير مكاني بعيدًا عنه فما كان منه إلا أن أمسك بمعصمي ليجبرني على الجلوس مجددًا، فحاولت التملص منه بعصبية فجذبني بقوة لأجلس ففعلت عندما سمعت شيئًا لامعًا بين أصابعه، كان لصوت فتحها لمعانٌ نعرفه جيدًا.. تشيك تشوك، كانت مطواة قرن غزال رأيتها كثيرًا مع جاري وليد وسمعته يفح بحزم كأنه يلقي تعويذة ما.

تصنعت الثبات وبحثت بنظري عن مُعين فلم أجد حيث أنني من اختار هذا المقعد المنعزل عن الرواد المحنطين.

- ماتخافش كله برضاك، أنا مابحبش الغصب.

يانهار إسود لقد تجلت الحقيقة المثقوبة بالعار.

هذا الرجل ليس لصًا أو حتى بلطجيًا يريد إفراغ جيوبي من قروشها، إنه يريد أن... آه يا ابن الكلاب، لا بُدّ أن أحسن التصرف خصوصًا وأن طرف مطواته ينغرس في جانبي فعلاً وقد يتهوّر فعلاً بزرع مطواته في لحمي المرتعش.

أهذا ما تريده يا صاحب الكيس؟

سحبتني اليد العملاقة بصعوبة إذ أن وزن الإنسان يتضاعف بالسقوط من حالق تبعًا لقوانين الجاذبية الصارمة والمضروبة في تسعة أضعاف وزني، كانت تلك القبلة الكاتمة توشك أن تزهق أنفاسي بالإضافة لذعري نفسه، لكن في الأخير وجدت نفسي أرتكز مرة أخرى على قاعدة النافذة العريضة وقد ضاعت روحي نفسها من شراييني، وجدت ذلك الدرويش العملاق يحملق في وجهي بذعر وتوتر ويجرني جرًا إلى المقعد وهو يتلو بكلمات أعتقد أنها قرآن، ثم قام من فوره وأتى بقُلة الماء الموضوعة على نافذة مسقط النور ليرش بها دفقات من الماء البارد على وجهي ورأسي، ويمسح عني دمائي، بينما أنا في وادٍ يخر من الخنفرة والشهيق المتتالي، أخيرًا استعدت روعي وأنا أنظر له بذعر إلى أن تذكرت أنه ذلك الصعيدي الذي طلب الدخول لمرحاضي قبل دقائق أحسبها ساعات من فرط هولها، لولاه لكنت الآن راقدًا في قعر الخرابة تلعق القطط دمائي، لقد أنقذ الرجل حياتي بكل ما في الكلمة من معانٍ، لم أجد في صدري متسعًا لشكره أو حتى لإبداء العرفان بصنيعه، كل ما استطعت فعله هو الانفجار في البكاء وأنا أستحضر تلك الطويلة التي مارست تقبيلي وأنا في ذلك الوضع المقلوب، ورحت أنظر للنافذة بذعر كبير وأشير لها بأي كلمات مفهومة تخرج مني، فربت

الرجل على ظهري مهدئًا بل وضمني إلى صدره الواسع وهو يهزني كأنما يهدهد طفلاً في المهد، اجتاحت روائح زيتية قوية خياشيمي إثر ذلك الضم المفروض، وإن كنت أحتاجه فعلاً، روائحه تذكرك ببخور الأضرحة وإن كانت أكثر كثافة، الغريب أنني استكنت في ضمته لي ومارست النشيج الصامت وإن كانت تعتريني رعشات ذعر طفيفة.

- كنت هتموت يا ولَدي.

- ..

- الست الطاهرة نجدتك.

أبعدت نفسي عنه وأنا أنظر له بعينين مغشيتين من الدموع قائلاً:

- شكرًا يا عم..

- عشم.. أنا عمك عشم من خدامين آل البيت ومحاسيبه.

- اسمك عم عشم؟

- الست الطاهرة نجدتك في الوقت المناسب يا ولدي.

لم أفهم كلامه وإن كنت ارتحت كثيرًا لوجوده بل وذهب عني كثيرًا من مشاعر الذعر وقبل أن يذهب إلى باب الشقة ناديته بفم معووج من كثرة الندوب والسحجات.

- عم عشم.

فاستدار إليّ كما تفعل الدبابة:

- خير يا ولدي.

- أرجوك خليك قاعد معايا، إنت ضيفي لحد ما المولد يخلص.

شاعت ابتسامة كبيرة على صفحة وجهه الواسعة قبل أن يقول:

- دعوتك مقبولة يا ولدي لكن أنا مش لوحدي.

تذكرت رتل الصعايدة النائمين على السطح، لا بُدّ أنهم رفقاؤه في كل رحلات آل البيت، صمتُّ لبرهة قبل أن أقرر:

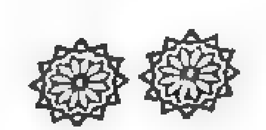
- إنت وناسك على راسي.

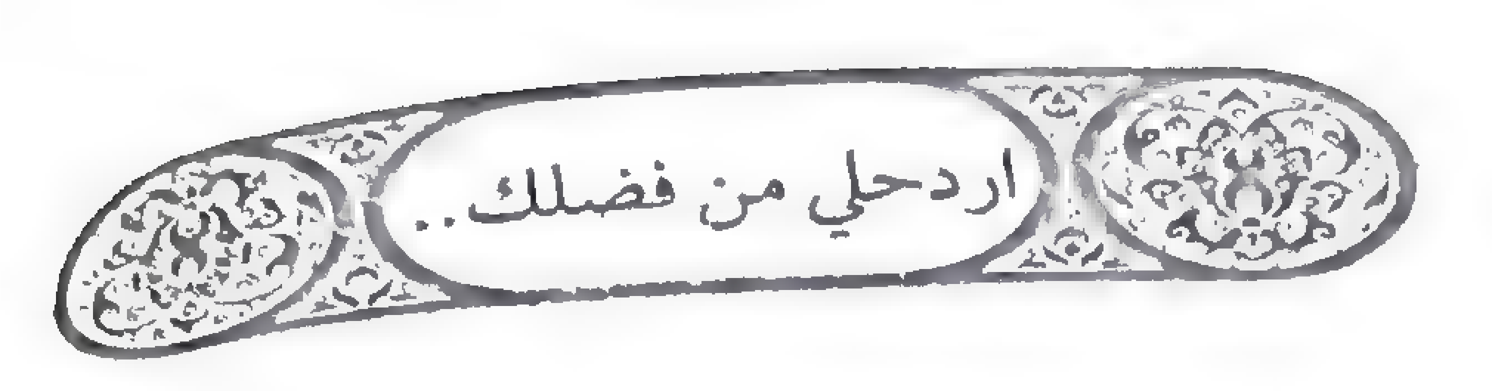
- ما أقصدش النايمين بره، أقصد اللي معايا أنا.

نظرت له وقد وصلني المعنى الحقيقي لكلامه فأردف:

- ماتخافش الأسياد اللي معايا طيبين بييجي منهم كل خير.

- أسياد؟





اردحلي من فضلك..

إذا أسعدك الحظ فستحضر تلك الوصله من وصلات الردح البلدي التي تجيدها النسوة في مصر، في تلك الأحياء الضاربة بجذورها في التاريخ؛ فالنسوة هناك يتعلمن الردح على أصوله بكل ما فيه من مقامات وموسيقى ومعانٍ يعجز الشعراء عن تصورها في أعتى لحظات الإلهام، كنت عائدًا من الكلية مرهقًا أجرجر قدمي إثر سهرتي في العمل وبعد العمل توجهت للكلية لأمارس الدراسة التي امتدت في ذلك اليوم لثماني ساعات متواصلة من المحاضرات والأقسام العملية، ثم وجدت مسرحًا صغيرًا قد نُصب ومقامه دَرَج البيت بينما وقفت شادية في أعلى الدرج ووقفت كُلٌ من أبلة كريمة وأختها أمل تضربان طبول الشتائم الموجهة، كانت المعركة أصلاً بين أمل وشادية وإن كانت أبلة كريمة تقوم بدور السنيدة لبنت خالتها أمل.

- ما فيش غيرك يا مَرَة يا وسخة يا مِكَمكِمَة يا مِصَنِنَة.

كان هذا كلام أبلة كريمة موجهة اتهامها العطن لشادية التي بدت كفرس النهر الأبيض الذي داس على سلك عالي الفولت.

- أنا وسخة يا قديمة يا مصدية وعالكوم مرمية.. عاملين عليّا رباطية إنتي واختك. على رأي المثل

(اصطلحت الممسحة ع البلاعة والاتنين بقوا جماعة)

إنها ممسحة وبلاعة! يا بازلة يا مبهوأة يا حارة وميدان ومنفدة ع الجيران.

دخلت أمل لتكمل الوصلة عن أختها الكبرى وهي تصفق بكفيها وقد بانت

ها مغلوبة!

- إه يا جربوعة يا فلاحة يا بنت الكلب مافيش غيرك اللي بيرمي الميه على العتبة.

نظرت لها شادية بتقشف وعدوانية مشوبة بغيرة عتيقة:

- مابقاش إلا العوالس تتكلم، وعلى رأي المثل:

(كلم القحبة تلاهيك واللي فيها تجيبه فيك)

لترد أبلة كريمة بغضبها الطفولي وقد انتفخت عروق رقبتها كأنها موشكة على

الاختناق مصفقة هي الأخرى على يدها:

- والله لأوريكي يا برميل الخرا.. يا مهرية.. يا منتنة.

كانت أبلة كريمة تقسم السبة لترسيخ المعنى في تشبيه شادية بكل هذه

التصورات التي تمت بصلة لعلوم النسوة مع بعضها.

لتبادلها شادية التصفيق بتصفيق ثلاثي:

- إبقي وريني يا كركوبة يا مهرّبدة

وعلى رأي المثل (بعد سنة وست أشهر.. جات المعددة تشخر)

كنت قد وصلت لمنتصف الدرج بينهن وقد استحال تعبي لإثارة وأنا أتابع تلك

المباراة الشاعرية فيما بينهم فما كان مني إلا أن قلت:

- يا جماعة عيب كده ماتفرجوش الناس علينا.

نظرن لي جميعهن في غلّ؛ فأنا من قطع وتر الوصلة الدائرة بينهن؛ فما كان من

شادية اللئيمة إلا أن أتحفتني بمثل من امثلتها:

- مالكش دعوة إنت بشغل النسوان، وعلى رأي المثل:

(تحت العمة حاجج وجوه اللباس هايج)

تلك المرأة قادرة على انتزاع أي شخص من جذوره بأمثلتها الشعبية القارحة،

انتفخت عروقي بغضب وإن لم أفهم معنى المثل فعليًا، وتصنعت القافية محاولاً رد اعتباري:

- جري إيه يا أبلة شادية إنتي ماقدرتيش على الحمار اتشطرتي على البردعة.

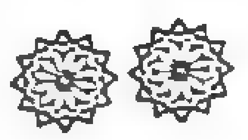
تراقصت شادية بجشع وهي تشير للفة الطعام التي أحملها والتي قوامها لحم الرأس والكبد:

- (بدل لحمتك وقلقاسك استر نفسك ورَقّع لباسك)

يا نهار أسود هذه المرأة لا تهمد وهي قاموس حقيقي فهي كالمدفع الرشاش، وبالتالي وجدت أن لا قِبَل لي بها وأن الموقف سيحيل لبعزقة كرامتي فتجاوزتها صاعدًا وقد ساورني الشك فعلاً في لباسي ترى هل فعلاً رأت المرأة الأريبة أنه مثقوب ههههههه.

فالحقيقة أن عائلة زينهم تشك في جارتهم الأقرب لهم شادية على أنها هي من يرمي ذلك الماء النجس على عتبة دارهن بغرض استمرار العنوسة لفتاتهن الأربعينية أمل، والحقيقة أنني أعرف تمامًا أن شادية هي من وراء ذلك الفعل الذي يعتبره الشعبيون سحرًا أسوَدَ ودرجة من درجات سحر (الشبشبة)، و(الشبشبة) هي سحر مع أغراض دنيئة ويقوم على المواد النجسة مثل (دماء الحيض والبول ومَنّي الرجل وهكذا مواد من التي تعاف النفس حتى عن ذكرها)، فقد شاهدتُها قبل أشهر ترمي بهذا الماء من زجاجةِ دواءٍ أخرجَتْها من صدرها على عتبة باب عائلة أم زينهم، في البداية لم أعرف تفسيرًا لكني الآن عرفت.

ماذا أفعل؟ هل أؤجج النار بينهن لأنعم بالتسلية أم أتظاهر بالجهل، علّمَتْني سنوات عمري البسيطة أن الصمت فضيلة كبرى لا تندم عليها نهائيًا، فقرّرتُ تأجيل تفعيل الفضيحة لوقتٍ آخر، ربما أستطيع إقناع تلك الجارة المشاكسة بأي شيءٍ أريده إذا ما صارحتها بالسر الذي أعرفه عنها، وبقي السؤال: لماذا تفعل شادية هذا الأمر السحري تجاه آل زينهم؟





محمود النمس

احتدمت المعركة صامتة بين (محمود النمس) وبين زوجته شادية، كان محمود النمس رجلاً ضئيلاً يملك تلك الملامح التي تشي فعلاً باسمه؛ فالرجل قصير القامة نحيفٌ مُجفّفٌ كبذور الحلبة، بينما زوجته الهائلة تنظر له بتحدٍّ مشوب بالخوف والعناد وقد سال الدم من فتحة منخاريها، كان الفرق هائلاً فعلاً لا يتصوّرُه أحدٌ، كانا بمثابة رقم عشرة (10) فهو حَجْمًا يمثل الصفر بينما تمثّل المرأة الهائلة الواحد الصحيح، كانا يتعاركان في صمتٍ وإن وشى تكسير بعض متعلقات البيت من مزهريات رخيصة أو حتى سلة البيض التي تحتفظ بها شادية كتأكيد على جدوى رعايتها للدجاج على بسطة السلم الذي لا تملك حق الانتفاع به.

- آه يا مَرَة يا بنت القحبة إنتي اللي بتعلمي كده في الناس؟

عصبت منديلها حول شعرها المتناثر إثر العراك وهو تهتف بخفوت وبلكنتها الريفية القارحة:

- مش هسيب واحدة تانية تخطفك مني يا محمووووود.

اقترب منها محمود بتؤدة وهو يمسك بحزامه المفكوك عن خاصرته النحيلة:

- عشان كده شَبشبتي لأمل يا بنت الحرام.

كانت تنظر للحزام الجلدي بقلق فهي تعرف مدى صلابة بعلها في العقاب، ولكنها استطردت بعناد:

- أبقى بنت حرام فعلاً لو سِبتك تعمل عملتك وتسوّحني أنا والعيال.

فناولها (محمود) ضربة تذكرك بضربة مدرب السيرك الضئيل لدب أشهب يماثله أضعافًا.

- مين اللي عَمَلِك الشبشبة؟ لازم رُحتي لواحد ويرقد بين وراكك عشان تعملي العمل.

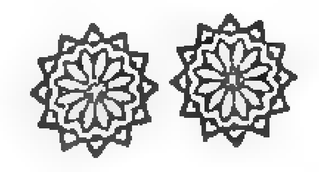
فتندت صرخة من شادية التي تماثله أضعاف الحجم:

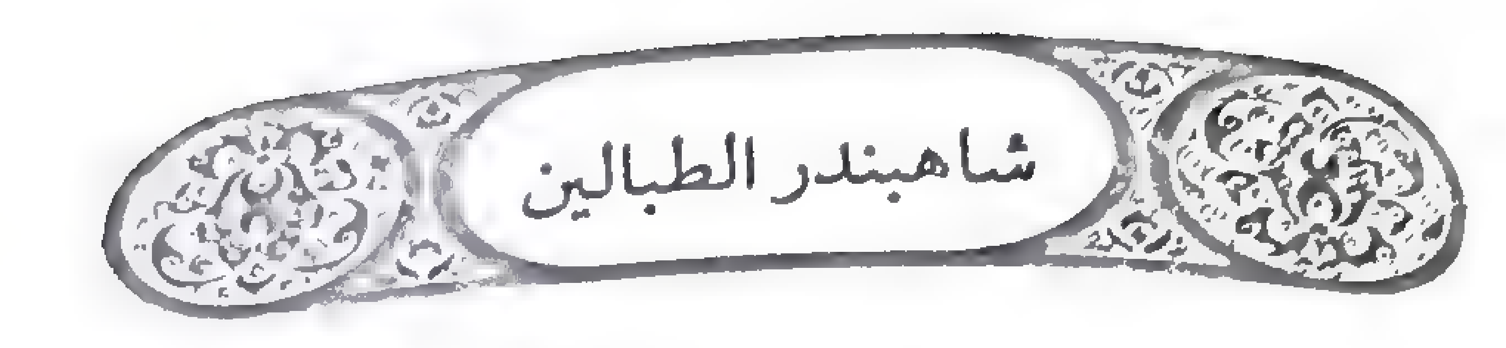
- قطع لسانك من لغلوغه يا محموووود، أنا حضّرت الميه عند سميرة.

- توقف لبرهة وقد قرر أن يحرمها من لسعات حزامه الجلدي.

نظر لأعلى حانقًا وهو يتوعدها بصوت خفيض:

- سميرة شبشبة؟ آه يا بنت الكلاب والله لأحرقك إنتي وهي بجاز وسخ..





شاهبندر الطبالين

شارع محمد على 1995

لم تكن الأمور الاقتصادية على ذلك الحال من الذكريات، إننا نسرد الذكريات كما لو كانت فيلمًا للرسوم المتحركة، ولكن الواقع ومعايشة الحقيقة شيءٌ آخر، كم من أناس يتحسرون على الماضي بكل بركاته، ويقولون شيئًا عن رُخص الأسعار والحياة التي لم تَشُبها شائبة، ولكن دعوني أخبركم أن الماضي كان أليمًا فعلاً كما الحاضر الذي تعيشونه في أيامكم هذه، كانت البطالة تأكل أي حلم كما تفعل أنت مع شريحة الشيبسي، كان الفساد يُزكم الأنوف، والرشوة والمحسوبية كانت في أوجها بالإضافة لرسوخ عميق لاستقرار زيتي القوام غير مقطر على الإطلاق، بالنسبة لك الحياة كانت رخيصة ولكنها لم تكن أبدًا ميسورة للذين عاصروا تلك الأيام، كان العمل يتأرجح بين نضوب وركود في معظم الأحوال بالنسبة لطالب جامعي يعيش وحيدًا، كان عملي في الكباريه مرهونًا بحضور (طلال) ذلك الكهل الخليجي المدعوم بفارق العملة والزيت الطافح في أراضيهم والمسمى بالبترول، كان ينثر النقود بلا حساب بل ويفرشها أرضًا تحت قدم راقصتي (نادية) العذراء والتي لم تتلوث عفتها إلا ببعض القبل الحارة التي اقتبسها منها على درج العمارة في شارع محمد علي في الأيام الغابرة، لا زلت أذكر كلام الأسطى (شافعي) حيمنا لمح الغضب والعبوث على وجهي

- أبقى بنت حرام فعلاً لو سِبتك تعمل عملتك وتسوّحني أنا والعيال.

فناولها (محمود) ضربة تذكرك بضربة مدرب السيرك الضئيل لدب أشهب يماثله أضعافًا.

- مين اللي عَمَلِك الشبشبة؟ لازم رُحتي لواحد ويرقد بين وراكك عشان تعملي العمل.

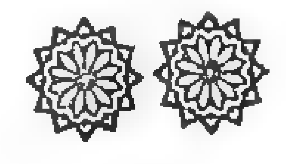
فتندت صرخة من شادية التي تماثله أضعاف الحجم:

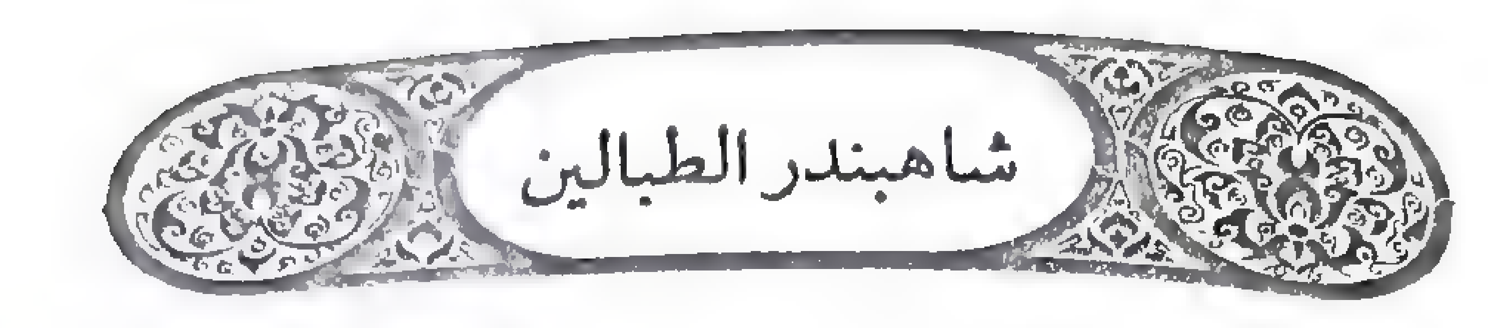
- قطع لسانك من لغلوغه يا محمووووود، أنا حضّرت الميه عند سميرة.

- توقف لبرهة وقد قرر أن يحرمها من لسعات حزامه الجلدي.

نظر لأعلى حانقًا وهو يتوعدها بصوت خفيض:

- سميرة شبشبة؟ آه يا بنت الكلاب والله لأحرقك إنتي وهي بجاز وسخ..





شاهبندر الطبالين

شارع محمد على 1995

لم تكن الأمور الاقتصادية على ذلك الحال من الذكريات، إننا نسرد الذكريات كما لو كانت فيلمًا للرسوم المتحركة، ولكن الواقع ومعايشة الحقيقة شيءٌ آخر، كم من أناس يتحسرون على الماضي بكل بركاته، ويقولون شيئًا عن رُخص الأسعار والحياة التي لم تَشُبها شائبة، ولكن دعوني أخبركم أن الماضي كان أليمًا فعلاً كما الحاضر الذي تعيشونه في أيامكم هذه، كانت البطالة تأكل أي حلم كما تفعل أنت مع شريحة الشيبسي، كان الفساد يُزكم الأنوف، والرشوة والمحسوبية كانت في أوجها بالإضافة لرسوخ عميق لاستقرار زيتي القوام غير مقطر على الإطلاق، بالنسبة لك الحياة كانت رخيصة ولكنها لم تكن أبدًا ميسورة للذين عاصروا تلك الأيام، كان العمل يتأرجح بين نضوب وركود في معظم الأحوال بالنسبة لطالب جامعي يعيش وحيدًا، كان عملي في الكباريه مرهونًا بحضور (طلال) ذلك الكهل الخليجي المدعوم بفارق العملة والزيت الطافح في أراضيهم والمسمى بالبترول، كان ينثر النقود بلا حساب بل ويفرشها أرضًا تحت قدم راقصتي (نادية) العذراء والتي لم تتلوث عفتها إلا ببعض القبل الحارة التي اقتبسها منها على درج العمارة في شارع محمد علي في الأيام الغابرة، لا زلت أذكر كلام الأسطى (شافعي) حيمنا لمح الغضب والعبوث على وجه

إثر اكتشافي أن محبوبتي الغالية ما هي إلا راقصة تحت الإعداد وبإذن في ...
والديها، يومها جرني جرًا إلى خارج الشقة وقال لي:

- يابني أنا بحبك متبقاش هشيم وتزعلني منك.

جاوبته وكحول البيرة يفتح ملفات المصارحة ويورثني شيئًا من الجسارة.

- بتعري بنتك يا راجل يا عرص؟ عشان الفلوس، أنا كنت هتجوزها وأخليها ست محترمة.

فتلاعبت ابتسامة تحت شاربه الغليظ وهو يقول بلغة العازفين وكأن السنة انزلقت على لوح من الزجاج وأردف:

- ابقى عرّص بجد لما أرمي (الدنيارا) لصايع بيشتغل صبي شيشة.

فواصلت هجومي مندفعًا أكثر:

- يعني لما تاكل من عرق فخاد بنتك هتبقى إيه؟ دكتور؟

اربدّ وجه الرجل على نحو مباغتٍ وتحوّل لكلب مسعور وهو يمسك بتلابيبي على درج عمارته في نفس مكان غرامي مع ملاكي نادين.

- هفهّمك غلطك قبل ما أرميك على السلم يا ترس.

ثم اعتصر كتفي وهو يقرب وجهه من وجهي حتى كاد أن يقبلني.

- عرق الفخاد بييجي من المومس لكن بنتي هتشتغل شغلانة ليها نقابة، بنتي هتبقي فنانة يا جربوع يا بتاع العفاريت.

وقبل أن يحررني من قبضته العصبية فوجئت بنادين تقف وراءه مذعورة ثم تقفز بيننا لتحول عن دفعي عن الدرج.

- بابا معلش يا بابا سيبه.. ده سكران.

تحول الرجل إلى الهدوء مرة أخرى وبان له مجرد كوني سكرانٌ يعفيني من

- خلاص خليه يطلع من هنا لحسن و(شرفك) عندي ممكن أخصيه.

وتركنا مفسحًا المجال لمحادثة بيني وبينها، محادثة لم أكن أعرف أنها الأخيرة في علاقتنا.

اقتربت مني نادين وقد تلطخ وجهها البريء بالمساحيق ولفت جسدها اللدن بعباءة سوداء من الواضح أنها لم تستبدل بدلة الرقص بعد، كانت حازمة لا أعرف من أين أتت بكل هذه الصلابة، هل زينتها الفاقعة هي ما جعلت منها ذلك الكائن العملي الصارم؟، أم أنها تلقتْ دَرْسًا أخيرًا ونهائيًا في مواجهة غرامي وإخلاصي.

- تامر اسمعني كويس، أنا بنت رقاصة وأبويا طبّال وده كارنا اللي بناكل منه، أمي خلاص تعبت وماحليتهاش حاجة، وأبويا بيكبر وماعملناش أي حاجة تسترنا.

- تقومي تشتغلي رقاصة؟

- أيوه هبقى رقّاصة ومشهورة وبلعب بالفلوس، الناس عمرها ما هتنسى إني بنت رقاصة، إنت فاكر أهلك هيوافقوا على جوازة زي دي؟ حتى لو وافقوا هيفضلوا يصوا لي على إني بنت رقاصة ويذلوني ويدوسوا على كرامتي.

طفرت دمعة مني رغمًا عني:

- أنا بحبك يا نادين، إنتي عارفة إني مش هقدر أعيش من غيرك.

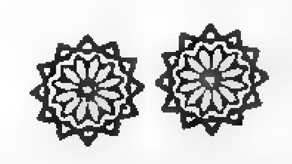
أشاحت ببصرها عني وكأنها تتجنب مواجهتي:

- هتقدر زي ما أنا هقدر، أنا عمري ما هنساك إنت طيب وابن حلال لكن.. بي أبقى أشوفك يا تامر.

ثم دفعتني دفعًا خفيفًا لأسفل وأنا مذهول من هذا التماسك والمنطق الذي تبدو أكبر بعشرين عامًا، فهبطت الدرج متخبطًا من مَسّ القسوة والاستغناء، مي فاستدارت عائدة لشقتهم ثم دخلت وأغلقت الباب دون حتى أن تلتفت زعها.

لم أكن من محتسيي الخمر بل لم أكن أستسيغ طعمها المعطن، تلاعبت رشفات البيرة برأسي وأنا أهيم في الشوارع المزدحمة بالناس، تبًا إنَّ وجهها يطاردني وطعم قبلتها بات كالشوكة في ظهري، تولدت لدي رغبة عارمة في البكاء، لقد لفظتني بكل هدوء كما لو كانت تكبرني بعقود، لقد ضربت في مقتل وتركت سكينها مغروسًا في ظهري، يداي لا تطالان السكين لأنه في ظهري، تبًا لتكل الأيام وتبًا لكل هذه المشاعر الطازجة التي رُميت فعليًا في القمامة، توجهت لشقتي التي باتت موحشة مقبضة عجوز، أغلقت على نفسي الباب عازمًا على..

على الانتحار..



بعشقك يا قطة

إنها سُمعة القطط على مَر التاريخ، تلك السمعة التي تقول إن القطط هي أرواح مَن توفوا وأنها أكثر الحيونات إحساسًا بالأشباح، حتى عند المصريين القدماء كانت (باستيت) تلك الهرة السوداء الرشيقة التي تقف بشموخ بساعدين مفرودين وعنق منتصب وتدور بذيلها حول جسمها لتنظر إلى ما أمامها في رِقَّة وتركيز كبيرين، فهي إلهة الرقة والحنان عند المصريين، وإن أغضبتها فلا تنسَ أن أمها لبؤة مفترسة تعود بعد ذلك لتأديبك وتمزيقك، لدرجة أنهم يحنطون قططهم قبل الدفن لإيمانهم المُطلَق بأن القط يملك روحًا بل وهو مكان لاستضافة أي روح، إن للقطط حضورًا قد يكون روحيًا في أحيانٍ قليلة تشعر فيها أن القط يتواصل معك ويموء كأنه يريد أن يقول شيئًا لك، أو كأن الروح التي تسكنه الآن تريد أن تخبرك شيئًا ولكنها لا تملك إلا لسان القط الذي يموء بنغمات متباينة ليعبِّر عما يريده أو يشعر به، حتى في غضبهم تشعر بأنه لا قِبَل لك بهم وأنهم قد سكنتهم الشياطين، يقول السحر الشعبي إن القِطَّ الذي يُولَد في البيت تسكنه أرواحُ أموات ذلك البيت وتجد في جسده متنفسًا من حالة الفراغ التي تشعر بها تلك الأرواح، ربما كان هذا فراغ التأديب والتهذيب والإصلاح، يكتنف ذلك الفراغ شعورٌ بالتبكيت والندم والحسرة ومواجهة النفس بأفعالها وخطايها وبعرض كل المخزيات التي فعلتها الروح في حياتها السابقة، وأن تلك الأرواح تستطيع أن تنفُذ للقطط هروبًا من الدرس والعبرة لتعود وتتكرر معها

دروس التهذيب فتهرب ثانية وتحاول النفاذ للعالم الحي وهكذا إلى أن تستقر الروح وتتخلى عن مراهقتها وتستقر منتظرة أن يُفصل في أمرها بحالة من الخنوع التام والقبول المطلق.

***

تعودت على تلك الطرقات التي تضرب الباب ليلاً، تعودت أن أسمع مَن يأمرني بأن أفتح الباب، إنها نادية، تلك الهرة التي تأتي بشكل غير منتظم لتطلب بعض الطعام، تطورت العلاقة بيني وبين تلك الهرة الفخمة، فباتت تطيل الزيارة بل وتتمسح فيّ فصرتُ أحملها بين ذراعي مستشعرًا وزنها، إنها كثيفة بلا ثقل واضح، ناعمة بلا انزلاق، تجبرك بالتمسيد على فرائها بينما تهز ذيلها برضا وكبرياء، كانت سلوتي في انعزالي بعد جرح نادين، كنت أضمها وأبكي شاكيًا من الهجر والغدر والقسوة، كانت تسمعني بل كانت تلعق دموعي وتموء بحزن موازٍ، كانت الهرة تظهر لي من التعاطف لحزني البالغ بأن تتقلب بين يدي بغنج وتحفزني على المزيد من التمسيد عليها واحتضانها، لم يعد يخيفني تجربتي المفزعة حين سمعتها تتكلم، لم تتكلم من وقتها بل ظهرت كقطة لعوب جميلة، أصبحت تبيت ليلتها في أحضاني وعلى فراشي الفقير، كنت أستأنس بالهرير الرائع الذي يصدر منها وذلك الدفء المحبّب الناتج عن احتضانها، بل إنني صرت أقبّلها، نعم أقبّل الهرة قبلاتٍ متتالية مشتاقة، لم أشعر أبدًا أنها مجرد حيوان، لم أشعر أبدًا بشذوذ ما أفعل. كانت وحدتي الصامتة مع تلك الهرة الثمينة يولد عندي شعورًا بالألفة والاسترخاء، بل وبالإثارة أيضًا، نعم كنت أشعر بدبيب الإثارة يسري في جسدي أثناء احتضانها، ولم يكن منها إلا أنها تتمادى وتتمادى في التمطي والدلال في حجري المتصلب، لقد مَنّت الحياة عليّ بعشيقة من مملكة الحيوان، لقد نضج الأمر تمامًا بيننا وبالتأكيد سيحدث أمرٌ ما.

***

ملعونة تلك المشاعر وذلك الشغف، شيء ما يمنعني أستمر، ربما كانت لذة مازوخية بأن أعذب نفسي وأرى معشوقتي تتقلب في أنهار من ضوء الغواية وترتدي اللامع من الثياب المكشوفة وتتمايل على نقرات طبلة أبيها أمام عيني، أراقب تطورها السريع في دنيا الغواية، لقد سمحت منذ أيام بأن يدس طلال يده بين ثدييها بلفة ريالات مبرومة، وأمس اقتربت منه وهي تتمايل ثم جلست على حجره تهتز بغنج بينما لعاب الرجل يتدفق كمرض السيلان، في أقل من شهر باتت (نادين) حديث الكازينو لما لها من نضارة لا توصف وجرأة زائدة عن المعقول، بل زاد عليها تألق الزينة التي أضافت سنوات لعمرها الحقيقي وظهرت كثمرة مانجو شهية توحي لك بالعضّ في لحمها المتماسك، أين الزغب الذي كان يلمع مع حبات عرقك يا حبيبتي؟ أين ضفيرتك الثعبانية ؟ بل أين براءتك وارتعاشة شفتيكي حين كنت أخطف منك القبلة على درج عمارتكم، كنت أعرف أنها ضاعت مني ولكنه الحب، تبًا وألف ولعنة على الحب، كنت أواصل عملي كصبي نرجيلة في الملهى وأتابع فقرتها وقد تدفقت بالحيوية والإبهار للصالة فعلاً، وأصبحت فقرتها من الفقرات المتأخرة وهذا هو العُرف، المرغوبون من الفنانين والراقصات يكونون في آخر البرنامج حتى تحتفظ الصالة بكثافتها، ومن بين كل هؤلاء المعجبين كان ذلك الوغد (طلال)، سائح عربي وارد الخليج يملك المال كما تملك أنت حبات العرق وسنوات الإحباط، أعتقد أنه في الستين من عمره، تستطيع تحديد عمره إذا ما نظرت إلى شاربه المصبوغ بالأسود الفاحم علاوة على شعر رأسه الخفيف، تناقض واضح بين بنيته المترهلة وسواد شعره أظهره بأكبر من عمره، حليق الوجه مبتذل القسمات عارٍ تمامًا من جاذبية الرجل العربي المعروفة، أعتقد أنه يعمل كموديل سيئ لنموذج الرجل الخليجي ويقبض من وراء هذا الدور الدولارات، كان يغدق على نادين البنكنوت الأخضر والأحمر بلا حساب، ومع الوقت انتبهت نادين بتوجيه من العم شافعي فباتت ترقص بالقرب منه وتغنج وتهتز أكثر إلى جواره وميزته عن باقي الرواد بالاهتمام والنظرات، فما

كان من الرجل إلا أن سال لعابه ومخاطه وعرقه وكل سوائل جسده الستيني أمام هذا الجمال النادر، وبذل الهدايا والمصوغات والملابس الفاخرة لنادين، لتصبح في أقل من شهرٍ ترفل في الحرير وتركب المرسيديس، في أقل من شهرٍ أو ربما أسابيع، لقد كانت نضارة نادين وعذريتها مصدر إلهام الكهل الستيني وطموحه، إلى أن جاء يومٌ كنت ألقم نرجيلته بعض الجمرات وسرحت وأنا أنظر له بعدوانية قبل أن يلاحظ نظراتي، بادلني النظرات بعيون مثقلة ولسان أعوج من تأثير الويسكي، كان يجلس إلى طاولته رجلٌ أشبه بالمصارعين، اعتقدت أنه الحارس الشخصي له، رجل بشارب طويل لامع الرأس بسبب صلعته الكاملة، تظهر عضلاته بارزة من تحت سترته الرسمية، بدا الرجل في الأربعين من العمر متماسك كصخرة وإن بدا أنه مجرد تابع للكهل المتصابي، كان المسرح يستعد لفقرة نادين التي تعذبني فعلاً فقد تغيرت معي في المعاملة وبدت مشغولة تمامًا عني للدرجة التي كانت تحضر ولا تلقي عليّ بالتحية أو السلام حتى من بعيد، بل إن الأمر تطوّر لتجاهُل تام كأنها لا تسمعني، أصيب قلبي بالنزيف ومع الأيام كانت رغبتي فيها تتزايد أكثر وأكثر، ولم أجد أيّ مقاومة تُذكَر في قلبي.

- اسمع يا راعي الشيشة.

نظرت له متمنيًا أن يموت محترقًا.

- يلّا روح نادي شافعي.

وأخرج ورقة نقدية مبرومة ليرشقها في ثقب كرامتي الجريحة أصلاً، غلى الدم في عروقي وأصبحت على وشك الجنون وإن احتفظت ملامحي ببرودها، ألا يكفيني تعري حلمي أمامك يا وغد، والله لو تركوني عليك لمزقتك إربًا يا جوال العملة.

ابتسمت في برود وتعالٍ..

وأشرت للرجل الجالس إلى جواره قائلاً بغلٍّ مكتومٍ:

- تقدر تبعت الراجل بتاعك أنا هنا للشيشة بس.

لمعت عينا الكهل وبدا مستعدًا مستمتعًا بالفقرة التالية، فقرة بطلها مجرد شاب في العشرين لا يمثل له في نظره جناح بعوضة مقارنة بأمواله وصبغة شعره، للأسف دومًا كانت نظرة أهل الخليج للمصريين نظرة متدنية وكنت أشاهد التعالي والغطرسة من بعضهم في المعاملة مع المصريين للدرجة التي أشعر فيها بأن زمن العبودية لم يولّ بعد، كانت التسعينيات رمزًا متكاملاً للغطرسة الخليجية على المصريين، يروننا إما مادة للتسلية أو مادة للتعالي والإهانة المتعمّدة يستمتعون بعراكنا بيننا مِن أجلهم، طبعًا أنا لا أعمم؛ حيث ان أهل الخليج يملكون الثقافة والاخلاق والانفتاح، ولكن للأسف هؤلاء لا يسافرون لمصر يفضلون أوروبا وأمريكا، ولِمَ لا فجوازُ سفرهم يصلح للدخول والخروج لهناك، أما جواز سفرنا فيسمح بالالتصاق بالبدل وكأنها فقط مأوى لفاقدي الأهلية الذين لا يصلحون للاستهلاك الأجنبي، ربما خجلاً مما يفعله ذووهم من حماقات وتحرر أرعن لا يليق بالشخصية العربية عمومًا، ولكن العينات التي رأيتها تقف في الحالة الوسط بين الثري المدلل والجاهل المغفل، وكان نصيبنا هم هؤلاء الذين يشغلون أوكار اللذة وبأموالهم كانت تدور آلة البغاء وبيع الأجساد في التسعينيات، أعرف جيدًا أنهم يستمتعون بالتميُّز الذي يحصلون عليه في مصر من التفاف السماسرة والشحاذين والقوادين وأصحاب المنافع عليهم وترتب على ذلك أنهم يرون بعض المصريين في هؤلاء، ولكن الأمر تطور لدرجة أنك لا تستطيع أن تتلفظ أو تتعارك مع واحد منهم إلا وجرك على قسم الشرطة لتأخذ طريحتك من الإهانة والتهم والإصابات وقد تفقد فيها مستقبلك لأنك تجرأت واعترضت على تغطرس أحدهم، كأنها وجدتنا جمعيًا غير مكتوب، لا بُدّ أن تخشى الخلاف معه ولا بُدّ أن يعرف أنك تخشى أجمل شيء لا ترى السور تسألني أي سور. أقول لك سور السجن، سور اسمه الحدود الجغرافية يبعد عنبرك الفسيح المتمثل في بيتك وجيرانك ومكان عملك والشوارع التي تنتقل خلالها من العمل للبيت للمقهى، أعتقد أن مثل هؤلاء لا يتمتعون بالاحترام الكافي في بلادهم وربما يعوّضون كبتهم في إيذائنا والتعالي

علينا، أمثال هؤلاء مستحيل أنهم يمثلون شيئًا في بلادهم بالتأكيد هم رعاع هذا البلد لا من صفوته، كانت مصر هي مكب النفايات لهؤلاء الحمقى من سياح العرب ومع الوقت ترسخ شعور عام بأنهم أفضل وأهم منا نحن أصحاب البلد، طبعًا أنا أتكلم عن شريحة منهم ولا أتكلم في العموم مع أنني لم أشاهد في تلك الفترة الزمنية في حضور بعض الخليجيين إلا الإهانة والغطرسة التي توجع أكثر من الحقنة الشرجية..

توقف الزمن لحظات قبل أن أجده يقوم من جلسته وهو يفتعل صراخًا واتهامات لي بقلة الأدب بل إنه أوضح أنني ألحّ عليه لآخذ بقشيشًا، لوهلة تراجعت للوراء خوفًا وارتباكًا وحاولت الابتعاد إلا أن الرجل أمسكني من ذراعي في قوة وهو يقترب مني، نظرت في عينيه فوجدته غير مقتنع وأنه يقوم بتمثيل الحارس ليس إلا همس وهو يقرب فمه من أذني:

- لِمّ الدور أنا مش عاوز أأذيك.

نظرت له فوجدت وياللعجب شيئًا من الترجي في عينيه فقررت أن أمضي لحالي لولا أن الكهل انتهز فرصة التفاتي لحارسه فناولني صفعةً ارتج لها جدار كرامتي توقفت الموسيقى وبدأ الجميع يتابعون بشغف ما يحدث، هجمت على الكهل بغتة لأمسك بتلابيبه ولأشق جلبابه بين يدي الميتتين على ياقة جلبابه. فناولني الرجل ضربة موجعة في ظهري وأخرى لوجهي وشبك أصابعه حول خصري ليخلص الكهل من قبضتي ونزعني من أمامه انتزاعًا ودار بي ليلقيني على الأرض ويرفع ساقه ليشوطني فهبط العم شابوري في الوقت المناسب ليحيل دون الضربة ويمسّد على ساعد الرجل مهدئًا وهامسًا له:

- عيب عليك ده زي ابنك.

ولم يترك فرصة للرد بل هجم شابوري عليّ ليحملني خارجًا، كان روّاد الملهى السكارى يضحكون، أما طلال الذي انشق جلبابه فكشف عن.. عن .. عن ملابس داخلية شفافة ومطرزة كأنها.. كأنها قميص نوم، نعم هذا الرجل يلبس قميصًا للنوم

تحت جلبابه، يعني إيه..؟ بينما حملني شابوري للخارج وأنا أرفع يدي متوعدًا مهددًا كمل لو كنت طفلاً، نظرت لكفي فوجدته قابضًا على قطعة قماش هي جيب الجلباب بقلمه الذهبي.

***

لا أعرف كيف وصلت للسيدة زينب، كان الفجر موشكًا على الانبلاج ما زال شريط الأحداث يدور في عقلي، لملمت سترتي على قميصي الممزق ومسحت أنفي وتظاهرت بالغضب إلى أن جاء الحاج مصطفى من المطبخ مهرولاً، لمحت في عينه نظرة فزع وهو يتفحصني بعينيه.

- البيه فاكر نفسه بلطجي وبيلابط مع الزبون.

كان الحاج مصطفى يعرف خلفيةً ما عن قصتي مع نادين، لمحت في عينيه نظرة عتاب وشفقة في نفس الوقت.

اقترب مني ووضع يده على كتفي فأزحتها بعصبية:

- يا ابني ده ممكن يوديك في توكر، إحنا مش اتفقنا إنك تتعامل في العادي.

تدخل العم شابوري بصوته الثمل وجفونه المتثاقلة.

- الجارد بتاع الراجل كان هيفرمه لولايا، الواد ده جدع ماقبلش يبقى عرص عشان كده لحقته.

شكره الحاج مصطفى.

- طول عمرك حامي خلاطك يا شابوري.(أي حامي المخالطين لك)

أبعد شابوي نظراته عنّا وعاد إلى مجلسه خجلاً وهو يتمتم:

- لو كنت اتجوزت كنت جبت أدُّه، يلّا ياض روَّح قبل ما يخرج علينا جعفر بوشه العكر.

وكأنه كان يقول نبوءة، فبعد لحظة كان جعفر يجتاز باب الخروج آتيًا من



عبرت للجهة المقابلة بصعوبة وجريت لما بين الأشجار لأستوعب الألم الذي أعرف أنه سيزول بعد دقائق، عاودت جلوس القرفصاء لأهدأ وأنا أتابع بعيني باب الملهى وهل ثمة شيء سيحدث، فوجئت بسيارة الحاجة تأتي بعد حوالي عشر دقائق وتنزل منها الحاجة شوشو مضطربة وتدخل بسرعة إلى الملهى الداخلي، كان الألم يهدأ يهدأ، ففضلت المراقبة من بعيد فوجدت بعد قليل طلال يخرج ويلحقه الحارس وقد أعاره سترته ليغلق بها انشقاق جلبابه، اكتفيت ومشيت شارع الهرم بطوله على قدمي والغليان يفور وصفعة طلال وهجوم الحارس على يتواليان على عقلي بتكرار لا نهائي، أكاد أجن من القهر، أنا طالب جامعي محترم أعيش من عرقي وشقاي وكل ذنبي أنني أحببت، أحببت راقصة بل عاهرة بل هي أسوأ مما كنت أتخيل، ارتفع هرمون الكراهية إثر ذلك الغليان في داخلي ووجدتني أتوعد نادين وأباها وطلال وحارسه وجعفر بالويل والثبور، لا بُدّ من استرداد كرامتي، لقد طُعن كبريائي الشاب في مقتل وخرجت من العمل مفصولاً مُمزّق الثياب يسيل الدم من أنفي وفمي، لا بُدّ أن أنتقم، لا بُدّ لا بُدّ، فأنا لم أكن أبدًا لين العريكة أو سهل المنال فبيئتي الأصلية لا تعرف إلا الكرامة والذود عن الكبرياء مهما كان الثمن، لا بُدّ من الانتقام لا بُدّ، وفي تلك اللحظات المضنية وجدتني أنفجر بالبكاء على قارعة الطريق ومن حسن الحظ أنه شبه خالٍ من المارة في هذه الساعة المتأخرة وإلا تجمع الناس حولي يبصرون

ذلك الشاب البائس وهو يبكي بينما ينزف الدم من منخاره، رفعت يدي لأمسح دموعي ففوجئت بأنني ما زلت قابضًا على جيب الجلباب ومعه القلم الذهبي، على الساعة الخامسة كنت قد وصلت لميدان السيدة أجرجر أذيال الهزيمة والإهانة البالغة، حوانيت الحي لم تفتح أبوابها بعد فقط عربة الفول المدمس التي تقف على رأس المنعطف التالي لبيتي، كان يعرفني ويرسل صينية الإفطار كلما صفرت له من فوق السطوح، لمحني من بعيد فرفعت يدي بالتحية ومررت بسرعة كي لا يلاحظ حالي فسمعته يقول بلهجته المتوددة دومًا:

- صباح القشطة. إنت جيت بدري النهارده، اطلع وأنا هبعتلك طبق من وش القدرة.

رفعت يدي بالتحية وإن أسرعت بالدخول لمدخل البيت كي لا يرى حالي المزري، فأهل المنطقة معتادون على الشجار وعلى التمزيق لكن أن يدخل جارٌ لهم مُمزّق الثياب من الخارج فقد تطير فيها الرقاب وقد يظنون أن حيًّا آخر قد اعتدى عليّ، لا أريد الدوران في نقطة لن تفيد، صعدت السلم بتثاقل حتى وصلت للطابق الثالث وقبل أن أتجاوزه انفتح باب الشقة لتبرز منه (سمية) متورمة الحاجب مضروبة وإن وشت تورماتها بأنها قديمة وليست نتاج اللية، تلاقت عيوننا في قلق، أبصرت حالي وتمزيقي، ضربت بيدها على صدرها وهمست بتركيز وتوتر:

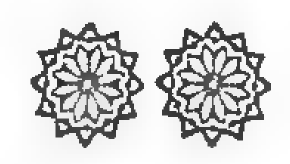
- يا نهار اسود مين اللي عمل فيك كده؟

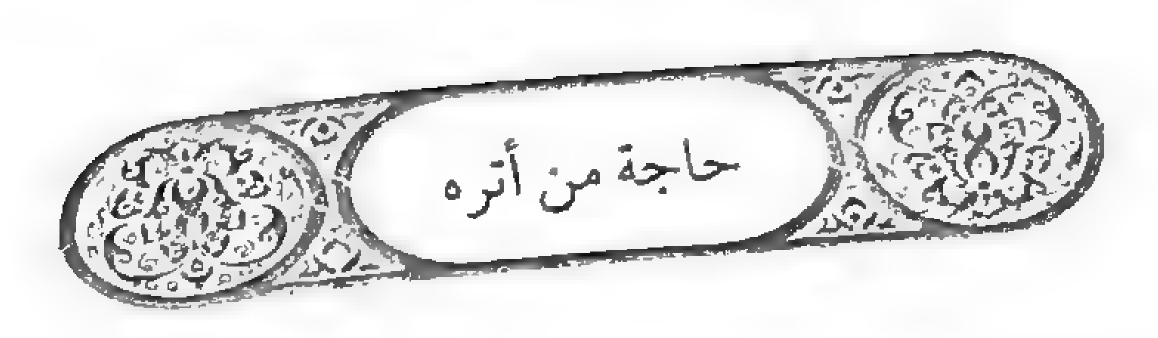
- ششششش اسكتي وسيبيني في حالي.

وأسرعت للسطوح فتبعتني بكل قلق، وأمام باب شقتي استوقفتني وهي تتأمل إصاباتي وسحجاتي، وقبل أن أتخذ أي رد فعل ألقت نفسها في أحضاني وانفجرت باكية فما كان مني إلا أن بكيت أنا الآخر في مشهد بؤسٍ حقيقي، فأنا وهي في حالٍ يُرثَى لها فعلاً، نحن الاثنان ممزقان مجروحان تشوه وجوهنا السحجات والتورمات، تدفق الحزن مع الرغبة الشديدة في التعزية، وتبلوُر ذلك في صورة قبلة محمومة تلاقت

فيها شفتان متورمتان وقلبان كسيران، كانت سمية دومًا تستميلني وتعصرني كرسي الاعتراف لها، لم أشاهدها يوما سليمة ولكني كنت أعرف كم هي بطلة موفورة الأنوثة بنت أصل حقيقية جنى عليها الدهر وجعلها خادمة لزوجها بعدما لفظتها أسرتها الغنية، وجدت فيَّ الصديق والصاحب في سجنها هذا، كانت دومًا تصف حياتها التي لا تطاق مع وليد وكيف أن إدمانه أتى على البقية الباقية من صحته بالرغم من سنه الصغير، وأنه بات عاجزًا عن إشباع تلقائي بسبب بلبعة أقراص "أبي صليبة" وال "إل إس دي" وشراب الكودافين، كانت الملابس ترفرف على الأحبال وكأنها شاهدة على لقائنا، ولم أجد بدًا من إتمام شيء لطالما تجنبته فجذبتها أكثر لأتمرغ في أحضانها، كانت شفتاي تؤلمانني ورأسي يدور بفعل الإهانة والمشي لكل هذه المسافة، ولكن الفوران كان له الكلمة العليا واستجابتها لي أشعلت يأسي من لقاء نادين مرة أخرى، كان حوضي يؤلمني إثر ذلك "الشالوت" الذي أعطاني إياه جعفر يؤلمني بشدة، ولكن هذا لم يمنع إثارتي فزاد ألمي كثيرًا وأنا أعتصر شفتي سمية بشفتي المتورمة أصلاً وأشتم رائحة أنفساها إذ إنها استيقظت توًا من النوم، لم أبالِ برائحة فمها وفي لحظة جنون وجدتني أخلع قميصي وأحل حزامي وأخلع سروالي، لا بُدّ أن افعلها الآن يا سمية، كانت استجابتها أسرع مني ففتحت الروب المنزلي ليكشف عن جلباب خفيف مليء بالميكي ماوس وألوان ديزني الفاقعة، جسدها أبيض بلا شائبة على صدرها آثار لسحجات أو عضات، مساحة صغيرة زرقاء ووردية تمثل تورُّمات وضربات قديمة، اقتربت منها أعتصر كل ما يترترج فيها، الملابس المنشورة كانت تراقص مع نسمات الصباح المبكر وكأنها تصفق للمشهد كما تصفق دومًا لأبلة كريمة وهي ترقع مواويلها كل صباح، كانت تصفق لفنها وأغانيها أما ذلك الصباح فكانت تصفق لمشهد بائس بين بين جسدين مكدودين بالقهر والإهانة جرجرتها للداخل وألقيتها على السجادة القديمة ورميت بنفسي فوقها لأنهي دروة الغليان، آآآآآآآه، إن الألم يصرخ بين ساقي بلا هوادة جعلت ظهري نفسه يتصدع، آآآآي أشعر بأن شيئًا ما سينفجر أسفلي

فرميت نفسي جانبًا وأنا أنثني بكفي بين ساقي، لقد عاودني الألم العاتي كما لو كنت تلقيت الضربة الآن، انتفضت سمية وكأنها استفاقت من غيبوبة وقامت لتلم شعثها وتحكم الروب على بطنها بعد أن علا صوتي بالتأوه والتوجع فطبطبت عليّ في عجالة وهي تحثني أن أخفض صوتي وغادرت مسرعة تاركة إياي أتنفس بصعوبة لأستوعب الألم الذي بدأ يخف رويدًا رويدًا إلى أن رحت في سباتٍ عميقٍ حيث أنا.



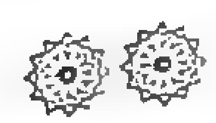


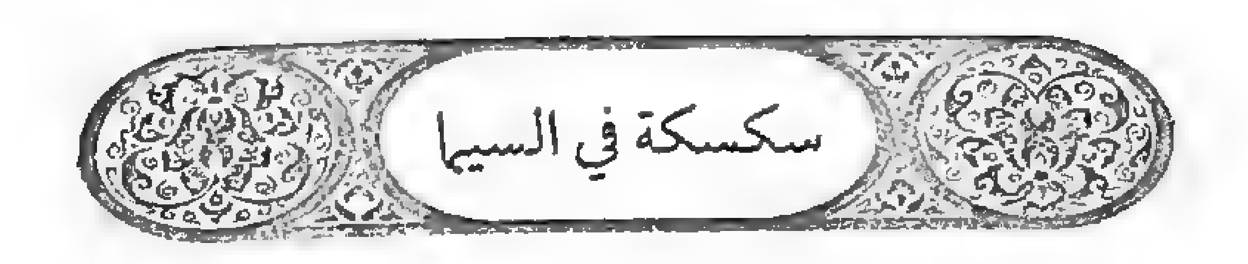
السيدة1995

لا أعرف كيف ذهبت في النوم، ولكنني في الصباح وجدتني نائمًا على السجادة القديمة وباب الشقة موارب وثيابي شبه منزوعة عني، قمت بصعوبة من ذلك الوضع المؤلم، توجهت للحمام وأكملت نزع ثيابي وإفراغ جيوبي فوجدت قطعة القماش والقلم الذهبي، قلم حبر من ماركة باركر، كان ذهبي اللون فخيمًا، ولكنني لم أعرف هل هو ذهبٌ حقيقيٌ أم من ماركة طلال، كنت أنظر لهذه الأشياء بغِلٍ وأنا أستعيد صفعته وتوقيتها وكل تفاصيلها. أووف، إن الألم يرثني بعض العرج، ولكنني في قرارة نفسي حمدت الله على عدم إتمام الذنب بيني وبين سمية، أنا من الذين يشعرون بالسعادة حين لا يتم أي فعل يغضب الله، شعرت بالامتنان لآلامي التي منعتني من ارتكاب الذنب، ربما لأني مستعدٌ لارتكاب ذنب آخر ، لم يخطر على بالي في بادئ الأمر ولكن الفكرة لمعت بجنون في خيالي، رفعت قطعة القماش والقلم، ونظرت لهم بعمق، أليست هذه هي متعلقاته الشخصية، أليس هو من تعمّد إهانتي وإذلالي بل وصفعي على وجهي، هذه الإهانات لا بُدّ لها من ثأرٍ ما، لقد سمعت قبل من (أم زينهم) تقول لواحدة من زبوناتها:

"هاتيلي حاجة من أثره"

والأثر باللغة الشعبية هو الأثر أو ما يتلامس مع الإنسان من أشياء يملكها وحده، إذ إنها تحمل رائحته، بالطبع كانت أم زينهم تطلب "الأثر" لتقرأ عليه الرقية بالهداية والتحصين، إن أم زينهم لن تنفع في تحقيق مبتغاي، هناك أخرى تفعل ذلك ومشهور عنها القيام بمثل تلك الأعمال، نعم يا طلال الكلب لسوف أنتقم منك، ولكن مَن الذي أذهب له ليفعل ذلك؟ مممممم، كانت السيدة تعج بهؤلاء من يقومون بأعمال الشعوذة، ولكن هناك واحدة دارت عليها دوائر السمعة السوداء، إنها سيدة السحر والأعمال السفلية على سن ورمح، سميرة، نعم (سميرة شَيشَبَة) لم أتشرف برؤياها لكن سيرتها الحطنة وصلت لأنفي منذ شهور، كان الذهاب إلى عندها تهمة وجريمة يعايرون الناس به بعضهم بعضًا، قررت أن أسأل عن مكانها، أسأل مَنْ؟، أسأل مَنْ؟ أها .. إنها شادية جارتي معجم الأمثال هي من سترشدني إليها، أليست هي من يحضر لها ماء العنوسة ووقف الحال للأنسة أمل، أنا رأيتها بنفسي في مرة من المرات كانت ترش الماء في صمت وسرية وهي تمتم بكلام ما، عقدت العزم وانتهى الأمر وأمرتني سنواتي العشرين بالانتقام، وقررت الاستراحة ليومين حتى يهدأ ألمي وأستعيد قدرتي على المشي الطبيعي، وحتى تختفي تورمات جبهتي وشفتي.





سينما الشرق 1995

- هو فين العرض بتاع التيال؟

شعرت باضطراب في تصميمه عندما سرى ذاك الصوت في ظلمات العرض. صوتٌ مجلجلٌ يبوح بلواعج العدوانية والفضيحة في ظلام السينما . سحب مطواته وبات كطفل صغير اكتشفت أمه أنه من سرق من كيسها بعض الفضة، شعرت بارتعاشة قوية تسري في جسده النابض بالرغبة في الشذوذ، وما هي إلا لحظات حتى أتى ظلان ينقبان حثيثًا عنه، كنت أعرف ذاك الصوت المميّز لـ (عبلة سكسكة) تلك الفتوة العاتية التي يشيب لها ولدان حي السيدة بأكمله، تلقائيًا تراجعت لمقعد متوارٍ في الصف الأخير تاركًا ذلك المتحرش يواجه مصيره، لحظات وإضاءت الصالة لتكشف عن جسد عبلة المربوع وقرطيها اللذين يحدثان شخلخة تصم الآذان، إنها هي بلا شك أتت مكشرة عن أنيابها ومخالبها ومن الواضح من ذعره أنه اتت لأجله هو، حتى بات من المستحيل له الاختباء من سطوتها، بانت ملامحه لي فبدا كما لو كان لصًا اكتشفت سرقاته وسط زقاق من الفقراء، كان يرتعش بلا انقطاع وقد تقوقع في مقعد السينما منتظرًا لمصيره، إلى أن وصلت عبلة مع رجلين أحدهما هو الشاب الذي أرشدّني سلفًا ولم أعطِه بقشيشًا مع (سمكة) رضوان الجحيم هذا الذي أدخلني

من الشارع، كان العرق يلمع في جباههم كما يلمع الدهن على لحم الشواء، فضيحة متكاملة الأرجاء تلوح في أفق سينما الشرق ذات الدرجة الثالثة، تواريت بجزل وشماتة وأنا ألمح الجلاد وقد أتى لتنفيذ حكم الفضيحة فيمن كان يزمع التحرش بي قبل دقائق.

انتفض جسده وهو يتابع تقدمها منه كما تفعل الثعابين مع الجرذان:

- بتعمل إيه عندك يا كوارشي؟

لم يتحر الرجل جوابًا إلا العرق والتوتر.

- قاعد في وسط العيال بتعمل إيه يا سيد الرجالة؟

انعقد لسانه عن جملة كررها مرارًا.

- أنا قاعد في حالي يا سكسكة ومش معايا حد زي ما انتي شايفة.

فانطلق لسان (سكسكة) وهي تمسك بتلابيبه:

- سايب أكل عيشك وقاعد تدوّر على عيل من دور عيالك يا مفضوح.

كان الرجلان يحاولان فض المضاربة بين سكسكة وبعلها بكل ملل ورغبة شديدة في الخلاص فقد كان المعلم (سيد كوارشي) يجزل لهم العطاء من بقشيش ومأكولات في سبيل تسهيل اصطياد الشباب اليافع من رواد السينما من أمثال الهاربين من المدارس الثانوية والعاطلين وأبناء الشوارع. من الواضح أن سمعة الرجل تسبقه في هذا الميدان الخرب من الممارسات الشاذة، تواريت أكثر حتى لا تشملني نيران (سكسكة) التي بدت هائجة شديدة المراس حيال ميول زوجها الشاذة، بالتأكيد هو المعلم سيد كوارشي بتاع العيال كما أخبرتني حبيبتي أم زينهم، جرّت (سكسكة) الرجل من قفاه فاستجاب لها صاغرًا وكأن الأمر اعتياديُّ الحدوث، توريت أكثر حتى لا تكتشفني (سكسكة) وتصير الفضيحة مزدوجة بلا داع، واكتيفت بالتشفي السلبي في ذلك الفيروس الذي حاول قبل قليل تلطيخي بالعار، يا الله كم هذا قبيحًا، تابعتُ (حمام الملاطيلي) بلا حماس وقد ذهبت عني كل إثارة في متابعة أبطاله وأنا

أتذكر كيف سيق المعلم كوارشي تحت نير زوجته العاتية (عبلة سكسكة) كما يساق الخروف للمسلخ، نعم هو ذلك الرجل الذي تنبأت بالإفراج عنه قبل أسبوع، يا لها من مصادفة، واكتفيت من الرغبة في عقابه وفضحه بأن له تلك الزوجة المتنمرة الشرسة شديدة البأس، بل وحمدت الله أنها جاءت فعليًا في الوقت المناسب.

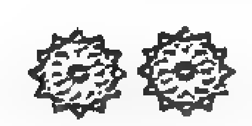
- بالشفا يا ابن الكلب يا بتاع العيال.

واصلت المتابعة فشعرت بشخص آخر يجلس لجواري، فأزمعت الهجوم المباشر والتفت له وقبل أن أقول شيئًا:

- أنا حمادة يا عم تامر.

كانت رائحة الكحول تفوح من فمه، عرفته على الفور أنه الأخ الأصغر لوليد جاري تاجر المخدرات.

- كوارشي مش هيسيبك أنا عارفه كويس.



طشت ووابور جاز

إنه الشتاء القارس، حان الآن وقت الاستحمام، الساعة تقترب من العاشرة مساءً، في الحقيقة كان استحمامي بمثابة عملية شديدة التعقيد، فشقتي بلا سخان أو حتى موقد للغاز فقط هناك وابور الجاز اللاهب، أعدت تعميره بالكيروسين كالمتخصصين فأنا ماهر في استخدامه لأبعد الحدود، رفعت عليه صفيحة المياه، ثم وضعت طشت الغسيل النحاسي إلى جانبه وذهبت لأفتش عن ملابس داخلية نظيفة من بين ملابسي المتكومة في صندوق من الورق المقوي بجانب الفراش، وحمدت الله أنني وجدت سروالاً وفانلة بيضاء نظيفين، صحيح أنهم يتسمون باللون الرمادي بسبب جهلي المطبق في طريقة تنظيف الملابس البيضاء إلا أنهم نظيفون على أية حالٍ، ألقيتهم على الفراش وخلعت كل ملابسي وأنا أشعر بإبر البرد تنغرس في لحمي، وخطفت منشفتي وجريت مسرعًا للحمّام، ودلفت بسرعة له حيث الدفء المعبق ببخار الكيروسين، إنه شعورٌ مُحبّب لمن لا يعرفه، فوابور الجاز يرسل صوتًا دافئًا مُحبّبًا للكثيرين ناهيك عن إشعاعه الذي يغلف المكان بالدفء الحميم، أخذت منها كمية بالكوز البلاستيكي وصببتها في الطشت الواسع وزودتها بالمياه الباردة من الصنبور ثم جلست في الطشت والذي يعتبر بمثابة حوضٍ للاستحمام وبديلٍ عن البانيو المتعارف عليه، يا الله إن المياه ساخنة رائعة، جلست متربعًا في مركزه وفركت الصابونة باللوفة الخشنة وشرعت في فرك جلدي ووجهي وتحت إبطي.. إن الاستحمام في الشتاء له

طقوس يجعله في الغالب نادرًا، في الحقيقة كنت أستحم مرة واحدة في الأسبوع اتقاءً لنزلة برد قد تدمرني، أجواء حمامي الدافئة وصوت الوابور كانوا خير أليس لي، كان صوتي يعلو بالغناء الممزوج بصوت الوابور الهادر "طول عمري بقول آآآه لا أنا قد الشوق وليالي الشوق ولا قلبي أد عذابه عذابه تارارارا وقابلتك انت لاقيتك بتغير كل حياتي".. إنها رائعة أم كلثوم سيرة الحب، كان صدى صوتي يتوه في صوت الوابور النفاس ويعطيني طربًا مُضاعَفًا، لم يكن لباب حمامي أي مزلاج، فلا حاجة لمن يعيش وحيدًا أصلاً لمزلاج، كل من يعيشون وحيدين يتركون باب الحمّام مفتوحا أصلاً وهم بداخله ولكنني أغلقته فقط اتقاءً للبرد عن طريق حشر طرف المنشفة بين الباب وإطاره "من همسة حب لاقيتني بحب تارارارا رارا لاقيتني بحب وادوب في الحب تارارا أدوب في الحب صبح وليل، وليييييل على بابه". يا سلام يا ست على كلامك باحط التكاليف، اندمجت كليًا في الدعك والفرك والتحسس على جسدي المبتل بالرغوة، كانت عيناي مغلقتين بفعل الصابون وكانت حواسي كلها مركزة في عملية التنظيف النادرة الحدوث ، دفء وصابون وأنا وسيرة الحب.. إمممم لا لن أحكي لكم يا قليلي الأدب فانتم تعرفون هذا الانفراد الذيذ بينك وبين نفسك، لم أنتبه لكون باب الحمّام يُدفَع بهدوء، شعرت بهبة هواء باردة تملس على جسدي، مددت يدي للكوب الذي أصُب به الماء على جسدي، لم يَدُر بخاطري أن هناك مَن يدفع الباب ظننت أنه قد فُتِحَ من تلقاء نفسه، وقفت لأهيل الماء على رأسي حتى أفتح عينيّ وأعيد غلق ذلك الباب اللعين، وما إن صببْت الماء وأزحت الرغوة عن وجهي وفتحت عينيّ لتنهال عليّ مفاجأة سميكة الدهن غامقة السمرة وجسد عار مفلطح لامرأة لم أتبين ملامحها من الوهلة الأولى، إن مشاهدة الجسد العاري لأي شخص تعرفه سلفًا لأمر مختلف عما تراه عادة وهو مرتديها، كانت عبلة سكسكة بشحمها ولحمها وشراستها ورغبتها غير الخافية عليها تقف عارية تمامًا تبتسم لتظهر أسنانها الفضية في ابتسامة افتراس مضمونة، جلفت بصدمة وصُعقت تمامًا من المفاجأة، كيف دخلتِ لشقتي

وماذا تريدين أيتها ال... وقبل أن أتخذ أية ردة فعل، اندفعت تحتضني وهي تضع يدها على فمي لتمنع أي زعيق يصدر مني، التحم الجسدان لأجد نفسي في أحضانها العريضة ونهديها الشبيهين ببطيختين وبطنها المدلي على فخذيها السمينتين ، لالا ابتعدي أرجوك، كان جسدي مشبعًا برغوة الصابون الزلقة، كانت تخور كالجاموسة وتفور بهياج لم أتصوره، همدت مقاومتي وحل مكانها ارتعاشة خوف، بينما هي تعبث بيديها هنا وهناك، لا لا يا سكسكة هذا عيب عيب، أبعدت يدها عن فمي وهي تنظر لي كأنها تمارس تنويمًا مغناطيسيًا، وقبل أن أقول شيئًا تهاوتْ على شفتيّ بقُبلة مبتلة وأرسلت بلسانها لتجويف فمي.. لتؤكد أنه لا مناص من الهرب وأنه لا بُدّ وأن.. استجاب جسدي رغمًا عن أنف رفضي لها، إن للنساء ملمسًا مغايرًا حتمًا لملمسنا الذي تعودنا عليه، إنها القطب الآخر في الحياة.. وبمجرد تلامُس القطبين تحدث شرارة التفاعل، غصت أكثر فيها وأغمضت عيني فهذا الوجه لن يركب على الملمس الذي أشعر به الآن، وتذكرت عبارة قالها وليد يومًا عن النساء القبيحات (ولا يهمك خبي الوش وادي في العش) أي تجاهل الوجه وخليك في المضمون الأصلي والهدف النهائي، ما هذا لماذا تصلبتِ يا سكسكة هكذا مال جسدك آخذ في البرودة شيئًا فشيئًا، شعرت أنني أدفعَ بجسدي في مرتبة قطن بلا استجابة حقيقية ، فتحت عينيّ لأجد سكسكة قد شخصت ببصرها للأمام، سكسكة يا سكسكة ، جعلت أتفرس في وجهها الذي ازداد شناعة بينما بدت كميّتة وقد فغرت فاها عن خواء وأخذت تتنفس بصعوبة، كان جسدها الشحيم يحجز الباب بينما هي متصلبة كتمثالٍ من رخام تشهق بصعوبة، حولت زحزحتها والقلق يعتريني فبدت جامدة لا تتزحزح، كانت تشخص ببصرها للأمام طوال الوقت، فحاولت مرة أخرى بعنف فأهتاجت ودفعتني للحائط وضربت الوابور بقدميها وهي تزوم كالنمر الجريح فانسكب الماء الساخن من الصفيحة على فخذيها وما بينهم فأصدرت شخيرًا متواصلاً ثم سكتت وهي تنظر لساقيها الملسوقتين وتطلق صراخًا عاتيًا اهتزت له أرجاء حمامي المتهالك.



شادية

السيدة زينب 1995

عزمت على سؤال جارتي شادية بطريق الابتزاز، فهي لن تخبرني وقد تفضحني فقط لمجرد سؤالها عن هذه الساحرة، سمعت اعترافها لزوجها بأنها تذهب لسميرة، ولكن أين هي سميرة الجن والعفاريت هذه ؟ نزلت الدرج ففتح باب الطابق عن وجه سمية، تلاقت أعيننا فلمع وميض القُبَل والاعتصار الذي فعلناه، هربت بعينيّ منها وواصلت الهبوط فقبضت على ذراعي المسك بالترابزين الخشبي للدرج فتوقفت وأنا أعاود النظر لوجهها الممتقع بالخزي والقلق، لم تعرف أنني أكثر قلقًا منها.

- إحنا هنفضل اخوات يا تامر.. مش كده؟

كان وجهها يحمل تعبيرًا غير الذي رأيته أمس الأول، يحمل ملامح الصداقة والرجاء بنسيان ما حدث، مرت لحظة صمت شعرت خلالها بارتياح كبير وأنني أزلت صخرة من على صدري، كنت أخشى أن ما حدث مجرد بداية لعلاقة لن أعرف مداها إلا بعد أن أرى مطواة وليد مرشوقة في بطني وسيكون له كل الحق فهي مهما كانت زوجته، كما أنني لست هذا النذل الذي يقيم علاقة مع امرأة يعرف زوجها هذا ليس من أخلاقي فقد أرتمي بأحضان امرأة لا أعرف عنها سوى جسدها أما أن أعرف زوجها الذي هو جاري وأن مستقبلنا سيكون ممارسة الحرام على بُعد خطوات

منه فكان هذا شيء لا يطاق ولا أرتضيه على نفسي، هززت رأسي واستعدت مرحي السابق معها وأنا أقول:

- شكلك واخد علقة سُقع النهارده.

فابتسمت وهزت رأسها بالموافقة وقالت:

- أنا خليته يضربني عشان يبقى تخليص ذنوب.

ابتسمت وتابعت النزول سعيدًا بأنها قبلت أن تُضرب طواعية حتى تتخلص من إحساس خيانته، جميل أن يختار الإنسان عقابه بيده، ويصلح نفسه بألمه الخاص، أعتقد أنها طريقة تريح الضمير وتسكن آلامه، أنا خنتك فسمحت لك بإذلالي وضربي وأنت لا تعرفْ أنني أدفع لك حساب الخيانة بشكل مباشر، يا له من منطق يبدو جذابًا وبعيدًا عن أهوال الانتقام التي قد يفعلها بك الآخرون.. اتركوني أعاقب نفسي بنفسي وهذا كافٍ جدًّا.

توقفت أمام باب شادية ووالحة براز دجاجها يتمزج مع رائحة الطبيخ الخارج من مطبخها ثم مع رائحتها هي شخصيًا وقد فتحت الباب ويدها غارقة في الرغوة البيضاء، نظرت لي بقرف وهي لا تتوقع خيرًا مع أنها المرة الأولى التي أطرق باب شقتها.

- صباح الخير يا أبلة شادية.

- يا أخويا نص وشك عينين، إنت مابتشوفش.

تظاهرت بنفاد الصبر أنا اقول:

- يادي اليوم اللي مش فايت اصطبحنا ع الصبح مالك بس يا أبلة؟

- أبلة في عينك ده أنا قدك يا هلف.

نظرت لبدانته الهائلة وعجيزتها التي يقف عليها السباع ولم أستوعب كلامها.

- قدي إزاي يا أبلة .ده أنا عندي عشرين سنة وانتي عندك 7عيال.

فصححت كلامي وهي تتمسك بكلامها:

- أنا عندي 24 سنة.

أعدت النظر لجلبابها وقمطة رأسها وحولها الخفيف، إنها فعلاً تتمتع بوجه طفل فرس النهر، غادرتني للداخل وأتت ببطاقتها الشخصية.

- بص شوف أنا مواليد 70 وإنت ماتختشيش على دمك وتقولي أبلة.. من يوم ما جيتكم يا ولادي لا كلت لقمة ولا مضغت لبانة ولا نمت في حضن جوزي عريانة.

فعلاً تاريخ الميلاد يشير لسنة سبعين أي إنها في الخامسة والعشرين تقريبًا.. تقول شادية بأنها تزوجت من محمود النمس في الرابعة عشر من عمرها، كان هذه الزيجات عادية جدًا في الأرياف، دفعت بها أمها لأحضان الرجل مقابل ورقة زواج لتغادر بلدتها الخضراء وطفولتها القريبة لتعلق في زواج خصيب، الحقيقة أن شادية سيدة منتجة تراكم الشحم الجديد على شحمها الأصلي لتعيش في دور يكبرها بعشرين عامًا.فغمزت لها بعيني في محاولة لترسيم أجواء الألفة

- طيب أقوللك إيه؟.. يا شوشو؟

ابتسمت لأول مرة في تاريخها ولانت ملامحها وهي تدعوني للدخول فما وجدت حرجًا وخصوصًا أن أولادها بالكامل موجودون في الشقة كنت أسمع صوتهم من الخارج، تراجعت للداخل ودخلت وراءها تاركين الباب مفتوحًا، وجلست على أول أريكة صادفتني بجانب الباب، لم تكن شقتها من النوع النظيف المرتب كما شقة أم زينهم، بل هي مكدسة بكل شيء لدرجة أنك لا تجد مكانًا واحدًا يصلح للجلوس بطريقة مريحة ففي منتصف الصالة قامت مائدة كبيرة حولها كراسي قديمة من الخوص، وعلى هذه المقاعد جلس أولادها الذين كنت أراهم يحملون شبهًا واحدًا، كل واحد ماسكٌ كتبه ويكتب واجباته المنزلية بكل الدماج بينما آخر يُسَمِّع ما حفظه من نصوص، وأخرى تحل مسائل حسابية في دفترها المغلف باللون البني، سبعة أطفال أقلهم يبلغ الأربعة أعوام كلهم يستذكرون دروسهم في صمتٍ وطاعة

وكان أمهم لم تستقبل غريبًا للتو، اكتفوا فقط برفع عيونهم لبرهة ثم عادة ليكملوا ما يفعلونه من استذكار للدروس، عقدت الدهشة لساني وأنا أرى على يساري شادية تقوم بغسيل جبلٍ من الملابس في تلك الغسالة الأسطوانية الزرقاء والمنتشرة في ذلك الحين في نفس الوقت كانت تطهو شيئًا في قدرٍ كبيرِ الحجم على وابور الجاز الموضوع على باب المطبخ، الحقيقة لم أشعر سوى بالاحترام لها، فها هي تحكم بيتها بالحديد والنار وتربي أولادها على الطاعة وأن أهمّ شيء هو الأدب والدراسة. كان أولادها بيض البشرة مثلها يحملون جمال أهل الريف وتناسقهم فعلاً، إن اهل الريف تظهر عليهم مخايل الصحة والتأسيس الغذائي الجيد، وبالرغم مما يشعرون به من اضطهاد من أهالي المدن إلا أنهم يسعون دومًا بلا كلل نحو التطور والارتقاء.

- وعاملالي فيها ست الحاجة وكل شوية ترقعينا مثَل.

لوحت لي بكفيها المغلفين برغوة الغسيل، وهي تردد مثلاً آخر:

- أم الأعمى أدرى برقاده.

- يا ستي بطلي الطلاسم دي وكلميني عربي أمال فين ابنك التاني؟

ضحكت بخجل:

- ده لسه نونو بيرضع.

- بس كده كتير يا شوشو.

ففردت أصابعها بالرغوة وخمست في وجهي خمسات متالية وهي تقول:

- خمسة في عينك على رأي المثل حِبلة ومرضِعة وجايبة أربعة في أربعة.

- طيب.

ناولتني كوبًا من الأرز بالحليب صبته من القدر العملاق، كان ساخنًا جدًا فوضعته على مائدة المذاكرة وأنا أقترب منها هامسًا كيلا لا يسمعنا الأبناء.

- بقوللك إيه أنا عاوز عنوان سميرة.

- سميرة؟

- أيوه سميرة شبشب.

فظهرت علامات الدهشة على وجهها:

- عاوز تروح لسميرة شبشبة ليه يا أفندي يا متعلم؟

تصعنتُ الغضب حتى لا تزيد في إذلالي:

- وانتي مالك ما أنا عارف إنك بتروحيلها وإنك انتي اللي بترمي الميه على عتبة أم زينهم.

اختلج وجهها بالتوتر ونظرت تلقائيًا لاطفالها خشية أن يسمع أحد منهم كلامي.. ولم تُعلّق..

- يلّا قوليلي خليني أخرج من المدرسة دي.

اغرورقت عيناها بالدموع فجأة وقالت بأسى:

- يعني أسيبه يتجوزها وهي أكبر مني.؟

ثم أشارت لأطفالها وهي تتابع:

- ودول أعمل فيهم إيه؟ أسلقهم وأعمل عليهم ملوخية؟!

بدا منطقها سليم فهي مكبوتة كليةً بتربية أطفالها والحقيقة أنها حازمة، أحسنت تربيتهم فعلاً، بالرغم من كونها جاهلة لم تتلقّ إلا النذر اليسير من التعليم إلا أنها تخطط لنفسها بطريقتها وتستعير الأمثال الريفية لتكون لها معينًا على تدبر أمرها في المواقف المختلفة، لم تكن حياتها سهلة أبدًا فتولّد لدي نوع عجيب من التعاطف معها فرققت لهجتي وأنا أرجوها:

- معلش بقى يا شوشو قوليلي فين سميرة شبشبة دي وأنا مش هفتح بُؤي لأي حد بالسر.

تنهدت واستعادت شيئًا من جأشها وصلابتها السابقة وهي ترفع إصبعها لأعلى في اتجاه السقف.

لم أفهم ما الذي تقصده، أتكون سميرة هذه ماتت وصعدت للسماء مثلًا؟ أم إنها تطير كالخفافيش في الجو.

- سميرة ساكنة في الدور اللي فوق.

لم أستوعب.

- فوق فين؟ اللي ساكن فوق وليد ومراته وأخوه.

هزت رأسها بابتسامة تنم عن غبائي أنا وهي تقول:

- سميرة تبقى ستهم أم أبوهم وهي قاعدة في الأوضة الجوانية مابتخرجش منها أبدًا

اندهشت تمامًا من تصريحها، فعلى مدار العام تقريبًا لم ألمح تلك السميرة ولم أسمع لها صوتًا على الإطلاق ولم يظهر على وليد بكل صخبه وعراكه أن ثمة عجوزًا تسكن معهم، شادية تقول إنها لا تغادر غرفتها أبدًا، غريب هذا جدًا جدًا، حقيقة كنت أشم بعض الروائح التي تشبه البخور وإن كانت كريهة خانقة لكنني وقتها توقعت أنها رائحة الخرابة الخلفية أو رائحة حريق القمامة التي يضرمها أهل الشارع من وقت لآخر، لكن أن تكون هذه الرائحة رائحة ساحرة فهذا عجيب، حتى سمية لم يرد على لسانها أي ذكر لتلك العجوز، أفقت من أفكاري على مثل يلعب على لسان شادية.

- ذي عامية وعارجة وكيعانها خارجة.

من الواضح أنها تكرهها ولكنها أيضًا تستعين بها.

- طب إنتي بتطلعي عندها إزاي؟

- بدّي خبر لسمية وهي بتقولّي أروح إمتى.

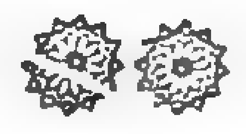
آه يا بنت الحرام يا (سمية) أتعملين أيضًا مساعدة لسميرة، حسنا جدًا جدًا، سأخبر (سمية) بأنني أريد مقابلة سميرة.

شكرت شادية وتمنيت لها من قلبي تحقيق أحلامها نظرًا لكم الكبت والفقر

والمغامرة التي تمارسها تلك المرأة في إدارة شئون حياتها بكل هذا الحزم وألقيت على الأطفال السلام فردوه بكل أدب وخرجت من شقتها وأنا أسمعها ترقع مثلاً جديدًا.

- اللي عنده جِنة يحنّي طيز حجشه.

وجدتني تلقائيًا أمسك بمؤخرتي بينما ضحك الأطفال من رد فعلي فابتسمت ولم أعلق حتى على الرابط بين مؤخرة الجحش وبين الحنة وبين مؤخرتي أنا وبين سميرة بتاعة الشباشب.



قارئ الفنجان

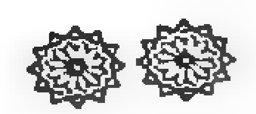
لم تكن قراءة الفنجان صنعة أتقنتها بل كانت بابًا خلفيًا يجلعني لا أتعرض لأي ضائقة مالية محتملة في حياتي المتقلبة ما بين دراستي ووظائفي العديدة التي درجت فيها كما تفعل الرغوة على قمة الأمواج، فأي عمل أقوم به لا يدوم لأكثر من شهرين ومن ثم كان لا بُدّ من الوفاء باحتياجاتي اليومية، تكونت صداقة عتيدة بيني وبين (سكسكة) إذ إنها كانت تجلب الزبونات لأقرأ لهن الطالع بموقعها الثابت في حارة الميضة خلف المسجد، تراءت لي أنواع وأشكال من النساء لم أكن على عِلمٍ تامٍ بوجودهن أصلاً، نفسيات متباينة مكبوتة بالقهر والشعور بالحسرة والضياع أو عدوانية تضرم النار في قلوبهن نتيجة غدر أو خيانة، إن للنساء عالمًا سريًا مترامي الأطراف ومهما كانت ثقافتهم بالجراح تبدو موحدة إلى حدٍّ كبيرٍ، رفضتُ بأن تأتي بهن لشقتي حتى لا تعرف أم زينهم بممارستي لصنعتها فتغضب مني أو ترى في شخصي قاطعًا لرزقها، في البداية رفضت ولكن أمام إلحاح (سكسكة) وإصرارها على أنني (مخاوي) فتح لي مجالاً لم أحسب له حسابًا، كنت دائم الرفض وكنت أفر منها ولكن في اللحظات التي تصادفني تصر على ممارسة القراءة، كان زبائني في الأول هم مِن جموع السرّيحة في الميدان من شحاذين وبائعي البخور والقلادات، ثم تطور الأمر لتصبح زبوناتي من طائفة النسوة الزائرات لضريح أم العواجز، واللاتي كن تصطادهن (سكسكة) وصبيانها لتأتي لي بهن فأمارس القراءة في مقهى منزوٍ في تفريعات السوق

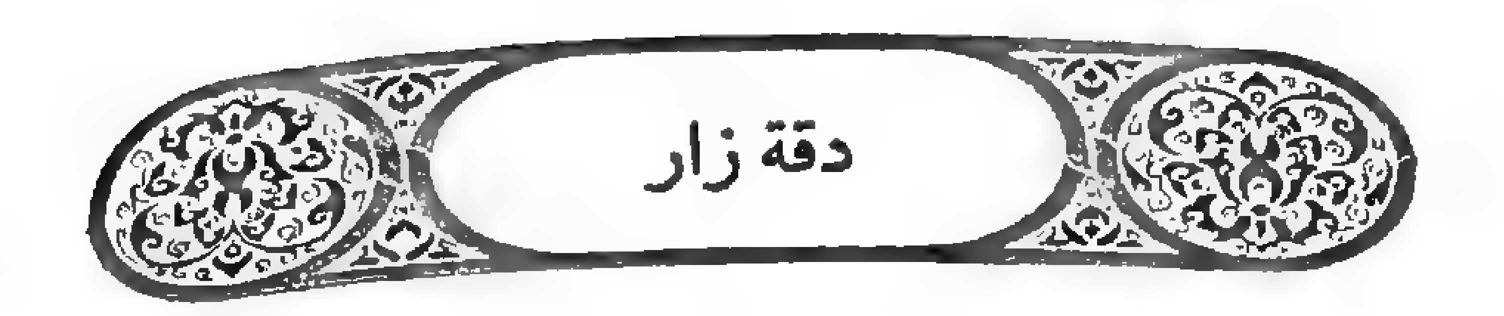
وارتفع سعر القراءة في بعض الأحايين لعشرين جنيهًا كاملة كانت تتقاسمها معي سكسكة في مقابل حمايتي من أي أعمال بلطجة قد أتعرّض لها، لم أشعر بشيء من القلق حيال تلك العلاقة إلى أن بدأت (سكسكة) في التقرب لي بطرق لم تُخفَ عليّ بل إنها أغدقت العطايا والخدمات والطعام اللذيذ، كنت أعرف أنها تهواني وبدا لي أن الأمر بيولوجي أكثر منه عاطفي كما تتزاوج الأرنبة الأم مع أبنهائها مثلاً، كنت أعرف أنه كلما انحدرت الثقافة والمستوى الاجتماعي أو كلما ارتفع كان لهم نصيب كبير من التفكك والإباحية، هي في مثل عُمر أمي وربما أكبر بالإضافة لبشاعة تكوينها فهي بمثابة رجل بالنسبة لي، كانت دومًا تشكو لي جحود زوجها وهجرانه لها وميوله الشاذة تجاه الصبية والشباب، كانت تمقته وتحبه في ذات الوقت فهو أبو عيالها وزوجها الفحل الجذاب في نظرها، كنت أحاول الموازنة بين لقمة العيش السهلة التي أجنيها من ورائها وبين رغبتها واهتمامها المرعب بالنسبة لي، كنت أفكر دومًا في كيفية الفرار منها حال ما تحاصرني برومانسيتها المفزعة، وأتجاهل كل مظاهر الود التي تغدقها عليّ، أخبرتها أن (الأسياد) يرفضون تلك العلاقة شكلاً وموضوعًا وهددوني إن لمستني تلك المرأة فسوف يسحبون امتيازاتهم مني، فهدأت قليلاً بعد هذا التهديد وإن بقيت الرغبة نفسها مشتعلة في شحمها الأسمر الوفير وشراستها المرعبة التي تظهر عليها في معاملة السريحة وبائعي البخور، بل كان ضُباط القسم أنفسهم يهَابون انتقامها فكانوا يتقربون لها بتحفظ، كانت دومًا تضع مطواة قاطعة في وسط ثدييها ولا تتورع عن فتحها في وجه من لا يروق لها من المحيطين، بل إنني شاهدتها يومًا تشق وجه أحدهم بسهولة، وتلقي عليه بمحاضرة بينما الرجل يمسك وجهه الدامي صارخًا:

- ده جزاء اللي يزعّل سكسكة يابن الشرمو...

كنت أفزع منها وأتخيلني وقد رسمت بعلامة ال111 التي تعشق حفرها على

جبين من لا ترضى عنه، بت أعيش في رعب من ناحية شراستها من جهة ومن ناحية غرامها من ناحية أخرى، لقد وضعت نفسي في مأزق لا فكاك منه إلا بالرحيل نهائيًا عن حي السيدة ومغادرة شقتي التي وضعت فيها شقى عمري.. هل تقترحون أي حلٍّ.. هل من مفر؟





السيدة زينب 1995

كان لصراخ سكسكة إثر انسكاب الماء الساخن على ساقيها أثر الزلزال في البيت، لقد أزحتها خارجًا لأرتدي أي شيء، أنا متأكد من الفاجعة ومن أن سكسكة لن يهمها سُمعتها وأنها قد تتمهني أنا بإحراقها، ناهيك عن الجيران ولسانهم في حقي أنا.

وفعلاً لم تمض الدقيقة حتى تكأكأ الجيران على باب شقتي والذي تركته سكسكة مفتوحًا ليجدنيَ الجيران شبه عارٍ وسكسكة تصرخ مسلوخة في حمامي، هرعت أبلة كريمة وشادية إلى الحمام لتصعقا فتبعتهما سمية التي أدركت الإصابة ولن تدرك الفضيحة نفسها.

- اتحرك يا بجم وجر الست معانا.

كانت هذه أبلة كريمة فلم أجد من بُدٌّ في سحبها للخارج بينما صرخت شادية وقد ظهر جسد (سكسَكة) عاريًا بالكامل.

- استرها يا تامر بأي حاجة.

فجريت للفراش ونزعت ملاءته عنه ورميتها على الجسد المنتفض بالصراخ المتواصل.

هرعت سمية للصنبور وملأت الكوز بالماء البارد وراحت تسكب على الحروق

الملتهبة وهو إجراءٌ سليم للغاية في حالة الحروق الناتجة عن الماء الساخن بينما (سكسكة) تبكي.

- آح آآآآآح الحقوني اتسلخت يا اختاااي يااللاهوييييي.

واصلَتْ سمية سكب الماء الفاتر ودخلت أنا لأتمم ملبسي وأنا في حالة من التوهان، ترى أيٌّ من الكوارث سوف يحل عليّ الآن؟

أنا لا ذنب لي في كل هذا، أنا لم أستدْعِها فقد هبطت عليّ كغيمة حامضية تحرق كل شيء. بالرغم من الصراخ وكلام النسوة في الخارج إلا أنني صرت منفصلاً كما لو كان الموقف لا يخصني من الأساس، يقول علماء النفس إنه هذا يسمى حيلة دفاعية تجعلك تحول الكوارث إلى صور بلا عمق حتى تحفظ عقلك من الخراب، عدت لهم فوجدتهم قد نقلوها للأريكة في الصالة بينما أبلة كريمة وشادية تحاولان إدخالها في ملابسها المتكومة في الصالة، لقد خلعت ملابسها عن سبق إصرار وترصد هذه اللبؤة المتوحشة، ولكن كيف أنجو من هذا الموقف.. كيف؟

اقتربت مني أبلة كريمة وفي عينيها نظرة عتاب قاسية جدًّا:

- روح شوف أي دكتور الولية مسلوخة من تحت.

تحركت ببطء ولم أنسَ أن أنظر لها باحتقار حتى أفوز عليها بأي نقطة تفوق، لم أجد سوى عم (خلدون) الحلاق لأستنجد به، العم (خلدون) بارع في الخدمات الطبية أيضًا؛ فهو يقوم بدور حلاق الصحة ويمارس الحقن والختان ونزع الضروس المسوسة للكثيرين من أبناء الحي بالرغم من اندثار تلك المهنة إلا أن الرجل يمارسها بكل كبرياء ويعتبر نفسه أمهَر من الأطباء وأن وصفاته العلاجية لا تنزل الأرض.. لم أتعامل معه طبيًّا وإن كنت أذهب له لحلاقة شعري وإن كانت قَصّاته لا تعجبني إطلاقًا ولكنه كان نظيفًا رخيصَ السعر بما يوازي قروشي، كان مثالاً للرجل الذي يحمل سنامًا على ظهره كالجمال كان هو نفسه كالجمل في تكوينه بطوله الفاره وسُمك جلده الأبيض ونظارته المقعرة التي تُظهِر عينيه كجرادة عملاقة، كنت أراه

يأتي لأم زيتهم ليحقنها بالفيتامينات، طرقت بابه فظهر لي من الطابق الثاني، وقد بان عليه التأفف

- عم خلدون.. فيه واحدة اتدلق على وركها مية سخنة.

- فين بالظبط؟

تملكني الحرج فلم أرد.

- مش عارف اتفضل إنت عشان تعرف.

- طيب استناني أنا نازلك.

جئت أخيرًا بالعم خلدون، كان رجلاً متبخترًا بمعنى كلمة التبختر، يشعرك أن الحياة عبارة عن شريط سينمائي بطيء، فهو يتحرك بتؤدة كالجمل فعلاً، تفاجأ بأن المصابة هي عبلة سكسكة فائقة الشهرة فاهتز وهو يقترب منها:

- سلامتك يا سكسكة.. وريني كده.

شلحت شادية جلبابها عنها ليظهر الحرق نابضًا بالألم.

- إلحقني يا (خلدون) زرزوري قايد نار !!!!!!!آح.

كان الحرق كبيرًا وقد بدأ يأخذ شكل فقاقيع، فدهنه خلدون بمس أسود وحقن مؤخرتها بمسكّن وطالبها بألا تُغطي الحرق بتاتًا.. أي لا بُدّ من بقاء سكسكة مشلحة طوال الوقت، انصرف الرجل وطالب بعشرة جنيهات كاملة فأعطيته وأنا أشكره فوعدني بزيارة تالية لها على سبيل المتابعة وقبل أن يهبط الدرج نظر لي بدهشة قائلاً:

- معقول ده ..إنت.. وسكسكة؟

كانت سكسكة في وضع بالغ الإحراج ولكنها لم تولِ ذلك أدق اهتمام بل إنني لاحظت أنها تأمر شادية وأبلة كريمة فيطعانها، اقتربت منها وقلت لها بلهجة عتاب مركزة:

- عاجبك كده اللي حصل!؟

كانت تحاول الهروب من نظراتي بخجل، يا ربي إنها تعرف الخجل، كانت تطرق برأسها للأرض وهي تتلقى التقريع مني، وقبل أن أنهض أمسكت برسغي قائلة:

- ولا مؤاخذة معلش، حقك عليّا، أنا اللي شيلت الذنب لوحدي.

نظرت لها بشفقة ولم يعترِ قلبي سوى الأسف على حروقها اللاسعة. فأردفت:

- هي اللي خلتني ارفس المية برجلي.

- هي مين؟

- هي.. أنا لاقيتها واقفة قدامي وعينيها بتطلق شرار.

- تقصدي ...

فقاطعتني بصرخة:

- نادية.

نظرت لها مليّاً وأنا أحتل عقلها:

- يبقى إنتي كده ملبوسة يا سكسكة.

انتفضت المرأة بخوف وهي تدور بأصابعها المضمومة حول رأسها وكأنها ترقي نفسها:

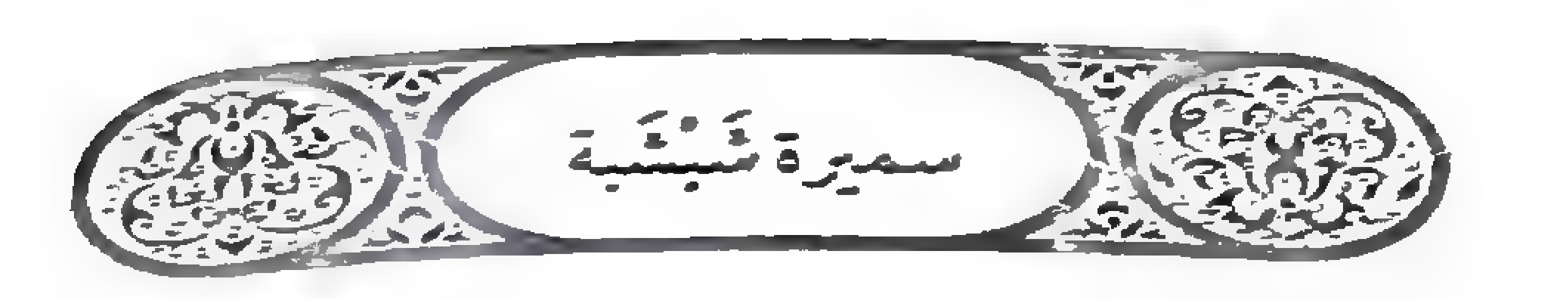
- حابس حابس.. برة وبعيد.

كان القلق الآن يحتل قلبها بدلاً من آلام الحرق، إن الناس يعتبرون أن الملبوس هو شخص محكوم عليه بالإعدام المؤجل، لا بُدّ أن نادية لم يعجبها الاغتصاب الذي أوشك على النفاذ فتجسدت لـ (سكسكة) من خلف ظهري.. إنك رائعة يا نادية تقومين بدور الملاك الحارس وتتدخلين وقت اللزوم.

- شور عليا يا اخويا.. أعمل إيه؟

كان هذا صوت سكسكة الذي خرج هذه المرة بقدرٍ كبيرٍ من الذل والألم.

- إنتي يلزمك زار يا سكسكة.



السيدة زينب 1995

إن كلمة شبشبة بالقطع آتية من اسم (شبشب) أي النعل، إذًا فهذا النوع من السحر مرتبطٌ مبدئيًا بالنعال أو الشباشب، الغريب أن هذا السحر يعتمد على (السجع) وكأنه يستحضر الشياطين والجن الذين يطربون للسجع وكلما كان سجعك للشبشبة سليمًا كلما كانت الاستجابة أسرع، تعد الشبشبة من أغلظ وأسوأ أنواع السحر الشعبي الضارب بجذوره في عمق التاريخ وصولاً للمصريين القدامى يعمل به في الغالب الأعم صنف النساء، من الواضح أنهن ضجرن من الشيوخ والمشعوذين فلجأن لطهي السحر في البيوت ، سيدتي لن ترهقي نفسك ومالك بالتعامل مع الدجالين فنحن نعلمك كيف تصنعين سحرك الخاص بنفسك أو بمساعدة المشبشبة (وهي التي تعمل بسحر الشبشبة) ولا تظنين أن العرض مجانيٌّ تمامًا فلا بُدّ من بعض الأدوات والأتعاب أيضًا، الأتعاب متمثلة في أقساط تدفعينها للمشبشبة طالما أن السحر يعمل وفي حال توقُّفتي عن دفع الأقساط يسقط السحر عن صاحبه أو ينقلب عليك، ويعود لما كان عليه وأسوأ، ولا بُدّ لكِ من بعض الأدوات؛ أولا المرحاض، المرحاض هنا ليس لقضاء حاجتك فقط ولكنه أيضًا مكان للتخزين وتفعيل سحرك، وبالطبع لا بُدّ أن تحتفظي بالنعال والشباشب القديمة لزوم الشبشبة، والطريقة

مهمة جدًا سوف تترك لك الحاجة (سعيدة شيشة) أشهر مشيشيات السيدة زينب في تحشيشاته ولا يخفى عليك يا صديقي أن الشيشة فتح سوء لسمعة بما لا يحقق وأن فضيحة الشيشة والذين يلجأون لها تعني خراب سمعتهم وتحميلهم كل الذنوب والكوارث الآتية في الطريق، لم تكن (الحاجة سعيدة) ولا أعرف لماذا يصر المصريون على إطلاق لقب (حاج أو حاجة) على كل الطاعنين في السن حتى لو راقصة كبيرة بالعمر أو قواداً كمتقاعدنا يقال لهم يا حاج(ة)، وهكذا الآن مع ساحرة عجوز ساحرة سفلية بطعم الكشري والشقة الحارة ، أما سعيدة الشهيرة بسعيدة شيشة تعيش وحدها في غرفتين متلاصقتين ملحق بهما مرحاض أرضي قذر تم توصيله بطريقة بدائية للمكان، فكما قلنا إن المرحاض أداة ضرورية في الشيشة وقفت أمام باب وليد وطرقته ليرن صوت الطرقات موحيًا بأن المكان شبه فارغ من الموبيليا بالإضافة لكبر مساحة الشقة التي تتكون من أربع غرف كبيرة ، فتح الباب وليد نفسه، نظر لي بدهشة فأنا آخر واحد من المتوقع أن أدق بابه، ألقيت عليه السلام فلم يرد إلا بعد نصف دقيقة، أها من الواضح يا جاري أنك أثقلت في العيار اليوم، فمتعاطو المخدرات تكون استجابتهم بطيئة وكأنك نقلت شريط الفيلم على العرض البطيء، كان يلبس ملابسه الداخلية فقط وقد بان أنها واسعة عليه لدرجة الكوميديا حتى إن كل شيء فيه ظاهر بمنتهى الطلاقة، تراجعت محرجًا من مظهره غير اللائق أبدًا بينما هرش هو في قفاه واقترب مني خارجًا للدرج وهو يتكلم بصوت بطيء متماوج:

- أهلا يا زميلي ، عاوز حاجة؟

الغريب أن وليد يملك مسحة أرستقراطية في ملامحه حتى تكوينه الدقيق وملامحه يحملان شيئًا من الترف القديم ، كان يبدو كحذاءٍ أصلي تُرك في العراء والشمس والتراب، فاهترأ الحذاء ولكن بقيت تفاصيل وموديله ينبئان عن ماركته الغالية.

ارتبكت قبل أن أتقدم له بخطوة لأضمن أن يسمع دون أن أضطر لرفع صوتي:

- عاوز أقابل الحاجة.

- حاجة مين ولامؤاخذة؟

- الحاجة سميرة.

شعرت أنه استفاق فجأة من غيومه وتصلّب للحظات قبل أن يردف:

- الحاجة مش هنا.. خرجت.

غمزت له بعيني بحركات مَن يعرف بواطن الأمور.

- الحاجة مابتخرجش من أوضتها يا وليد أبدًا.

هرش في فخذه طويلاً وهو يزن أموره غير الموزونة أصلاً ثم تركني وهو ينادي على زوجته سمية:

- بت يا سمية إنتي يا بنت العايبة.. تعالي شوفي الزبون

(زبون)..؟ شعرت بالإهانة من الكلمة؛ فأنا جاره على أقل تقدير وكلمة زبون تعني معاملة أخرى، لكن لا بأس أنا أفضل الرسميات لأنها مريحة ومحدّدة.

هرعت سكية لعندي ممتقعة الوجه لدرجة أن وجهها بان كصفحة بيضاء:

- أيوه يا تامر فيه حاجة؟

فأجبتها بثبات:

- سلامتك.. أنا عاوز أقابل الحاجّة سميرة.

نظرت لي باندهاش أكبر ولكن لم تسألني عن السبب، فالسبب معروف؛ مَن يريد مقابلة سميرة فهو يريد شيئًا تفعلّه سميرة وهو الشّبشة، تظاهرت بنفاد الصبر فأنا حاليًا زبون يطلب خدمات جدتهم مدفوعة الأجر.

- ممكن ولا مش ممكن؟

توترت سمية وهي تلتفت وراءها وهمست:

- عاوزها ف إيه؟

اعترضت على فضولها قائلاً في هدوء ورزانة لا تمتّ لي بصلة:

- حاجات خاصة لو سمحتي بلغيها إني عاوزها.

فابتسمت وقد استنتجت أنني خامّ تمامًا ولا أصلح لخداع صرصار.

- هيا مش بتقابل حد الا بميعاد وهيا اللي بتحدده.

ضقت ذرعا بهذا البروتوكول لمقابلة شمطاء لا أكثر وشعرت بالاستهانة والرغبة في السخرية ولكنني أخفيت كل هذا وتكلمت برسمية.

- طب حضرتك ممكن تبلغيها إني عاوز ميعاد؟

- طب الموضع عشان إيه؟

غضبت وأنا أرده مرة ثانية:

- بقولك دي خصوصيات.

ارتسم العناد على محياها وهي تجيب بصرامة وعملية:

- أنا قصدي عاوز نوع إيه عاوز جلب ولا تهييج ولا ربط ولا.. إيه؟

ما شاء الله من الواضح إنها تخصصات. كنت أول مرة أسمع عن هذه الأشياء؛ فأنا من بيئة متحفظة لا تعرف سوى أن السحر شر وأن إرادة الله فوق كل شيء. ولكن من قال إنني كنت كما الآن. كنت مجرد شاب يريد تحقيق انتقام لن يستطيع تنفيذه بيديه العاريتين. ولكن كيف أصنف ما أريده إن كان جلبًا أو تهييجًا أو.. وبحثت عن مصطلح مناسب حتى قلت:

- أنا عاوز عمل (تأديب).

- تأديب؟ أنا اول مرة أسمع عن التأديب ده.

ثم ظهر عليها التردد:

- ولا أقولك أنا هدخل أسالها يمكن فيه وأنا ما أعرفش. اتفضل ادخل.

وغابت عني كأنها غطست في الماء الراكد فدخلت الشقة مدفوعًا بالحماس، شقة واسعة خالية تقريبًا من الأثاث، الصالة خالية إلا من أريكة بلدية متهالكة وأمامها مائدة أقدم منها عليها بقايا الإفطار المكون من صينية الفول والطرشي والبصل التي يرسلها لها العم ربيع بائع الفول كل صباح، جلست ببطء على الأريكة خوفًا من تكسيرها تحت وزني ولكنها استقبلتني بمتانة لم أتصورها، في حين عاد إليّ وليد وفي يديه سيجارة من الواضح أنها ملفوفة يدويًا وحجمها أكبر من المعتاد، أشعلها فانبعثت رائحة مريحة قوامها الحشيش وجلس إلى جانبي إلى حدّ الالتصاق ورفع ساقيه ليقرب قدمه ويعبث في أصابعه وهو يشير لي بالسيجارة:

- ده ملبن يا أسطى.. ملبن اسمه صدام.

وناولني طرف السيجارة بأطراف أصابعه وبطريقة احترافية.

- أنا بعمل معاك واجب عشان إنت أول مرة تشرفني.

أبعدت يديه بلطف بينما هو مُصِرٌ على إدخال مبسم السيجارة في فمي وهو مندهش من رفضي.

- أنا محدش يقدر يقولي لأ.

كان تركيزي مع زوجته التي دخلت لطرقة جانبية ودقت الباب لثلاث مرات متتالية قبل أن تغيب تمامًا، كان الفضول ينهش قفاي وأنا أنتظر في حين أن وليد كان يقوم معي بالواجب وبين ثانية وأخرى يوجّه طرف السيجارة إلى حيث شفتي مرات مرات وأنا مستمر بالرفض حتى ضجر مني.

- طب أبعت الواد أحمد يجيبلك واحدة كراش ولا سفن أب؟

- لا شكرًا يا وليد.

فجأة ينفجر وليد ويسحب مطواته ويشهرها في وجهي وهو يتكلم بنفس الطريقة الغائمة:

- إنت شايف نفسك على إيه! بالراحة يا اسطى كلها بتكح اسمنت.

نظرت له وابتسمت، لم أجده منفرًا إلى هذا الحد بل هو لطيف وخفيف الظل لدرجة كبيرة، كنت أحسبه غارقًا في السباب طيلة النهار، ضحكت على طريقة كلامه فلم يبالِ، فعلاً تعيس بل هو شاب مسكين من تجبره الظروف على حياة اللا مستقبل، فتجارة المخدرات ليست مستقبلاً خصوصًا وهو على درجة فقيرة جدًا منها بالكاد يجلي مزاجه ولقيماته منها، ومن السهل اصطياده بل هو شهير لدرجة أن الجميع يعرف أن هذا الشاب هو تاجر حشيش وحبوب مُخدِّرة، وأن المباحث تعرف وتتركه لـ (ياكل عيش) نظير إرشادهم عن آخرين، دور المرشد الذي انتشر في التسعينيات لدرجة أن الدولة كلها تحوّلت لمرشدين سريين، فالكل يعرف أن المحيط به مرشدون عنهم فيفضحونهم بأن يقولوا عنه مرشدًا لإرشادهم عليه وكل من قام بفضح الرجل هو مرشد أيضًا.. لماذا؟ لأنه عرف حقيقة أن هذا الشخص مرشد من الكنترول إذًا فهو مرشد مثله، دائرة نفسية لا تنتهي كانت تسري في المجتمع، فالبقال يتهم جاره البقال في أنه أرشد مباحث التموين عنهم، والحرامي يتهم زميله بأنه هو من أرشد عنه رجال البماحث، ورجال الأعمال يقولون نفس الشيء؛ هناك من أرشد عنهم، كانت كلمة مرشد تعتبر سُبّة توازي النيل من الرجولة أو السمعة باعتبار أنه ذبابة تنقل المرض من وسخ لوسخ آخر.

كان وليد يقوم بدور المرشد؛ يرشد عن منابع الحشيش في المنطقة مثلاً فيتركه ضباط المكافحة يعيش لبضع اسابيع ، ولكن إن تأخر أو فاتته إخبارهم ينقلبون عليه كما تنقلب الأسياد على الجسد، يهجمون على الشقة كالجراد فعلاً كالجراد ويكبلون وليد بالأصفاد ويجرجونه على البوكس في فضيحة بجلاجل لا يقدِر عليها أحد، الغريب أنه مع تكرار الأمر بدا الموضوع مملاً، إنه نفس السيناريو يكبلونه ويتعمدون إحداث أكبر ضوضاء وكأنهم يمثلون مشهد طُلب منهم أن يكرروه ألف مرة، الغريب أنهم لا يفتشون المكان ولا يبحثون عن أحراز فهم يعرفون بئر وليد وغطاءه بل كانوا هم يحضرون الأحراز لينسبوها له في تهمة سابقة التجهيز معروف مفادها فيتغوط

وليد اللعبة جاهزة. أي إرشاد أي شخص ثم يعود ليضرب زوجته كل ليلة قبل أن يرتمي في أحضانها عاجزًا يبكي ويتمرغ بين نهديها صارخا باللذة والعذاب. الحقيقة أنني عاشرت الكثير من الحشاشين في حياتي ولم أجد منهم ما يخيفني- أو يجعلني أتحفظ؛ فهم ضاحكون مستهزئون بعض الشيء مفروض عليهم الاسترخاء هاربون بمحض إرادتهم من واقع لا يورثهم إلا الشقاء والإحباط. لماذ نجرمهم؟ إن الحشيش مرخص به في هولندا وغيرها من الدول ، (فضحتنى إحنا اللي قافشين أوي كده على الحشيش). إن الخمر تغرق الشوارع في مصر ومحلات البيرة والويسكي في كل شق. ثم لماذا كل محال البيرة يملكها مسيحيون فقط. ربما لأن الخمر حرام في الإسلام ولكن الحشيش حلالاً مثلاً. وبما أن الحكومة تحرم الحلال وتبيح الحرام فكان من الضروري إباحة الخمر وتحريم الحشيش. الحقيقة أني لا أعرف سببًا مقنعًا لكل هذا. كانت رائحة سيجارة ولي تعبق المكان وتجلعني أستنشق تلقائيًا الدخان. فأصبحت أقل توترًا وصرت أتقاسم مع وليد أطراف الحديث وشيئًا فشيئًا صرنا أصدقاء. هو يحكي لي عن "مرمطة" الحبس والإهانات البالغة من الضباط بكل فخر بل قام من مكانه وخلع سرواله ليريني جرحًا قطعيًا في فخذه من أعلى. وأنه قادر على تقطيع أجزاء من جلده حين يطول حبسه فيخرجه الضابط خشية اتهامه بالتعذيب. وأنا أحكي له عن معاناتي في الكلية وعملي الذي لا يُطاق. تناولت منه نفسًا من السيجارة وسعلت حتى برزت عيناي ورحت أتفل وأشرق بالدخان فضحك وهو يهرش تحت إبطه:

- ده بقى اسمه التسليك. الكحة دي هتنفض صدرك من البلغم ولكنس كل العفار اللي في نفاشيشك.

احمرت الأجواء فجأة وشعرت أن الكحة تشق صدري بلا هوادة: فهي لا تتركني أرتاح وتجبرني على ال كح كح كح..

- كححححح اكه كه كه كه..

- أيوه كده إنت كده بقيت تمام.. خد بقى النفس التاني عشان تكتم.

هنا الجار يرشدني للكتمان بعد الكنس والتنظيف الحارق لصدري.

- كح كح لا شكرًا مش كح كح مش عايز.

- الحاجة سميرة بتقولك اتفضل.

هكذا برزت سمية وسط الدخان

فأشاح لها وليد بذراعه في قرف بينما استغرقت وقتًا حتى تدرك الغرض من زيارتي، لقد أتيت من أجل سميرة الشبشب.

- ربنا ياخدها ربنا يحرقها بجاز وسخ، المَرَة اللي بتاعها مسوس.

هنا انفلتت مشاعر وليد وتخيل أنه شيخ يدعي وعَلَا صوته بينما سمية بقيت هادئة ترقب وشبح ابتسامة يظهر على شفتيها، الذعرت: فهذه إهانة للساحرة كيف يجرؤ ولا يخاف منها ولا من انتقامها.

- بس يا ابني خلاص لأحسن تخرج تمرمطنا.

فأردفت سمية:

- ماتخافش دي بتموت فيه.. بتعبده عبادة.

- الله يحرق اليوم اللي شفتك فيه يا ستي، يا ولية يا ممششة يا مفضوحة، إنتي فاضحانا في كل حتة، يا مرَة يا عِرة يا يا يا...

نظر حوله حائرًا يبحث عن أقذر سبة يلقيها عليها.

- يا بتاعة الشباشب يا بوز الإخص ربنا هيولع في أمك يا نجسة يا عرة.

نظرت لسمية باستغراب شديد وغمزت لها أن (فهميني القولة).

فقالت وهي تغالب ضحكها:

- وليد حبيب سته ومدلع عليها أوي مع انها جبارة.

ثم التفت حولها وهي تؤكد:

- نابها أزرق صدقني ــصيك منها.

ازددت إصرارًا على رؤيتها خاصة مع حالة الهياج والسباب التي انتابت وليد الذي وقف قبالتها يكيل لها ما لذ وطاب من أطباق السباب والشتائم التي لا أستطيع كتابتها هنا لشدة شاعريتها.

اقتربت من الباب وأمامي سمية التي أزاحته بلطف فتناولها صفعة "على الماشي" وأمسك في تلابيبها وهو يمليها أوامره ويشير إلي:

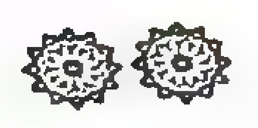
- قولي للمَرَة العفشة اللي جوة لو عملت فيه حاجة أنا لا يهمني عفاريتها ولا شياشيها وهطلع مصارينها بإيدي.

ثم هدأ فجأة وذهب ليجلس على الأريكة كقردة البابون وعاود الهرش بين ساقيه وهو يعيد إشعال سيجارته.

- أنا مش فاهم حاجة خالص.

نظرت له نظرة جانبية وهمست:

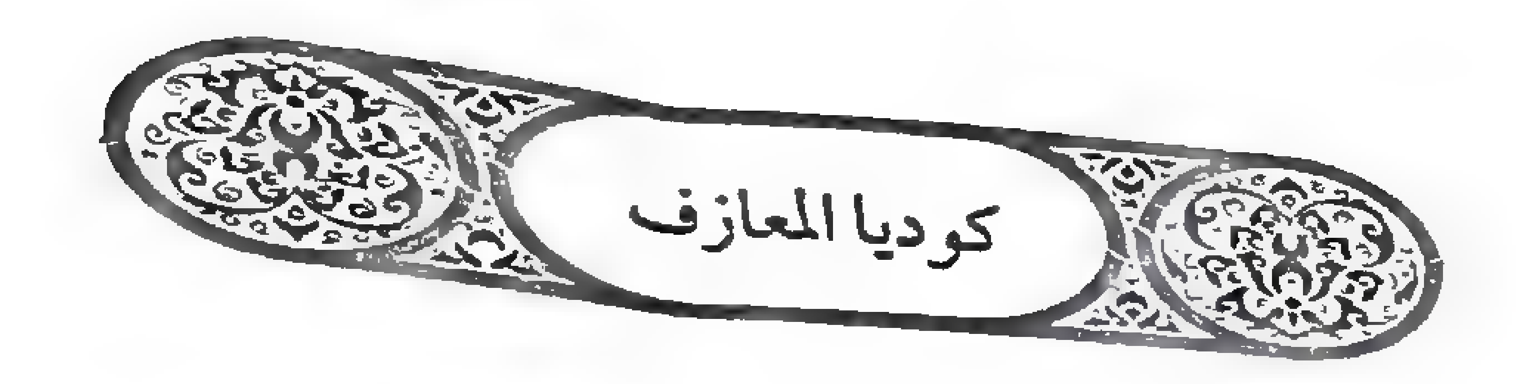
- بعدين هحيكلك يلا أدخلها بسرعة قبل ما تخرج هي وتبقى حريقة بينها وبينه.



فتحت لي الباب هامسة بكل أدب:

- الضيف داخل يا ستي.. دستور.

❁❁



كوديا المعازف

السيدة زينب 1995

بعد ثلاثة أيام من استضافة سكسكة عندي في الشقة بدأت في الألفة والتعود، كان زوجها ينام إلى جوارها على الأرض وبدا شهمًا معها وودودًا، لم يزعجاني كثيرًا وإن كنت أستمع دومًا لعراكهما وعتباهما الأشبه بعتاب التماسيح، هؤلاء القوم لا يؤمنون بأي خصوصية؛ فهي تواجه زوجها بفضائحه الجنسية وتُعدّد له عدد الغلمان الذين أغواهم وكم العار اللاحق بأولادهما، بينما هو يدافع عن نفسه قائلاً:

- معلش بقى يا سكسكة أنا بعمل كده من زهقي والله.

يا سلام هذا الرجل يفتك ببراءة العيال لأنه زهقان.

ضربت على كفيه قائلة:

- لازم تتوب يا سيد بدل ما ربنا يولع فيك، إنت بتهز عرش السما يا عرص.

-زي ما ربنا ولع في زرزورك يا هايجة.

تنظر له (سكسكة) بارتباك وتدافع كاذبة عن نفسها:

-مش ربنا اللي ولع فيا يا مهتوك .. دي نادية ربنا يجعل كلامنا خفيف عليها.

في اليوم الخامس كانت جوقة الزار قد حضرت وزعيمة الفرقة سيدة وقور مكحولة بعنف شديد تلبس المشخلل من المصاغ والملابس هائلة الحجم تتبعها

مساعدة أقرب لتمثال بوذا تتقافز وهي تضرب بالصاجات النحاسية الكبيرة لتشعل الأجواء وتردد وراء سيدتها كلام الأسياد، وثلاثة رجال، واحد منهم يلبس حزامًا من الشخاليل ويضرب الدف بينما الآخر يضرب آلة المظهر ذات الشخاليل الصاخبة والثالث يضرب دفا غليظا سميك الصوت ، كان حفل الزار معقوداً في بيتي أنا، تكفلت سكسكة بكل المصاريف وعزمت بعض الحبايب والأقارب. منهن أبلة كريمة واختها أمل وبحضور أم زينهم التي جلبت لنا الجوقة وبحضور شادية وسمية وبعض النسوة الأشداء من مساعدات سكسكة المخلصين يقومون بخدمة التجمع الغفير جلسنا نحن الرجال (كوارشي ووليد وانا) في الخارج نشاهد هذا الجنون المطبق.

وبدأ الهزيم والضرب والتصقيق والشخلخلة، كانت الجوقة قد جلبت ناطورًا مزدانًا برأس قرد - أو ما شابه- مكسوًا بالتل الشفاف وفي داخل التل أشياء بدت أنها ملفوفات على شيء لم أدركه، كانت أم زينهم في صدارة المجلس وهي مَن أعطت الإشارة لكي تبدأ هذه الطقوس الحبشية والتي ضربت مصر في أواخر القرن الثامن عشر قدومًا من أواسط أفريقيا، ومع الوقت بدأت النسوة يقُمن من أماكنهن ليدرن حول هذا الطوطم بينما ترنم الكوديا بألفاظ ممطوطة مُحمّلة بالحزن مع تسارع متدرج للإيقاع الذي بدأ يتسارع مع انتهائها من موالها العفريتي ليبدأ الجنون.

كل واحدة تدور حول الطوطم بطريقة لا تُشبه الأخرى، والعازفون يدورون معهن ليشعلوا في الجسد الرغبة في طرد العفاريت عن طريق الاهتزاز العنيف فربما تساقط العفاريت كما تفعل الأتربة عندنا نمارس تنفيض السجادة في الشرفة ، فلا تجد كل واحدة فيهم إلا أن تُسرع ويهتز شحمها وهي ترفع يدها تخفضها مثل شادية أو من تشيح بذراعيها كأنها تطرد الذباب كأبلة كريمة أو من تهز نهديها بشدة وهي ترجرجهم من أسفل لأعلى كسكسكة نفسها أو كمن تدلى ذراعيها أرضًا وهي منحنية كأمل.

يقول الباحثون إن حفلات الزار كانت صمام أمان حقيقي للنساء إذ إن كل

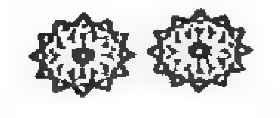
واحدة تنفث على دفين مشاعرها في الزار وتطرد عفاريتها التي تنغص عليها حياتها وتتغلب على عفاريت الآخرين ، الدق على الطبول يشعل العدوانية ويجعلها تغادر الجسد في صورة اهتزازات وكأنما هؤلاء النسوة ينفضن الغبار عن أوراحهن، درجات الحرارة ترتفع مع طاقة حركتهن المتزايدة والتي تشي بانهيار قادم، الدموع تنساب من أعينيهن طافحة مرار الواقع المزري لكل واحدة فيهن ، لقد أوشكت الأضية على الانهيار تحت اهتزازهن المتواصل: ((ياورا بيه يا ياورا بيه، زعلان مني يا سيدي يا ياورا بيه، هدبحلك وأسيح الدم لأجلك يا ياورا بيه)) كانت الكوديا تصرخ بلا انقطاع تستدر العطف من هذا (ياورا بك) هذاكي يعفو عن الموجودات ويرضى عنهن، كنت ارقب المشهد مشدوها من الرهبة، فالأمر ليس مزحة هنا، الجميع صارمون جادون يتقربون للعفاريت بكل إخلاص.. تعجبت كثيرًا وقارنت بين ما تفعله الصلاة الهادئة في جوف الليل بينما تناجي الله بدعائك ومطلوبك وبين ما يحدث من مرمطة واستجداء غارق في العرق هنا في الزار، احتدمت الطقوس بالذبح، لقد جلبت المساعدات خروفًا سميكًا مقرونًا أسود بدا كالشيطان بافوميت فعلاً بقرونه الملتفة الغليظة وعنقه المحلى بسلاسل للزينة، قُمْنَ بتقييده إلى جانب الناطور بصعوبة بينما النسوة منطلقات في الترنح والاهتزاز، ركعت الكوديا وأخرجت سكينًا لامعًا ملفوفًا بنسيج أخضر ورفعت السكين لأعلى وهي مستمرة في الترنم والصياح ثم هوت فجأة على العنق لتجزه فصدرت من الخروف مأمأة مذبحوة طويلة الموجة بأن (بااااااااااهه) وفي إثر هذا الصوت توقفت النسوة وهن يرتعشن ثم يسارعن في تلطيخ أياديهن بالدم ومن ثم يلخطن به ثيابهن ووجووههن، كان مشهدًا بدائيًا تمامًا يذكُرك بطقوس آكلي لحوم البشر هناك في مجاهل الأدغال، لا بُدّ أن الدم يطرد العفاريت أو أنه يختم الجسد بدم الأضحية ليغلقه في وجه الشياطين أو العكس، كُلٌ أخذ نصيبه من دماء الخروف الأسود القبيح، لاحظت أن أبلة كريمة أخذت النصيب الأكبر من الدم الذي لوّث وجهها أيضًا وحول فمها فبدت كزومبي التهم مخ أحد

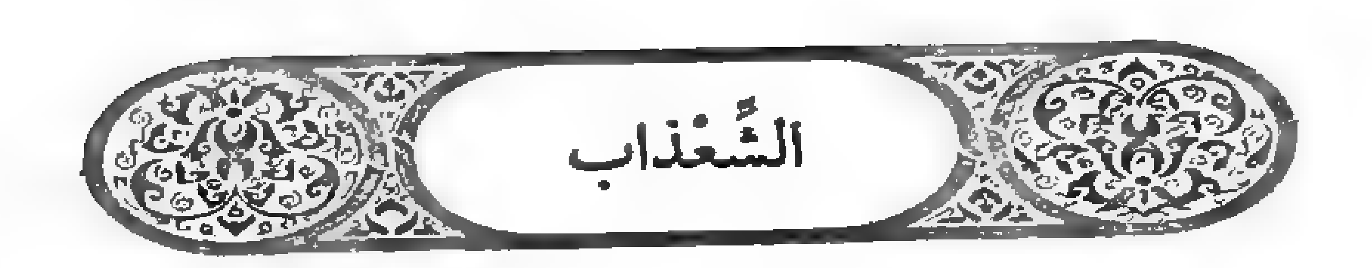
الأحياء، ثم استأنف الرقص والدوران مرة وإن كان بطريقة أقل حرارة وسرعة بل بدت وكأنها أعراضُ انهيارٍ أكثر منها رقص.. لقد أتى الدم بمفعوله في التهدئة.. على الشرفة المطلة على الخرابة وجدها ترمق المشهد في تركيز واستمتاع، كانت القطة صديقتي تراقب المشهد بأقصى استمتاع ممكن/ بل إنها قفزت بين أقدامهن تتمسح وتجري معهن، ثم بدأ السقوط والتشنج، كُل مَن يُغمَى عليها يسحبنها الضيوف لخارج الدائرة، وقعت سمية ثم شادية ثم سكسكة ثم أمل وبقيت أبلة كريمة أبدًا لا تسقط، إن أسياد أبلة كريمة أقوى من المتوقع لا بُدّ أن هذه المرأة تحمل سرًا ما يجعلها قوية لهذه الدرجة هل هي طفولتها أم حظها الأقل من القليل أم ماذا؟ الدم يغرق الأرض والخروف ما زال يتشحط في دمائه مُصدِرًا رعشات متتالية والدفوف تهدر ببطء إيذانًا بالفض، أخيرًا توقفت الدفوف والصاجات وبدا الجميع مُنهَكًا مبهور الأنفاس أما النسوة فقد اقترب منهن ذووهن ليمارسوا تفويقهن وتعالت الزغاريد من بعضهن بينما تلطخ الدماء المشد بلون أحمر قانٍ والحمد لله أن أرضية السطح لم تنهار بسبب هذا الجنون.

***

تتسم علاقة الجدود بالأحفاد بتلافيف شديدة التعقيد لدرجة لا يمكن رصدها بسهولة، فالجد أو الجدة سلطة روحية على الأب والأم ويبدون كآلهة في نظر أحفادهم حتى وإن كانوا فاسدين؛ فبالتأكيد هناك آلهة فاسدون يتمتعون بالعكو من المزاج واحتراف الدسائس والعناد والحرية أيضًا؛ فعلاقة الأحفاد بالجدود علاقة حرية يأخذونها من الأجداد الذين غالبًا يتميزون بالاسترخاء والاستهتار بمشاعر الأبناء لأنهم يولون الأحفاد جُل اهتمامهم وحبهم وبالتالي تنشأ علاقة متوترة بين الآباء والأمهات والجدود والجدات يلعب فيها الأحفاد دور المتنازع عليهم، وكثيرًا ما تنتصر الجدات على الأمهات في الاستحواذ على الأحفاد لصالحهن وهذا ما فعلته سميرة بالضبط، تعلقت بحفيدها وليد وعبدته بطريقة مَرَضية ورفعته إلى جانبها

على العرش ودللته بكل الفواسد وتسامحت مع كل أخطائه وفصلته نفسيًا عن أمه بإغرائه بالمزيد والمزيد من التسيب والحرية، ليصير حيوانها المدلل فاشلاً في كل شيء ويخرج من المرحلة الإعدادية بصعوبة استخراجك لشوكة من تحت أظافرك وانزلق وليد لحياة الشارع متمردًا على جدته التي أخلصت له في الحب والرعاية حتى أوصلته للتسكع ثم البلطجة ثم المخدرات ثم السجن على التوالي. ولكنها أبدًا لا تتخلى عنه وتتحمل منه من الإهانات ما لا يطيقه إنسان في سبيل ألا يتركها وحيدة مع عفاريتها، إن شخصية المشبشبة تختلف عن المشعوذ، تجيدها فقط من تُخلص في تعملها، تجدهن ربات بيوت عاديات ونساء من اللواتي تزخر بهن الطرقات ، فهن لسن مسربلات بالسواد ومنطويات مثل الساحرات، هن فقط يملكن دعاء مستجابا للشياطين ، لا يفعلن شيئًا فريدًا هن فقط يصرخن في الحمام ويضربن نعل الحذاء اليسار بشقيقه اليمين ويَقُلن ما ترغب فيه صدورهن من طلبات ، لكن لا تستهن أرجوك بهذا الطقس البدائي فهو من أخطر أنواع السحر وأشده ضررًا على الإنسان، الشبشبة طقس قديم غير متوارث، ولكنه معدٍ يصيب منهن الضعيفات نافذات الصبر الشاكيات مدمنات الدسائس فيختلط بقدراتهن على التفوه وسجع الكلمات لتختم التصريح بختم إبليس وتصير فلانة مشبشبة.





الشَّعْذاب

السيدة زينب 1995

ـ دلفت لغرفة سميرة فوجدتها مكدسة العفش بما لا يقاس، تكاد أن تمر بالوارب حتى لا تحتك من الأثاث المكدس ويعلوه غبار السنين المزيت، في آخر الغرفة حمام مبني بالطوب الأحمر، ومن الواضح أنه تم إضافته بطريقة غير مدروسة لتستخدمه سميرة، كان عبارة عن حائط يشكّل مربعًا ناقص ضلع مع الحائطين الأصليين، بلا باب ولا حتى ستائر. سميرة وضعت كل كراكيبها في الطريق للدخول حتى لو اقتحم أحدٌ خلوتها تقدر أن تسد عليه الكراكيب التي تعلو للسقف من النفاذ إليها، وإلى اليسار وجدت بابًا مفضي لغرفة إقامتها نفسها وبها سرير وخزانة مبنية للحائط والعديد من الرفوف عليها أكياس وعلب وفيما يبدو عدة علب للبخور، كانت تجلس في وسط الغرفة وأمامها صحن به مادة أشبه بالزيت، اندهشت من شكلها فهو غير متوقع أبدًا، بدت في الخمسين بالرغم من سنها المتخطي السبعين، على قدرٍ من الجمال الغابر فعلاً، كانت حزينة دامعة العينين تثير إحساسك بالشفقة عليها، مدت ذراعها تدعوني للجلوس أمامها أرضا فجلست أمام الطبلية الخشبية، غريب أمرها فقد تصورتها طاعنة مجنونة الطباع وعلى قدر من القبح ولكنني وجدتها على قدرٍ من

الوداعة بل والحزن أيضًا أيضًا، بجسدها الضئيل المتماسك ووجهها الطويل وملابسها السوداء الضيقة بل وعينيها المكحولة المرسومتين بألوان صارخة.

بادرتني بصوت دامع:

- يرضيك اللي بيقوله وليد عليّا؟

ارتبكت واعتراني الحرج وأنا أسترجع ما قال وليد لها من سُباب وشتائم فقلت:

- ملعش أنا آسف بالنيابة عنه.

فتابعت وهي تنظر لأسفل:

- أنا بحبه وما أقدرش على زعله وهو سايق في القباحة وقلة الأدب عشان عارف إني ما أقدرش أعاقبه.

كنت أدرك مشاعرها فأنا في موقع يشبه موقعها وأعتز بسلطاني وتدلُّلي على جدتي لمعرفتي بأنها تفضّلني عن باقي الأحفاد، ولكن هنا الحالة متدنية لأبعد الحدود. حاولت أن أمثل التعاطف حتى أكسبها في صفي وتساعدني في عقاب طلال. ساد الصمت بينما هي تقلب رزمة من كروت أوراق اللعب (الكوتشينة) بطريقة متمهلة وهي تنظر للطبق وقبل أن أقول لها عن أي شيء.

- إنت عاوز تنتقم من راجل كبير في العمر والمقام أهانك ومرمطك.

اجتاحتني الدهشة العارمة فهذا الموضوع بالذات احتفظت به لنفسي ولم أصرح به نهائيًا لأي شخص، أتكون أوراق الكوتشينة أخبرتها بذلك أم طبق الزيت الذي تحوّل لبللورة سحرية.

- معاك أثره؟

فأبرزت لها الجيب المقطوع من جلباب الرجل فتناولته وشمته مرارًا قبل أن تقول:

- تعالى على بعد بكرة يكون القمر بدر وأكون خلصت (الشعذاب).

ثم دمعت عيناها مرة أخرى متذكرة وليد وسرحت في عالم آخر:

- يرضيك يقول عليا مَرَة؟ فيه حد يقول على جدته مَرَة؟

- معلش، ربنا يهدي يا حاجّة.

- بلاش حاجّة دي قولّي انا سميرة وبس.

هذه المرأة تتمتع بثقافة وبعض الإتيكيت في كلامها لا يخفى على الجالس إلى جوارها، لقد فشلت تصوراتي كلها عنها؛ فها أنا أجلس مع متصابية رقيقة في السبعين من عمرها.

- اسم الراجل إيه واسم أمه؟؟

- ما أعرفش اسم أمه الحقيقية لكن هو اسمه طلال ابن الوسخة في نظري.

- مش مهم اسم أمه كفاية الأثر بتاعه. تحب أخليه خنثى ولا تحب أفضحه ولا تحب أجيبهولك راكع؟

معقول بهذه البساطة؟ أتلك المرأة في فعل هذا، تأتي به راكعًا. لا لا لا أتصور ذلك.

- أنا عاوز أعاقبه لأنه ضربني وأهانّي في وسط الناس.

- يبقى لازم النوم يطير من عينه وصورتك تطارده في كل حتة.

- بجد؟

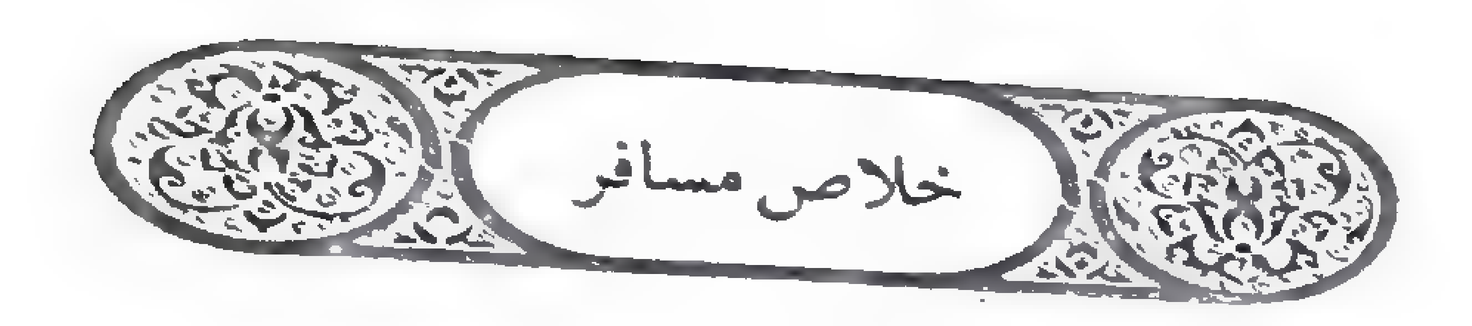
سرحت ببصرها الدامع وقالت:

- أنا مابحبش الظلم وعارفة إنك هتموت من القهرة.

- عرفتي منين؟

- نادية قالتلي.





خلاص مسافر

3 نوفمبر 1995

الساعة الثانية بعد منتصف الليل، هناك أكوام من الملابس على الفراش الحديدي انتقي منها ما يصلح لحقيبة السفر، كنت تنتابني العديد من مشاعر التوتر والخوف، كانت يدي تعمل على ترتيب الحقيبة وكأنها منفصلة عن إرادتي الخاصة. على المكتب الصغير وضعت جواز السفر والورقة الصفراء وتذكرة الأتوبيس البري الذي سيقوم من العباسية متوجهًا لطابا، كنت شاردًا جدًا جدًا إلى أن سمعت ما يشبه الطقطقة فيما خلف نافذة غرفتي الصغيرة التي تطل على الخرابة، كانت مغلقة فالبرد شديد هذه الليلة، تنبهت حواسي إلى شيء لا أراه فعليًا وإن كنت معتادًا عليه، إنها زيارة ليست في وقتها تمامًا، مددت يدي لأغلق زر النور فساد الظلام إلا من ضوء باهت يأتيني من لا مكان، عالجت رتاج النافذة لأسمح لها بالولوج، اقتحم المكان الهواء البارد فتراجعت للفراش المزدحم بالملابس المقترحة، شعرت بتنميل يسري في أعضائي ورغبة شديدة في الاستلقاء فنمت على ظهري فوق الملابس وأغمضت عينيّ توطئة للقاء لم أكن مستعدًا له، من بين شِقي جفوني الضيق ألمح كفيها يستندان بإفريز النافذة العريض، ثم ألمح قمة الرأس ذي الشعر الأحمر ترتفع، اهتز قلبي وجلاً عندما ظهرت العيون وكأنها تخرج من مستنقع لزج، بدت العينان تتقدان بلهيب غاضب، لماذا الغضب يا..

ثلاثية؛ أغمضت عينيّ وأنا أشعر بصوت تنفسها بالرغم من أنها لم تكن الزيارة الأولى
إلا أنني في كل مرة لا أتحمل ضربات قلبي العاتية وعبر ذلك الشق الضيق تكون
من—من الحضور، كانت الرؤى غائمة ولكنها ملموسة جداً هناك رائحة معدنية ما
تنتشر في ظلام الغرفة الباهت فجأة لمحتها تجلس مقرفصة عارية على قاعدة النافذة
كانت تنظر لي بتركيز وتحدق صوت الهدير مشوب بحشرجة الغضب إنها ضخمة
الجثة قليلاً ولكن في تناسق كبير، اعتدلت في نومتي أكثر إلى وسط الفراش، تحركت
يدي لأسحب سروالي وأنزعه عن ساقي، البرد يحبب جلدي كعنق الأوزة ولكن لا
مجال هنا للشعور بالبرد، شعرت بجسدها يهبط راسياً فوق جسدي الممدد، لم أستطع
فتح عينيّ وإن كنت أشاهد للموقف في خيالي، رماد إنها ناعمة كثيفة يموج شعر فرائها
بالوفرة، خلعت عني سترتي الصوفية فأضحيت عارياً، أشعر بأنفاسها إذ تقترب برأسها
من وجهي، من بين شقي جفوني اعتدت أن أبصرها كما تبصر الأميبا من خلال المجهر،
كانت عارية وإن كان يكسوها الشعر الكثيف، كان وجهها مثل الماء لا أستطيع تبين
ملامحها وإن كنت أعرف أنها ملامح قطة في صورة آدمية مكتملة الأنوثة كانت تملك
عدة أثداء ناعمة تبدأ من صدرها وتنتهي عند بطنها، صفان من الحلمات الوردية
الناعمة لم أستطع مد كفّي لتحسسهم وإن كنت أطوق لاعتصار تلك الأثداء كما يفعل
العشاق ولكنّ يدي كانتا مشلولتين فأنا هنا مفعول به لا فاعل، اكتفيت بالتلامس
لأتخيل الأبعاد الثلاثية للجسد المشوب بالفراء الناعم ، أطراف شعرها القاني تتطاير
وتتلامس مع جسدي العاري بينما أشعر بذيلها الكثيف كمروحة تحرك الهواء بين
ساقيّ، كانت لمسته تضرب بالقشعريرة في بدني كأنك تتحسس فراء نمر مخدر، كانت
الخطر بعينه، لقد حضرت نادية، حضرت غاضبة لا راغبة كما كانت في الليالي التي
خلت، شعرت بتلامس شفتيها الناعمتين جدًا مع شفتي اللتين جفتا من فعل الرهبة،
كانت أنفاسها الساخنة تلفح وجهي، أنا متأكد من أنها تُمعن النظر في تفاصيل وجهي،
أسمع صوتًا وجدانيًا يؤكد هياجها المكتوم في أنفاسها المتلاحقة.

- رررررو هروهرهه رررررايح فين؟

سؤال مخلوط بمواء ممطوط غاضب وكأنه نذير لعاصفة مزلزلة قادمة في الطريق.

جاوبت على سؤالها بوجداني بعدما أغلقت جفوني تمامًا:

- مسافر.

- ررررررر خخخخخخخخخخ خخخخخ.

لم أفهم وإن كان فحيحها مشمولاً بالغضب الشديد وهي تفح كما تفعل القطط الغاضبة، شعرت بكفها المدملج يقبض على لحم صدري توقعت أن تبرز المخالب المدببة الآن لتمزق شيئًا من وجهي أو كتفي، أعادت الفحيح الغاضب وهي ترفرف في وجهي برفض.

- خخخخخخخخخخ خخخخخ لا خخخخخخررررر ماقيش شششش سسسسسافر.

- لكن.. لكن..

هبت ريح باردة مخلوطة بمواء عالٍ مُركّز غاضب، شعرت بأظافرها قد برزت وأنها ستبدأ عملية الغرس في لحمي، أشعر باهتزاز بدنها بينما فراؤها يتحول لدبابيس من فرط تذمرها من مناقشتي فانهارت مقاومتي تمامًا تحت وطأة غضبتها العاتية.

- ح حح حاضر حاضر ..ممم مش هسافر.

هبط توترها إلا قليلاً، أشعر بها تتأكد من صدقي في الامتثال لأوامرها، أشعر بها ترتفع رأسيًا عن جسدي العاري، لن يكون هناك لقاءٌ غراميٌ الليلة، عرفت ذلك وشاهدت كل شيء بخيالي فقط، حتى تلك الفتحة التي أشقها من بين جفوني حتى اختلاس النظر لم أستطع الليلة أن أفعلها، إنها لم تأت اليوم للتمسح في جسدي أو للغرام، بل أتت لتُعلمني بعدم رضاها عن سفري المزمع لإسرائيل، ذهبت في موجة من الإغماء، أشعر بكل شيء.. بالبرد والقشعريرة والغضب العاتي المُحتمَل، ذهبت في سبات عميق وأنا عارٍ مشلوح الثياب لأفيق على الساعة العاشرة صباحًا وأنا على

ذات الوضع المتبطح على الفراش وقد تناثرت الملابس في أنحاء الغرفة. فتحت عينيّ على ضوء النهار يغمر المكان وعلى النافذة المفتوحة طوال الليل، أشعر بأن كل عظمة تصرخ في جسدي، لقد أصابني البرد وصار ينخر في عظامي، قمت من تجمدي وانفي يسيل بالرشح وصدري يموج بالسعال المكتوم، نظرت للمكتب الصغير في الركن لأجد التذكرة والورقة الصفراء وجواز السفر وقد تمزقوا وكأنهم تعرضوا لمخلب قط أعمل فيهم الخمش والتمزيق، تناولت ساعة يدي فوجدتها العاشرة، رباه لقد ضاع السفر بعد أن فات موعد الباص بثلاث ساعات، ماذا أقول لناجي؟ بالتأكيد لسوف يمزقني كما تمزقت التذكرة بمخالب.. نادية.

استجمعت قواي بصعوبة البرد تجتاحني بأنفلوانزا عاتية ورأسي تحول لجوال من الرمل المبلل، شعرت بأنني أرفع على كتفي سقف الشقة نفسها، تحاملت وقمت بإغلاق النافذة وأنا أعرف أنني أستقبل أيامًا من المرض والسعال والرشح، إنني لا أطيق دورَ البرد لأنه يكسر كل مقاومتي ويرميني على الفراش مريضًا مكدودًا بلا أي مقاومة، لملمت نفسي وأحكمت الملابس حولي وتحولت لعجوز في التسعين، أسير منحني الظّهر توجهت لحمامي بصعوبة بررررر الماء ينساب من الصنبور النحاسي مثلجًا لا أطيق ملامسته، ذهبت للمطبخ البدائي وبدني يرتعش وكفاي لا يكفان عن الاهتزاز. لقد نمت في العراء فعليًا في ليلة من ليالي الشتاء القارص، نمت عاريًا أستقبل تيارات الهواء على جلدي العاري، لقد أطاحت نادية بكل تردد وألغت السفر ونسفته عن بكرة أبيه، نسفت التذكرة والتصريح وجواز السفر، لم أعرف لماذا فعلت ذلك، أشعلت وابور الكيروسين ورفعت عليه غلاية الماء أريد بعض الشاي الساخن لعله يذيب نخاعي الذي تجمّد وأورثني ذلك الإعياء الفظيع.. صببت الشاي وأمسكته مرتعشًا وقررت الخروج للسطوح حيث الشمس المشرقة.. (يا ابو الطاقية الشبيكة مين شغلهالك.. شغلت بيها البلد إلهي ينشغل بالك ترارارا) كانت أبلة كريمة تمارس

وصلتها على مسرح السطوح بين جمهورها من الملابس والملاءات المنشورة على الحبال. قطعت وصلتها وهي تنظر لي بغضب استحال لدهشة وهي تتفرس في وجهي المكدود بالمرض والارتشاح.

- يوه مالك يا واد شكلك مدهول كده ليه؟

- عيان أوي يا أبلة مش قادر.

تحولت أبلة كريمة في لحظة لمشروع أم وهي ترقبني بشفقة عاتية.

- شكلك تعبان أوي يا ... اسم الله عليك يا أخويا.

أطلقت سعلة مع عطسة فاهتز كوب الشاي من بين يدي وسقطت مهشمًا بينما أشعر بلسع السائل الساخن على يدي.

لم تقترب أبلة كريمة حفاظًا على نفسها من العدوى وزعقت فيّ آمرة:

- يالهوي عليك ده إنت بريورك نازل يسح من مناخيرك.

هززت رأسي موافقًا؛ فأنا فعليًا أحتاج لرعاية لن توفرها أدوات شقتي البدائية، وضعت يدي في جيبي لأخرج منها جنيهات أعطيها لها فأنا أعرف البئر وغطاءه وأعرف حالتهم جيدًا لكنها رفضت نهائيًا وتركتني وهي تبرطم بطريقتها المعتادة.

- ادخل ارتاح وأنا هنزل أجيبلك الدوا وأعملك حاجة تسند قلبك.

- شكرًا يا أبلة كريمة مش عاوز أتعبك معايا.

- عيب عليك صحيح أنا مش طايقاك لكن إنت زي ابني برضو.

تركتني هابطة للدرج وسمعتها تساوم شادية على شراء دجاجة من تقفيصتها، سمعتهما تتناوشن فيما بينهما على السعر وأن انتهت الصفقة بأربعة جنيهات للدجاجة.

عدت أدراجي للشقة وقررت أن أرقد على أريكة الصالون المتهالك بعدما فرشتها

[illegible] الحضور [illegible] منهم أنهم بصدد صيد ثمين؟ فالزبون تقدم على

[illegible] لداتيد وهو في معرضن (زبون شذع) وبعد ذلك اشتدت والزا

خدهشة لدى البغايا وبدأن بالشجار وتبادل السباب فيما بينهن عن أحقيتهن في

اصطياد هذا الزبون ولم يعرفن أبدًا أنه معالي وزير الشئون الاجتماعية، لكانت

عليه البغايا كما تفعل الضباع مع جثة الحمار الوحشي، واشتد بينهن العراك

الجماعي، نسوة متحمسات يرغبن في ذبح هذا الذكر الفخيم، وانتهى الأمر بأن

فرقت بذلة الوزير وطار طربوشه وسرقت محفظته وساعته وحذاؤه علاوة على

التحرشات الجسدية المباشرة وكأنه وقع في قبيلة من الأمازونات المتعطشات

لهرمون التستستيرون، تدهور الموقف تمامًا وتحوّل لفضيحة كبرى في حين ظهرت

قوة من الحكمدارية بإيعاز من النائب (سيد جلال) الذي أدار الخطة بكل دقة

وتدخل بعد أن تأكد أن معالي الوزير (وهو الوحيد القادر على إصدار قانون

إلغاء بيوت الدعارة بحكم منصبه) لإنقاذ الرجل الذي عرف أنه مقلبٌ مُدبَّرًا من

النائب العنيد والذي كان يصر على إلغاء نشاط البغاء في مصر وخصوصًا أنه يقع

في دائرته الانتخابية (باب الشعرية) وبالطبع لم تهمد الصحافة عن ذكر الواقعة

بكل السيناريوهات المتخيّلة مما أدى إلى إصدار قانون إلغاء البغاء نهائيًا في

مصر مطيحًا بمستقبل جميع مَن يبعن أجسادهن في حيز الشارع النجس، وعلى

العام 1950 بدأ التنفيذ بالقوة الجبرية وتطهير كل البيوت واللوكاندات من

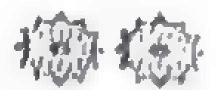
اللحوم التي تعفنت بالفجور، وكان مصير (أرجوك) وبغاياها لا يختلف كثيرًا،

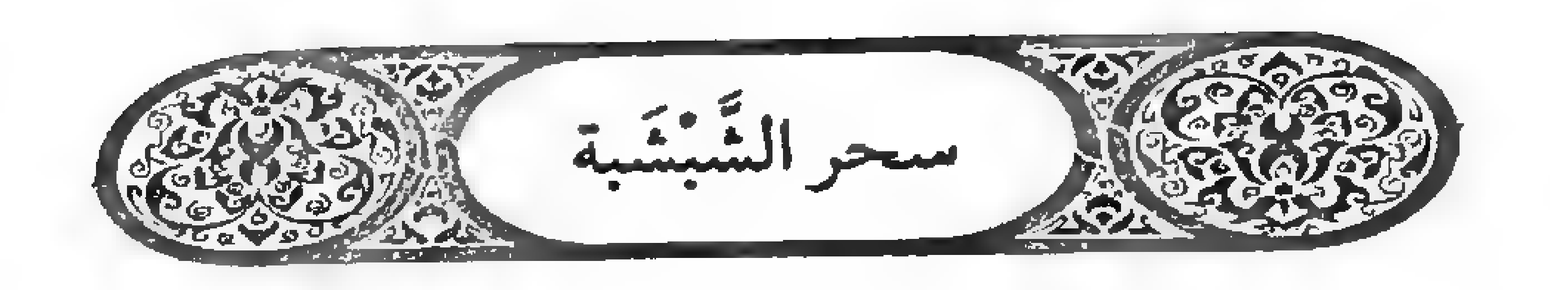
كانت تبحث بسرعة عن بديل، وكعادتها عندما تحتار فذهبت لمقام السيدة

تستشيرها في أمرها حتى تعرف ما الذي ستفعله في الأعوام القادمة، تشبثت

بالمقام بقوة الحيرة والقلق من المستقبل ولكنها لم تتلقَّ جوابًا من صاحبة المقام،

أصلها غاضبة عليها؛ إلا إنها لم تزرها منذ الثلاث بالأحرى لتسول أمام المقام منذ ثلاث سنوات، اعتزمت (أرسوان) الفرق ببعض النذور استرضاءً للسيدة المقدسة، وقامت من فورها لتوزع القروش في الخارج، ودنا منها المتسولون يريدون المزيد من الفضة.





سحر الشَّبْشَبة

السيدة زينب1995

لم يكن تصريحها لي بأن نادية تتواصل مع سميرة بالمفاجئ لي، فقط نظرت لها واعتبرت الجملة منهية للكلام فقمت مسلمًا وتعمدت الرقي فقبلت يدها فابتسمت راضية وخرجت من عرينها فوجدت شخير وليد يتعالى على الاريكة وقد رفع ساقه منفرجًا يملأ هواء المروحة سرواله فينفخه وتتضح معالمه الهزيلة كلها، ،خرجت سمية من غرفتها فأبرزت عشرين جنيهًا كما قالت شادية لي لأعطيها لسمية التي نبهت عليّ ألا أعطيها في يدها نقود لأن ذلك يغضبها جدًا، في البداية اندهشت ولكن بعدما جالستها اكتشفت أن سمية صادقة، أخبرتها بأنني سآتي بعد غد، فجأة تعالى غطيط وليد بسبة يوجهها لجدته القابعة بالداخل:

- إيه حكايته مع جدته؟

- أصل جدته هي اللي حبست أمه.

وشرعت تحكي لي القصة الغريبة، كانت سميرة تغار دومًا من (دولت) أم وليد وتنافسها على كل شيء باعتبارها حماتها من جهة وبسبب تعلقها بوليد ابن ابنها، سميرة أم لأربعة رجال يعيشون كالملوك في شارع السد فهم تجار يملكون محالاً متنوعة النشاط اثنان منهما يملكان محلًا للعب الأطفال وآخر يملك محلًا لبيع

المفروشات وجهاز العروس والأخير يملك محلًا للفول والطعمية، كلهم منحدرون من أصل شعبي بحكم الأب ولكن الأم كانت من أصلٍ أرستقراطي يعود لناميش نفسه صاحب الأبعدية والتي تسمى الآن بجنينة ناميش أو قاميش، أما قاميش نفسه فكان الأغا الخاص بالملكة الأم، هو من يعتني بها في كل شيء، هو حتى المسئول عن استحمامها ونظافتها الخاصة، وكانت سميرة تنحدر من هذه السلسلة قبل أن يضرب التأميم كل الأغنياء والمحاسيب في مقتل وتصفى تركاتهم؛ لذا فقد اضطرت للزواج من أحد العامة الذي تزوجها ليحوز على هذا البيت ويعاملها بنذالة حتى اهتزت تمامًا وأصبحت تمشي في الشارع كالهائمين على وجوههم وعدوا الموضوع لمسًا أو سحرًا، لم يكن مصطلح الأمراض النفسية متعارفًا عليه، وأن تقول للمصري أنت ممسوس من إبليس وأنه يعاشرك كل ليلة لأهوَنْ عليه من أن تقول "إنت عندك فصام أو بارانويا" كأنه خلع كل ملابسه على قارعة الطريقة يعتبرون الأمر له ثقل الفضيحة، كان المصريون يعتبرون أن أسماء الأمراض النفسية اشد وطأة عليهم من أسماء الشياطين ولا يقبلون أبدًا العلاج لما تتمتع به مستشفى العباسية والخانكة للأمراض العقلية من سمعة سوداء في مصر، المصريون يفضلون الإصابات الروحية عن مسميات علم النفس السخيفة، ربما لرهبة الروحانيات وأن مصطلحات الأمراض النفسية تحمل طابعًا مهينًا للمريض لكن المس والسحر والحسد أكثر تقبلاً منها، لم يُمَحَ مشهدها وهي تحاول خلع ملابسها في شارع المنفلوطي أمام المارة المذهولين وتلك الفوضى التي أحدثتها، فعاشت محرجة منبوذة من الحي تخرج ليلاً فقط حتى لا يراها الناس، واستمر الحال سنين تزوج خلالها أولادها ومات زوجها فضحكت، وفرغ البيت عليها إلا من زيارات متناثرة من أولادها ولكنها تعلقت بوليد واهتمت به بطريقة هيستيرية؛ لذلك قامت الدنيا بين دولت وبينها، فقررت سميرة التخلص منها بالإبلاغ عنها في قضية تخزين الحشيش وخربت بيت ابنها عن بكرة أبيه الذي طلق دولت وهي بين القضبان وتزوج فتاة صغيرة ورمى الولدين لأمه عقابا لها على

أنها تسببت في خراب بيته، لكن الندم يعصف بسميرة على تسرعها واشتدت عليها مظاهر التوحد والصمت فأهملت تربية الولدين لدرجة الإفساد الكامل لهما وانحدر مستواهما للحضيض، كانوا ينظرون لها باعتبارها (خرابة بيوت) لتهوي سميرة في الفقر ولا تجد سوى صنعة تعملتها قديمًا من خادمة سودانية وهي الشبشبة، وبدأت قبل عشر سنوات رحلة السحر معها والذي أتى بنتائج رهيبة صدمتها، فقد شبشبت على حماة ابنها الأوسط فماتت بالسرطان وكان فجائيًا ولم تصدر عنه أي أعراض وشبشبت لزوجة ابنها لأنها هي التي عضت ابنها عليها فأتاها العقم بعد خلفة لبنت وحيدة هزيلة ولتتعذب الزوجة في عيادات الأطباء وأضرحة الشيوخ ولا فائدة، أما الشبشبة الشهيرة لها عندما شبشبت لزوج نادية الأخير وحولته لمجنون في الثمانينيات.نعم كانت هناك منافسة وحرب شرسة بينها وبين نادية انتهت بتدمير آخر ازواج نادية

- مساء الخير يا سميرة هانم.

ابتسمت وأشارت لي بالجلوس وأخرجت شعذابا يمثل عروسًا قطنية مصنوعة يدويًا، مكتوبًا عليها طلاسم في مناطق محددة، الرأس وبين الساقين واليدين والقدمين. ألقت بعض البخور عرفت منه الكسبرة ففاحت رائحة أقرب للتقلية منها للبخور لم تكن كثيفة ولكنها عبأت الغرفة. ثم دلفت للحمام المكشوف صرخت تنادي شياطينها وهي تمسك بالدمية في يد وبفردة حذاء قديم في يد ثم انطلقت تزأر داخل الحمّام وهي تخبط فردة الحذاء بالدمية بلا هوادة أو تردد.

- عسلت عسلت أهلية أهلية

نام الماء في الماء وبيت الماء في الماء

وعين طلال اللي عليه العين والنية

ما تشوف النوم ولا يرتاح له بدن

وكلتك باثنين وسبعين شيطان

يجنونه ويفضحوه ويخرجوله من شقوق الحيطان

أياديهم من ليف وأظافرهم من خطاطيف

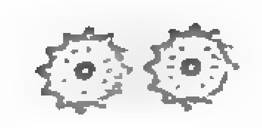
يجعلونه مسخة وعبرة بحق شيطان الحمام

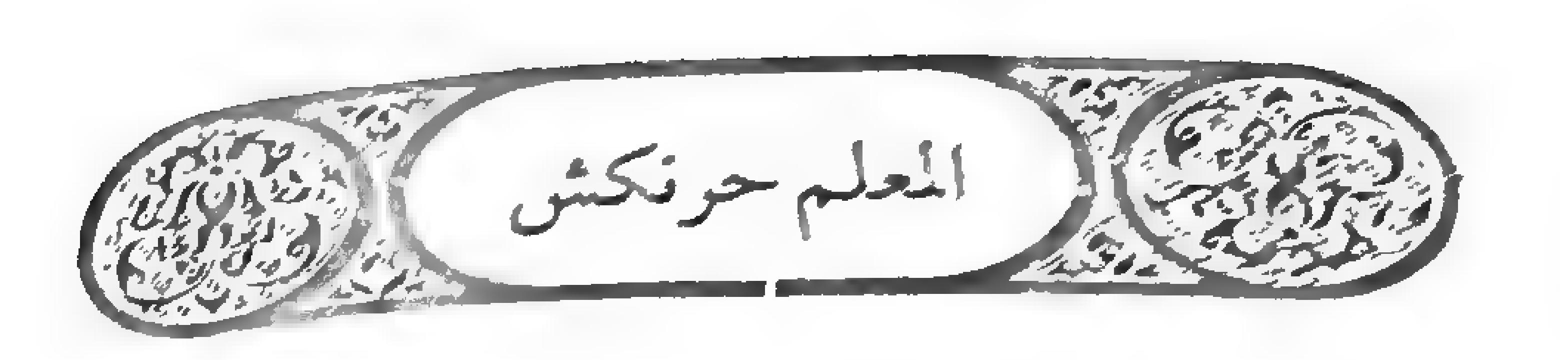
الخبيث زيتون

ثم خرجت من الحمام فشعرت بأنها محملة بألف ألف شيطان. غرست إبرة ملضومة بخيط في رأس الدمية ومررته عبر النسيج سبع مرات ثم عقدته سبع عقدات.

- علق دي في بيتك وخليها تتمرجح في الهوا.

شكرتها وتناولت منها الشعذاب وفي خاطري تجري خيول الندم والتوتر وتتسابق جميعها في مضمار واحد وهو (هل أخطأت بهذا التصرف؟!). غادرتها وأنا أحمل الشعذاب وكأنني أحمل جثة طلال نفسها وتخيلت مدى الأذى الذي قد يلحق به هذا المعتوه المتصابي. وخرجت لأعطي سمية ثلاثين جنيهًا إضافيًا حسب الاتفاق. كنت أحمل الدمية في يدي كمن يحمل ثعبانًا أو عقربًا، ومع أنها مجرد دمية قماشية إلا أن الرسوم والطلاسم عليها جعلتها حية تنبض، وربما ستصرخ بعد حين. أسرعت الصعود على الدرج حتى أبعدها عن يدي. هل ما فعلته صحيح ؟!. وضعت الدمية على إفريز الشباك وذهبت لأبحث عن مطرقة ومسمار كي يتثنى لي تعليقها. قررت أن أعلقها في غرفتي الصغيرة التي لا يدخلها أحدٌ وأترك لها النافذة موارِبة حتى يحركها تيار الهواء القادم من الخرابة. وسقط الموضوع برمته من رأسي كأنني حُقِنت بمخدر. مارست حياتي واندمجت وعلا شأني في أقل من يومين ونسيت أمر الدمية المعلقة خلف الشباك نهائيًا فقد كنت مشغولاً بمفاجأة كبرى.





المعلم حرنكش

كانت مشيته بتؤدة منحني الظهر نحيل حليق الذقن والشارب يشي وجهه بتسلطة والهمة ويخبرك جسده الضئيل بأنه لا يستهلك من أطماعه في الحياة إلا القليل يلبس العويتات السميكة حتى ظهر للعيان وكأنه دبور في صورة إنسان، لا تنخدع بمظهره الطيب وتعتقد أن انحناء ظهره غُلب ومسكنة، إنه المعلم (حرنكش) نقيب الشحاذين، تجده دومًا يلف ويدور حول مساحة المسجد الكبير من أول حارة الميضة الغويطة التي تطل على شارع زين العابدين إلى طرف قهوة الزفتاوي التي تحد المسجد من الشرق إلى أن ينتهي به المطاف مرة أخرى بجانب مراحيض الميضة القبلية، كان مجفقًا مركزًا يعرف ما يفعله ولا ينتبه أبدًا إلا لما يحوز على تفكيره، يلبس جلبابًا فوق جلباب والجلباب التحتاني مزود بجيوب عميقة لها مغاليق مُحكَمة كما كان يتمنطق بحزام قماشي به العديد من الجيوب، كانت دومًا جيوبه ثقيلة مُحمَّلة بالعملات المعدنية وأخرى للجنيهات الورقية الصحيحة، شاهده الناس ذات يوم يتفقد الشروخ والأزقة لشارع كلوت بك بحثا عن شيء ما، ما الذي جاء بك لسوق البغايا يا معلم، أخيرًا تذكرت أنك رجل وتريد أن تغمس ريشتك في محبرة ما، ظنوا به أنه (يبرم)، والبرم في اللغة المصرية أي البحث عن عاهرة تروق له، ولكن الأمر ليس كذلك إطلاقًا، كان له هدف آخر بعيد كل البعد عن الرغبات التي تكوي المصريين في البحث عن اللذة، كان له مواصفات خاصة يبحث عنها وعلى حسب تلك

المواصفات يكون هناك التقدير، دائم البحث عن البائسات كبوات العمر المهدمات صاحبات الأعين الدامعة، كان لا يكترث للبدينات الجميلات ولا لامعات الطمع بل كان دومًا يفتش عن الخنوع والذل، كان يستهدف عجائز المهنة المشردات اللاتي فقدن كل شيء في الحياة، ربما كان هدفه نبيلاً لأول مرة في حياته، ولكن في الأمر كان شيء آخر تمامًا؛ فقد كان أكاديمية متنقلة للتدريب على (الشحاذة) بأخذ بيد كل من تستجيب ليعطيها أملاً أخيرًا في الدنيا بعدما امتصها الرجال على مدار عقود، عندما سمع بخبر إلغاء البغاء والذي انتشر كالنار في الهشيم في كل الصحف أخبره ذكاؤه أن شارع كلوت بك هو منجم طازج للعمالة بعدما خانه أكثر الشحاذين وابتعدوا عنه لجبروته، فقرر إنشاء جيل جديد ودماء جديدة من العاملين في مهنة التسول، قرّر إعطاء لمعانٍ جديدٍ للمهنة بعدما بات الشحاذون عاملين متمردين على تعاليمه وقبضته القاسية عليهم، إذ إنهم لم يعودوا ملتزمين (بالبروفات) ولا بالقافيات والشعر الذي يلقنهم إياه، كان يرى أن الشحاذة فن له أصوله وتعاليمه ووجد في عجائز العاهرات مبتغاه، قابل (أرجوك) التي سلمته جثثًا حية من مقطوراتها التي عافت أنفس الزبائن عن استعمالهن ولم تجد حلًا سوى أن تبيعهن لـ (حرنكش) ليبدأن حياة جديدة قوامها الشحاذة والتسول باعت له عشر جثث من اللاتي تخطت أعمارهن الستين، سعر الواحدة عشرة جنيهات وسلّمته إياهن بكل أريحية وهي تذرف دموع التماسيح على طول العشرة وتمنت لهن مستقبلاً واعدًا، ليشحنون (حرنكش) إلى عرينه القائم في منطقة تل العقارب بالسيدة زينب، كن مذعورات دامعات خنوعات وهن ينظرن للشارع العتيد وهو يبتعد عنهن وهن محملات على عربة الكارو، صار يعني بتدريبهن على كلام الاستجداء والاستعطاف والاستمالة (يا عاطي وانت العاطي يارب- إلهي ينصرك على مين يعاديك ولا يشمت عدو فيك وعلى قد ما تعطي رب العباد يراضيك- يارب وانت العاطي يبعد عنك الندل والواطي- إلهي يجعل من ضهرك سند وما يكسرلك وتد ويخليلك البنت والولد..) هكذا بدأ يعطيهن

دروشًا في الإلقاء ورنة الموسيقى في الاستجداء والتنوع الكبير في الدعاء حتى يستملن قلوب المحسنين بشتى أنواع السجع والمسكنة عالية الجودة كان (حرنكش) مخرجًا واعيًا يلم بكل تفاصيل عمله الدرامي من ملابس وإكسسوارات وأداء، صنع رتلاً من المتسولات وضمن لهن الحماية بحكم قوته واتصالاته المتينة مع بلطجية وضباط القسم وفي أقل من شهر باتت كل واحدة فيهن مصدرَ دخلٍ جديدٍ له؛ فهو يقتسم معهن الإيراد بنسبة الربع لهن والثلاثة أرباع له، ولم لا فهو من يوفر لهن الحماية والمأوى والعلاج إن مرضت إحداهن.

- أنا أهم من الحكومة.

- إزاي يا معلم حرنكش إنت أهم من الحكومة.

- أنا بوفر ليهم اللقمة والنومة والمكسب واللي بيتعب بوديه يعمل عَمرة في الميرة لكن الحكومة بتسيبهم يموتوا من الجوع.

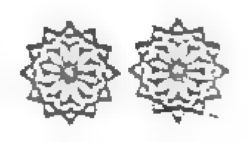
- ..

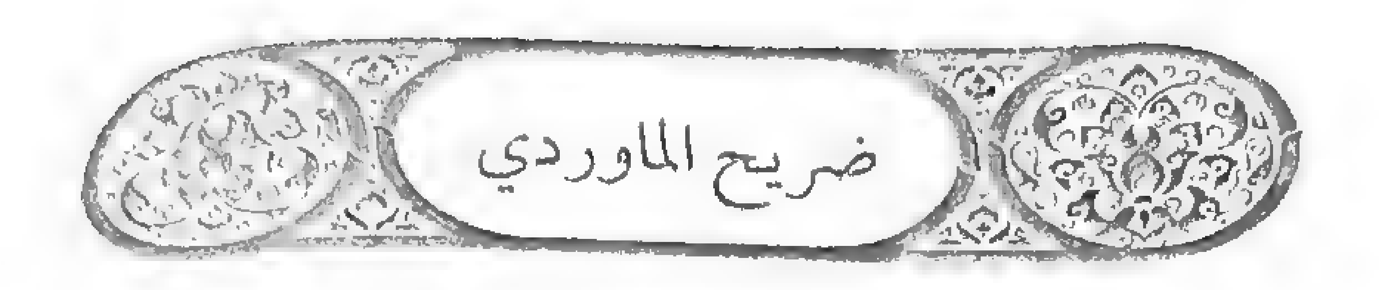
- يبقى مين الأهم والأحسن؟ أنا ولّا الحكومة.

- ..

لا تنكر أن منطق الرجل متماسكٌ فالرجل يوفر المجاميع التي تستهلك نذور المحسنين وأصحاب الحاجات على أبواب الأضرحة، تخيل معي أن تذهب إلى مسجد السيدة أو الحسين ولا تجد من يأخذ منك فدواك أو نذرك أو إحسانك، إن المحسنين في مصر يحبون أن يروا نتيجة إحسانهم مباشرةً كما أنهم لا يثقون في هيئات الزكاة ويعتبرونها ظِلًّا من ظلال الحكومة الفاسدة جامعة الضرائب بشكل أو بآخر، إنه لَشيء محبط وقاسٍ أن لا تشاهد بعينيك اليدّ المرتعشة والحال الرث التي تتناول إحسانك مع دعاء سابق التجهيز يدعو لك بالصحة والثراء والزيادة كي تحسن لهم أكثر، صفقة تم التراضي عنها من قِبَل الطرفين إلى الأبد، إن الإحسان والنذر هما سلعة تحتاج لمن يستهلكها وإلا فأين التفعيل إذ لم تجد اليد التي تمتد لك شاكرة وداعية

ـع بكرم الدعاء وحلو الأماني، وبالرغم من أن الله تعالى أخبرنا أن أهل الإحسان هم من تحسبهم أغنياء من التعفُّف إلا أن صنعة الشحاذة في مصر تُعَد إرثًا حميمًا لا يستغني عنه المصريون، فالمتعففون لا يصلحون لملء الإشباع النفسي الذي تراه دائمًا في وجوه محترفي الشحاذة وتعليم النقيب حرنكش..





ضريح الماوردي

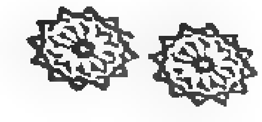
1961

الشيخ (صبري الدُهل) هو خادم ضريح الماوردي لزمنٍ طويلٍ، أعرف أن صاحب المقام هو قاضي قضاة الدولة العباسية في أوهن حالاتها وأنه ابنُ رجُلٍ يبيع ماء الورد لذلك سُمي بالماوردي، يعيب عليه أنه كان مقرّبًا لرجال بلاط الدولة العباسية بشكل كبير وأنه كان يدعو لهم على المنابر، وبالرغم من كونه شافعيًا وألّف في الفقه الشافعي مجلدات ضخمة إلا أنه لم يَسْمُ لدرجة العارف بالله إلا في أواخر حياته، لا أعرف تحديدًا ما هي تلك الظروف التي ألقته في مصر ولكن أعرف يقينًا أنه صاحب مقام رفيع لما له في أسرار الفقه والسُنّة النبوية ما يجعل له ضريحًا ومسجدًا متهالكا لا يزروه سوى العاطلين والنسوة أصحاب الحاجات..كان الشيخ صبري الدهل خادماً وقورًا متزوجًا من امرأة سَليطة اللسان في زقاق حارة السَدّ على مقربة من ميدان المسجد الزينبي، لم يكن الضريح مكانًا للصلاة فقط بل هو مقام لنوم الشيخ صبري أيضًا على مدار اليوم كان المسجد الصغير المتهالك يعاني من ضمور كبير في عدد المصلين نظرًا لهيئته المتهالكة وقبته التي على وشك الانهيار على الرؤوس بل كان مكانًا لنوم الكثير من الباعة الجائلين الذين يفترشون أرض المسجد في القيلولة بين الظهر والعصر ثم بعد ذلك تتوافد النسوة، كان يسمع همسات النسوة وهي

تطلب من صاحب الضريح بعد أن تضع قروشًا أو تعريفات في يد الشيخ صبري أو في صندوق النذور التابع للأوقاف، وفي آخر النهار يذهب بامرأته التي تجرِّده من كل البقشيش الذي وُضِع في يده، كان يعيش حياةً لا تُطاق مع زوجته المفترسة والتي كانت تنعته بكل الشتائم المنتقاة بعناية (يا مدهول، ياللي تنشك في مصارينك، يا عرة المشايخ)- وإن كانت ابنته الوحيدة (زهرة) هي مصدر سعادته وعلى مطلع الستينيات كبرت زهرة لتصبح عروسًا رائقة البشرة ناعمة الساقين وبدأ الخطاب يدقون باب الشيخ (صبري) الذُهُل ببلوغ البنت الثالثة عشر، كانت الأم الأريبة تريد أن تفرح بابنتها الوحيدة لتحظى بأحفاد كُثر يعوضونها التصحُّر الذي مُنيَت به إثر موت كل ولاداتها عدا زهرة التي نجت من هذا النحس. كم من مرة سالت زوجها بأن يخترع دعاءً أو يصنع تحويطة ما ليلح به على مقام الماوردي بأن يحفظ لها ولاداتها المتتالية من الموت، وسعت لكل المشايخ ولكن بلا فائدة، كانت تصب غضبها على الشيخ صبري وتراه منجوسًا ملعونًا لا يلم بمهام البركة التي يوزعها على النسوة في ضريحه المهدم ، واختارت لزهرة من بين كل الشبان رجلاً مُعممًا يقال إنه من مخلفات الأزهر الشريف إذ إنه لم يُكمِل عامَه الأول في المعهد وخرج منه بسبب لوثة جنون جعلته ملحدًا لفترة من الزمان ثم ساحرًا فاشلاً لا يلم تمامًا بأمور قوة الأرقام والحروف ومضاهاتها بآيات القرآن وخدام السور والآيات، إنه الشيخ (أحمد الصِفْني) ولكنه عاد أدراجه بعد أن اضطهده الناس وغُلِبَ على أمره ويقال إنه كان يعبد إبليس ويمارس السِّحر قبل توبته على يد الشيخ صبري نفسه، ورحب به الشيخ باعتباره من حملة كتاب الله بالرغم من كونه عاطلاً عن العمل، كان الشيخ (أحمد الصِفْني) ولا أعرف معنى محددًا لكلمة (الصفني) ربما كانت تمتُّ بصِلَةٍ لكيس الصفن المغلِّف لخصية الرجل مثلاً، حقيقة لا أستطيع تحديد المعنى، كان شبقًا هائج المشاعر بطريقة لا تُصدَّق بالرغم من وصوله لسن الأربعين إلا أنه بدا فحلاً كالثور "الطالوقة"، وعانت منه زهرة أشد المعاناة خصوصًا وأنه دائمًا مُرابِط

لها في المنزل ويكبرها بأكثر من ربع قرنٍ ولا يهمد ، ومع تقدُم عُمر الشيخ (صبري الدَهُل) بات عليه الجلوس هو الآخر في المنزل، ولكن من الذي سيعتني بالضريح من بعده؛ فما كان من بُدٌ من أن يأخذ مكانه الشيخ (أحمد الصفتي) باعتباره وريثًا شرعيًا لخدمة صاحب المقام، لكن لم يرحب الأخير بالوظيفة وركبه الكِبر فما كان من الشيخ صبري إلا أن استحثه على التجربة وذهب معه لأيام لعله يقتنع، وبمجرد إدراك الشيخ (الصفتي) بأن زوار الضريح من النساء حلّت البركة على أعضائه وتخلى عن كِبرِه ووافق بشدة على احتلال الضريح بدلاً من حميه الذي بات كسيحًا مقعدًا، بل أصبح يبيت لياليه في الضريح يعبث في نفسه ويقرأ في كتب السحر ويترقب النسوة بكل شغفٍ وهياجٍ، كان يحلم بالنساء اللاتي يأتين للتبرك وطلب الخصوبة والاستقرار من الماواردي ، يتأملهن ويطبب على كفوفهن ويمضي لياليه متحسسًا هياجه ورغبته التي تأججت بفعل توارد صاحبات الأثداء الرجراجة إلى الضريح، كان (الصفتي) كالقبر الذي لا يرد ميتًا، ولكن لا بُدّ من تطوير الخدمة حتى يصبح الحلم واقعًا ويظفر بمضاجعات تشفي غليله الذي لا يهدأ، خصوصًا بعد أن هجرت زهرة فراشه وهي التي تأففت من فحولته المتأججة ليل نهار ككلب بلدي في موسم التزاوج وبعدما أنجبت أربعة أطفال ، وجد ضالته في العودة لكتب السحر التي كان يهواها ويجد فيها متنفسًا ووسيلة لتحقيق رغباته، وبالفعل كان قد أتم خلواته وبات ساحرًا متمرسًا يلبس قناع خادم الضريح ثم بدأ يعرض على الزائرات (خدماته) من أحجبة وأحجار وتمائم بالمجان نعم بالمجان لان الشيخ يريد اشياء اخرى ويوسس لها بطريقته الخاصة، انتشر عُهره بين الأهالي وباتوا يلقبونه بالشيخ (أحا) بدلاً من الشيخ أحمد، وقلّ عدد النسوة الزائرات لدرجة خطيرة إثر سمعته الملوثة وإن لم تستجب الاوقاف برحيله لأن صندوق النذور سليمٌ لم يُمس ويكتفي الشيخ "أحا" بمرتّبه المقبوض من وزارة الأوقاف الراعية للضريح ويلقيه لزهرة لتعيل أولاده الأربعة متفرغا لنجاسته وشياطينه، وفي ليلة قمرية في العام 1961 وبينما

هو جالس بطالع الطلاسم في كتبه الصفراء ويلعق ذكورته الملتاعة زارته إحداهن، كانت طاغية الحسن بشعر أحمر ونهد عذب كماء القلل، كان يراقبها وهي تبكي ظُلمَ الناس وحسدهم وحقدهم عليها بينما توشوش الماوردي ، بدت ميسورة الحال رائقة كأحسن ما تكون الغواية، انتصبت مشاعره دفعة واحدة وبطريقة مؤلمة لم يعهدها في نفسه قبلاً، كانت طاغية الأنوثة فوارة ساحرة تخلب الألباب، كانت قوية تكسر أي طموح لها نظرة تجعل الدلال نفسه يتوارى خجلاً من رموشها الساجية.. كانت نادية.





ناجي

شتاء 1995

كانت مقابلةً عاصفة استقبلني فيها ناجي في منزله بوجه متجهم والشرر يتطاير من عينيه. الغريب أنه عرف أنني لم أتمم مشروع السفر. كيف عرف؟ وهو لم يزرني قط في جنينة تلميش. وقفت صامتًا أتلقى الغضب المتمثل في كلمات تتتالى مع ريقه المخلوط دومًا بالويسكي. إن شخصًا بحجمه وجثمانه قادرٌ بأن يساويني بالأرض في لحظة غضب. كنت أعرف أنه لن يؤذيني بدنيًا، ولكن كان هائجًا شتامًا حانقًا. تركني وذهب للمطبخ يؤسس لطعام ما فتبعته في صمت فرأيته يعاقر خمرًا من زجاجة فاخرة مباشرة وينزلها بعنف على الرخامة حتى كاد أن يكسرها. كان مشغولاً بتشريح قطعة لحم كبيرة توطئة منه لسلقها في القدر الكبير.

- إنت زعلان مني؟ أنا آسف.

هكذا صدر صوتي مرتعشًا خفيضًا.

- ماكنتش أعرف إنك محتال ولص هتصرف الفلوس وتهرب.

اغرورقت عيناي بالدموع كعادتي عندما يتهمني أحدٌ بتهمة بعيدة عن الواقع والتزمت الصمت. فأنا لم أكن لصًا طوال حياتي (إلا في بعض المواقف). كان يعاملني

وهو يعطيني ظهره ثم يتجه إلى يدي الممدودة له بجواز السفر والتذكرة والدولارات والشيكلات الإسرائيلية، بينما تجرع دفقة أخرى من الزجاجة وهو يردف:

- مصري ما حولك تعملي حاجة تاني لأنك حرامي وعلق.

صدرت مني هنة دامعة سمعها هو فالتفت لي ليصدم بكون النقود التي أعطاني إياها في يدي كما هي لم ينقص منها فلس واحد. تجمد للحظات ثم لانت ملامحه وهو يأخذهم مني ويلقيهم على رخامة المطبخ إلى جانب الزجاجة الفاخرة. ثم نظر لجواز السفر والتذكرة والتصريح فوجدهم ممزقين في أكثر من موضع فأخذهم يتفحصهم وفي عينيه تساؤل عمن فعل هذا فلم أجبه بل هو من استطرد في سؤالي بكلمة واحدة فقط:

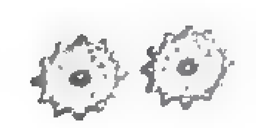
- نادية؟

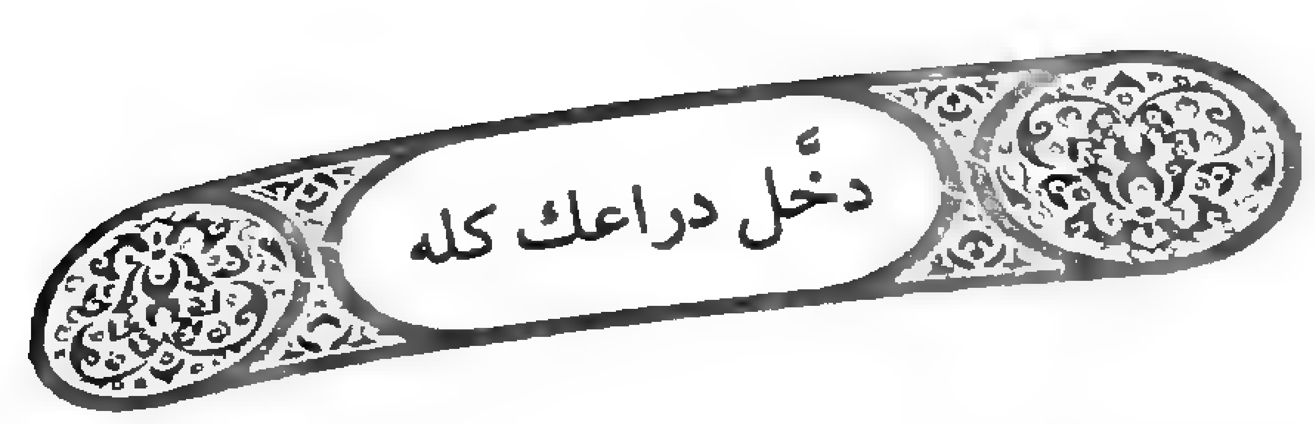
هززت رأسي أن نعم بلا كلام بل انطلقت مني دموع غزيرة لم أستطع إيقافها. لا أحب أن يهينني أي شخص ويظن فيّ الظنون التي لا تليق بكرامتي خصوصًا الأستاذ ناجي الذي أكنّ له كل الاحترام والتقدير. تأملني لبرهة وشعرت بحيرته التي ترجمها في أن ناولني الزجاجة مشيرًا لي بأن أرتشف منها جرعةً فأخذتها منه ورفعتها ليندلق في زوري أشنع طعم ممكن تخيُله فشرقت وبُهِتُّ وشعرت بأن إبليس نفسه قد تبول عنوةً في فمي. انتظر حتى هدأ سعالي واشمئزازي قبل أن يبتسم ابتسامة واسعة وسعته وأنا رأسي يبدأ في الدوران.

- نادية خدمَتك خدمة كبيرة ياض إلت.

ثم فرد أمامي جريدة الأهرام فقرأت المانشيت الرئيسي فيها.

(اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين وتوتر عام يشمل أنحاء إسرائيل وإغلاق الحدود مع كل دول الجوار..)





السيدة 1995

لم يندمل جرحي على نادين، لا أستطيع إطلاقًا إبعادها عن خيالي، إنه تأثير الإهانة الكبرى التي لَحِقَتْ بي في الكازينو، ازداد اكتئابي لدرجة جعلتني لا أغادر الشقة إلا للضرورة القصوى حتى زيارتي لأم زينهم انقطعت وأصبحت لا آمر عليهم في صعودي وهبوطي، وبحكم فصلي من عملي المتواضع باتت الأمور من سيء لأسوأ وقد أشرفت فعلاً على الجوع، حتى الكلية أصبحت لا أذهب إليها، أصارع أشباح مَن آذوني طوال اليوم، أصبحت أقتلهم وأمزق لحومهم آناء الليل وأطراف النهار، حتى زيارات القطة لم تعد، وبات العالم كله من حولي مكانًا موحشًا أقتات على فتات وجباتي السابقة وأشرب الشاي بدون سكر، إنه الفقر حين يطرق بابك فيزيد من الأمر سوءًا.. وهزلت واصفرّ لوني بحُكم كل شيء سيئ أشعر به، وفي ليلة كئيبة أخرى كنت أسلي نفسي بتصوُّر الانتقام من جعفر وطلال ونادين، ونمت على أحد كراسي الصالون المتهالك وأنا جالس، رباه حتى في نومي كنت أنتقم وأصارع وحلمت بأنني أضرب طلال ببلطة وأقطع فيها أطرافه ونادين تشاهد وتصرخ حتى ينفجر رأسها، كنت أهوي بالبلطة علي ساقه فأبترها فتنبت من جديد، لا بُدّ وأنني كنت أشيح بذراعي في أثناء نومي حتى إنني في الحلم جرحت كفي وسالت منها الدماء فصرخت

بالقش وأن مساميره الحادة انغرست فعلاً في يدي وساعدي، حاولت إخراجه ولكنّ

وهببت من نومي لأجد أن ساعدي الأيسر قد انحشر في بطانة الكرسي المتهالك المليء

ألمَ التمزيق صار يعوقني من جذب ذراعي من الفتحة التي انحشر فيها، كان الألم لا

يطاق وبت لا أعرف كيف أخلص يدي من هذا الفخ، تصبب العرق من أنحاء جسدي

وحسبت أنني سأبقى على هذا الوضع طويلاً، وإذ فجأة تظهر قطتي السمينة من لا

مكان وتقفز على حجري وهي تنظر في عينيّ كأنها تتساءل عمّا ألمّ بي، كانت تنظر

إلى ذراعي المحشور وقد انغرس لمنتصفه وكلما حاولت سحبه تخمشه المسامير، فجأة

سمعت صوتًا يرن في أذني كالمعتاد أن اهدأ وأدخِل ذراعك للآخر..

انتابني بعض الذهول وأنا أنظر للهرة التي قفزت تاركة حجري وجعلت تتجول

وتشمشم كما تفعل القطط المحترمة بينما استعدت تركيزي لبرهة وأنا في هذا الوضع

الصعب وغرست ذراعي كثيرًا ليغوص في القش القديم، اعتدت على رسائل نادية

التي تأتيني بلا سابق إنذار، اعتدلت لأحرّك ذراعي في مسند المقعد المحشو، ها

إمممم نعم هناك شيء ما، لفة مبرومة لها ملمس القماش، كانت محشورة في قاع

المسند جعلت أحركها وقدرت أن حجمها بحجم ساعدي على الأقل، أمسكت بطرفها

وجعلت أحرّك ذراعي بصعوبة صاعدًا وقد غمرتني الإثارة، إمممممم نعم نعم إنني

أقترب، جروح وخدوش على أنحاء متفرقة من ساعدي الأيسر ولكن ها.. ها أخيرًا

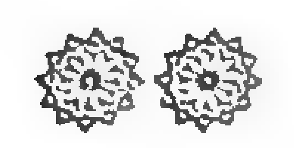
خرج ساعدي ثم كفي قابضًا على لفافة قماشية سميكة كسمكة قرموط متوسطة

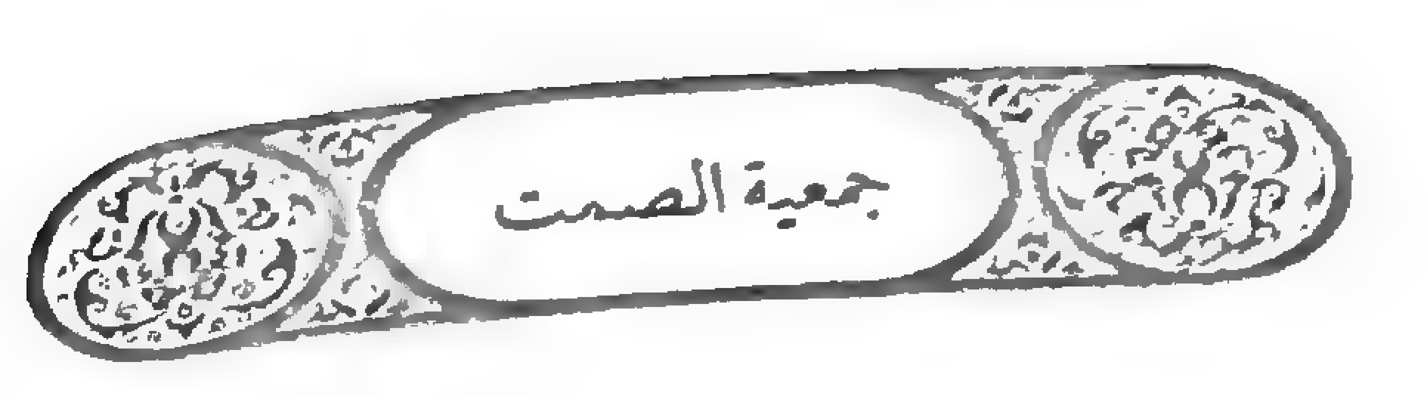
الحجم، جعلت أنظر لها وكأنها جثة رضيع مسفوح، ثم لمعَتْ الفكرة كلهَبٍ الكبريت

الذي سوف يشعل كل القش، أتكون عملاً سُفليًا مثلاً؟ انتابني الرعب وأنا أفكر:

أفكها وأرى ما بداخلها أم أحرِقها كما هي.. ها.. ماذا تقولون؟

ها؟





جمعية الصمت

السيدة زينب 1995

إن مصر في الصباح الباكر لجديرة بالتأمل والمشاهدة فعلاً، إنك لا تستطيع أن ترى إلا وجوهًا عبوسًا على اختلاف المشارب والألوان، تلاميذ وعمال وموظفون، وجوه متجهمة تعلوها كآبة وغبار وعيون محمرة عدائية وكأنها اقتيدت للمسلخ، عصابية متوحدة مترقبة إما بالهجوم أو الهروب وكأنهم يستقبلون النهار بتوقُّع الأسوأ على كل حال فتجد الموظفين يعرفون أنه يوم كامل من البطالة والملل والخوازيق المتبادلة بين الزملاء والتعنت العام من الرؤساء والافتراء ورمي البلاء فيما بينهم، فالعدوانية في مصر عنصر أصيل في الحياة اليومية يكاد يكون أليفًا كبُرصٍ يلتصق في أعلى حائط ولا يتحرك، فتجد الموظف يذهب وهو متأهب للشجار مع ذباب وجهه بلا أي مبرِّر إلا أنه يعرف سلفًا أن اليوم أشبه بالبارحة وأن لا جديد يؤخَذ في الاعتبار إلا تلك الجنيهات التي لن ينظر لها برضا أمام كل الالتزامات المرهقة التي تطوق عنقه، إن المصريين دائمًا في الصباح يتأرجحون بين اليأس والملل، ماء حياتهم راكدٌ مستقِرٌ في قعر المتعة بكل عكارتها، وتجد التلاميذ ذاهبين إلى مدارسهم متأهبين للشجار والبطح والزوغان والتحايل والأمل في غياب المدرس عن الحصص، أما طائفة العمال فبمجرد أن تحتك بواحد فيهم فكأنك مسست سلكًا كهربيًا عاريًا، فعلاً هم راضون تمامًا عن

حالة (اللا رضا) التي تجعل وجوههم معتمة غير جذابة أما القلة التي تتعامل مع أحزانها وبؤسها بمرح أو تهكم فتجدهم منبوذين بعيدين عن القطيع بل ويُنظر لهم على أنهم مهووسون مخابيل متهمون دومًا بالخلاعة والتفكك، جرّب أن تنزل لمسجد السيدة مثلاً لتشاهد الملتزمين منهم فتجد هذا الرجل المرتدي البذلة السفاري ذات اللون البيج القبيح وقد عقد منديلاً على رأسه يصلي وقد شمر سرواله عن ساقين أجردين ووجهه كله شراسة ورفض لأي آخر غيره، أو ذلك الملتحي الذي ينظر للآخرين باعتبارهم لصوصًا سرقوا قروشه أو لتلك المرأة التي تمسك بمعدن المقام وتدعي على جارتها أو حماتها بالشلل والجزام، الحقيقة أنا شخصيًا أكره الصباح حتى لا أرى تلك الوجوه التي تبشرني بمستقبل مشابه من الملل والركود والاستقرار في قعر الأشياء، تبشرني بأنني سأصبح مثلهم ويمكن أسوأ، أما في رحلة عودتهم فتجد الزحام والشجار والنرفزة وكان الشارع هو كائن مشوه مُعدٍ يجب الابتعاد عنه والهروب للبيت، جرب أن تركز جيدًا فيما أقوله وسترى تطبيقًا عمليًا للتشاؤم والابتعاد، أين (صباح الخير ونهارك لبن حليب ويومك بيضحك التي كنا نسمعها في الأزمنة الغابرة)، كان ناجي هو من لفت نظري لهذا الموضوع العجيب وكان يكره الناس في الصباح يبتعد عنهم ويؤكد أنهم كتلٌ مِن السلبية والمنافسة على لا شيء، هم مجرد متنافسين على الخواء والسطحية كانت عبارة (اصطبح وقول يا صبح) هي بمثابة نذير لأي شرٌ فأنت في الصباح المصري لا تستطيع أن تطلب أو تفتح موضوعًا جادًا لأنهم مازلوا أصلاً في طور النوم المتورم، وأنت في فترة الظهيرة المصري لا تستطيع أن تناقش الناس وإلا ستجد التأفف والعصبية بسبب الزحام والتكالب على الهروب من التزامات العمل، المصريون في منتهى اللطف فقط في الليل، ولذلك لن تجد متسعًا من الوقت لطرح أي قضية وإلا اتهموك بإثارة النكد وتفويت فرص الاستمتاع والاسترخاء عليهم، المصريون لا يطلبون منك إلا أن تنغمس في الركود وألا تثير أي موجات حتى لا يتبدد استقرارهم الذين يرزحون تحت نيره راضين فيه عن أنفسهم، كان (ناجي) شخصية

تمامًا عمن قابلت في حياتي وإلى الآن أدرك جيدًا أنني لن أقابل شخصية ذات ذكاءٍ وقّادٍ وحكمة وسابقة لعصرها مثله، فهو شديد الواقعية غارق في الخيال شديد الاكتئاب ومرح بجدية وصرامة يؤمن بكل شيء ولا شيء، معذب بمتعة شرير بطيبة قلب، في كل يوم معه اكتشف جديدًا فيه. كأنه قارة مجهولة، من حسن حظي أنني تعرفت عليه وتعلمت منه الكثير، كان يقول كلامًا عجيبًا عن المستقبل كنت أستمتع بكلامه وأراه دربًا من الجنون والخيال العلمي إن شابه شيء من المتعة، كان يقول لي دومًا إن الدين سيصبح مثل العادات والتقاليد وإن الناس سيتواصلون بالمجان وإن الميول والعلل النفسية ستكون على المشاع وسيتم تصنيفها على أنها ظواهر اجتماعية لا أكثر، كان يقول إن تكاثر الإنسان فيما بعد لن يكون في إطار الأسرة والزواج الشرعي وإن الناس سيكونون مجرد أرقام مرصودة من الأنظمة الحاكمة، وإنهم سيكونون مجرد مستهلكين ومروجين للسلع التي تنتجها الأنظمة والشركات الكبرى، وأن لغة الإعلام ستكون مثل عمليات التنويم المغناطيسي، وفي حالات السكر الشديد كان يهذي بلغات غريبة لم أعرف عنها شيئًا، عرفت مؤخرا أيضًا أنه (روحاني) ولكنه لا يمارس تلك الروحانية التي نعرفها من بخور وطلاسم وأدعية وأعمال سواء سفلية أو علوية، بل علمت بالصدفة أنه يرأس جمعية سرية بعدد محدود جدًا من الأعضاء المختارين بعناية، لا لا تظنوا أن لها توجهًا سياسيًا أو دينيًا لالا ليس هذا ما أقصد، كان يرأس جمعية سرية لتحضير الأرواح والقوى الخفية، لم استوعب في بادئ الأمر، ثم لم أستوعب لماذا صارحني بهذا، ثم لم أستوعب أن لي دورًا وأنا المهزوز المضروب بشبح نادية التي تأتيني في غلاف قطة.

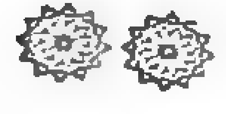
- نادية؟

هززت رأسي أن نعم، زيارة نادية لي هي السبب في إلغاء سفري، وأنها هي من مزقت التذكرة والتصريح الأصفر وجواز السفر، فترك اللحم يشوح على نار هادئة

بعدما أضاف له البهارات والبصل والتفت لي بكامل جسده البدين وضحك في وجهي لأول مرة، كان طعم الخمر الذي وهبني إياه يترك أثرا مُرّا في فمي مع بعض الدوار الذي يشجع على الاسترخاء والاستهتار في التعبير، وشعرت بأنني أريد شيئًا مالحًا في فمي للتغلب على غثيان الطعم، ناولني قطعة من الجبن القديم (المش الفلاحي) فامتصصتها شاكرًا قبل أن يزيدني بكأس خمر صبه من الزجاجة واضعًا في سائلها زيتونة، فتجرعتها وأكلت الزيتونة وشعرت بأنني خفيف خفيف كريشة تنساب في تيار هواء بارد.

- تعالى ورايا.

مشيت وراءه لا ألوي على شيء فوصل لباب تلك الغرفة المحظورة والتي كان يرفض بتاتًا اقترابي منها، أخرج مفتاحًا وعلاج رتاجها ودلف، وقفت منتظرًا إياه فأنا أعرف مدى قدسية ذلك الحيز عنده، أشار لي بأن أدخل ففعلت، لأرى أعجب شيء من الممكن أن تراه في حياتك.





السيدة 1995

كان (العم عشم) مثالاً طيبًا للصفاء والطيبة وكانت أيامه معي نزهة لنفسي بعدما اندلقت وأوشكت على الموت مُحطّم العنُق في الخرابة الخلفية للبيت، كنت أتوسد ذراعي على الأرض ويجلس هو جانبي مثل تلٍّ عظيمٍ من الشحم، تفعمني رائحته المعطرة باريج الأضرحة ونَسمات الرضا والزهد والبعد عن كل ملذات الدنيا، صوفيٌ حقيقيًا في زمن استهلاكي لا يرحم، كان الناس في تلك الأيام يؤمنون يقينًا بأن القيامة قد أوشكت على الظهور من كم التقدم التكنولوجي الفج الذي وصل إليه عصر التسعينيات، كان الرجل لا يكف عن التمتمة والتبسم في وجه منَ لا أرى يحادث كيانات لا أبصرها نهائيًا، هل حقًا هو درويش من الدراويش التي أراها أم إنه يحتل مرتبة أعلى.

- الصوفية مراتب يا ولدي وأعلى المراتب يتيجي بالتواضع وذل النفس.

- هو الصوفية دي عبارة عن إيه يا عم عشم؟

كانت لهجة الرجل صعيدية مشوبة بألفاظ اللغة العربية المحرفة والتي لن أثقل عليكم بها ولكنني سأشرحها لكم بمنطق الشاب العشريني.

الصوفية هي الحب، حب البشر والتسامح المُطلَق مع البلايا والابتعاد عن الأطماع

والاكتفاء بالضوء النابع من تواصلك مع الله وهي فعلاً درجات وممالك تكاد تكون افتراضية كعالم الفيسبوك اليوم، فيها زوايا معتمة بلا لايك أو شير ولكنها عظيمة القيمة وفيها أخرى مضيئة مطعمة بملايين الراغبين ولكنها أقل قيمة وأعلى رواجًا إذ أن درجات الصوفية العليا هي التوحد والكلام الكثير مع النفس لإقناعها بكبح رغباتها وشرورها والتقرب الشديد للعرش، عرش الحكمة والزهد والتمتع بخواص النفس في تلك الزوايا المعتمة، وفيها قمة الوثنية موصوله مع قمة الإيمان، ممتدة من بقاع الهند والتبت إلى مخابئ الكهنة وقلايات الرهبان، الصوفية في مجملها دينٌ كبيرٌ يضم لمعان الروح والذوبان في الكون وصانعه، والصوفية في مصر لها جذورٌ شيعية متمثلة في التقرب لآل البيت وأصحاب الأضرحة المبارَكة وصانعي المعجزات وأصحاب الكرامات وهم كثر ولهم شرايين في كل ثقافة وكل بقعة من بقاع الله، ربما كان العم عشم واحدًا منهم ولكنه لا يعلن ولا يفخر، لم يعطِني معنى واضحًا لانتمائه ولكنه قوي يملك شيئًا ما لا يعلن عنه أبدًا.

- يا ولدي اللي حصلك ده اسمه لمسة أرضية.

- لمسة أرضية؟

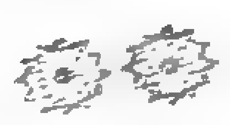
في الطب الشعبي ودنيا الروحانيات اللمسة الأرضية هي المقابلة والملامسة والملاحقة من قِبل روح هائمة، ويعتبر العم عشم أن مقابلتي مع شبح الخرابة هو نوعٌ اللمسات الأرضية والتي قد تورثني رؤى وأحلامًا وقدرة على فعل بعض الأشياء، فعلاً أنا قادرٌ على استقراء الفنجان وفعلاً أنا أسمع صوت المواء مصحوبًا ببعض النبوءات فهل هذا يعتبر لمسة أرضية، وقد تكون اللمسة مؤيدة فتورث صاحبها المزايا وقد تكون لمسة غاضبة وتورث صاحبها نقمة وإزعاجًا وجنونًا وعقابًا مثل الذي يصرخ في الخلاء أو يلقي ماءً ساخنًا أو يستفز تلك الأرواح فيرث منها الصرع أو الجنون أو سوء الطالع.

- يعني ده زي موضوع الأسياد؟

- لا يا ولدي الأسياد بيكونوا تبع لبرجك وساعة ولادتك واسم امك لما عملة الأرضية بتكون زي العلاقة كده يعني قضاء وقدر.

- طب الواحد يتخلص منها إزاي يا عم عشم؟

- صعب يا ولدي تتخلص منها لازم هي اللي ترحل عنك.



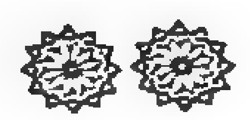


السيدة 1995

كانت إقامة العم (عشم) في أيامه القليلة معي لطيفة للغاية بشكل لم أتوقعه أبدًا بالرغم من ضخامة جثمانه إلا أنه كان كالسحاب في ظِله ووجوده، فقد عم السلام الرطب على البيت بطريقة لم أستوعبها في البداية، كان يقضي نهاره صامتًا مترنمًا يمارس التنظيف وترتيب البيت بطريقة كنت أعترض عليها في بادئ الأمر، إلا أن هذا السلام والتطوُّر الروحاني الذي حلَّ بالمكان راقَ لي جدًّا كان يجلب أطايب الطعام ويطهوه في العراء على السطوح نفسه وبشركتي فيه، كان يحب لحم الرأس والكوارع والمخلفات الذبيحة ويطهوها مع الأرز والدسم صانعًا وجباتٍ شديدة الحلاوة، يحتفظ دومًا في جرابه بلفافات وزجاجات صغيرة لم أعرف أبدًا ما هي إلا أنها بدت كمستحضرات العطارة والتوابل من حبة البركة والسمسم وجوزة الطيب ومسحوق الشطة، يشمر جلبابه الواسع ويجلس أرضًا ليصنع الطعام وهو يترنم بسعادة وينام مفترشًا أرض الصالة مبتسمًا محبورًا لا تغادره نظرة الوداعة والرضا أبدًا، كان ينصرف إلى عَمَار المولد ويأتي بأشياء غريبة مصنوعة يدويًا من الخوص والخيزران، وقام بمسح الشقة كلها بالماء والملح الخشن الذي أتى به لاحقًا من عند العطار، كان يمارس رقيتي وأشعر به يتفقدني وأنا نائم ليمسح على جبيني ويقرأ

ذاكرتي تلك المشاهد التي لا تُنسى وبالرغم من السحجات التي تزين وجهي لكنني لم اشعر بأي حرج فالكل مجروح هنا بلا استثناء ، ابتعدت بحكم التدافع عن القم (عشم) الذي انطلق الى مكان قريب من المسرح حيث حلقة مصفوفة من رجال يمارسون الذكر العنيف، لقد أوسعوا له مكانًا بل رأيت بعضهم يقبّل يديه وتركوا له مكانَ الصدارة فتوسط الحلقة وهو يصفق بكفيه ليعيد ترتيب الإيقاع لهم بينما هم يتابعونه ويفعلون ما يرشدهم إليه من حركات ثم بدأوا الالتفاف حول أنفسهم بنصف دائرة وبعد برهة انتظمت الحركات لتصنع تكاتفًا وتوحدًا بين من يشاركون الحلقة ، كنت أتابع بفخر ضيفي وهو يقود تلك الحلقة الكبيرة من الذاكرين ولكنني لم أجد الشجاعة للانضمام لهم وتمنيت لو كنت أرتدي جلبابًا واسعًا مثلهم بدلاً من السترة الرياضية التي تجلعني أشبه بأطفال الحضانة ولكنني كنت سعيدًا مبهور الأنفاس لدرجة كبيرة، ذائبًا وسط الزحام، كان التحام الأجساد أمرًا حتميًا تمامًا وأنت في المولد ولكن أن يلتصق بك جسد لدرجة ال ال.. لا لا.. شخص ما يقف ورائي تمامًا حتى إنني أشعر بأنفاسه تلفح قفاي، ثم أشعر بوخزة طفيفة في جانبي، لم تبعتها وخزات أصرت على لفت انتباهي فتنبهت ونظرت لجانبي لأتفحص مصدر تلك الوخزات لأجد مطواة قرن غزال يلمع نصلها الرفيع في يدِ أحدهم، لويت جزعي للوراء لأبصر صاحب اليد والذي يحاول الالتصاق بي تمامًا، لم أتذكر الوجه بسرعة، ولكن رائحة الكولونيا والشارب الرفيع والوجه الأسمر والعيون التي تلمع بالشبق جلعتني أشعر بالغضب والسخط والإهانة خصوصًا وأنا أشعر بيده الأخرى تلتف لتمسكني من صدري، نعم لقد عرفتموه.. إنه ذلك الحيوان الذي قابلته في السينما.

إنه كوارشي بتاع العيال..

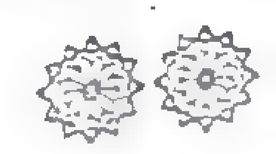


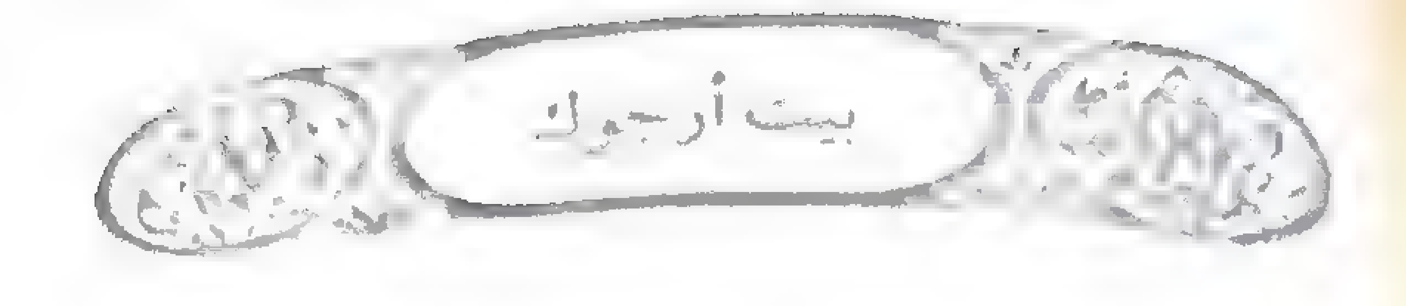


السيدة 1995

وقد حلا الوجود ولو أسعدك الحظ لك الساعة تشارف على الخامسة عصرًا في شوارع السيدة وحاراتها ستعرف ما أتكلم عنه، النسوة تخرج أن تخرج وتمشي للنوافذ والشرفات وقد وضعن وسادة ليتكئن بها على قواعد النوافذ الأرضية بينما أظلموا بيوتهم حتى يطردوا منها الذباب، يراقبون المارة والشارع كعرض سينمائي مشوق يتبادلن الحديث من الشرفات بما تحمله أنفسهن من أخبار ونميمة، أصحاب الحوانيت والمقاهي يرشون الأرض بدلوّ الماء طلبًا للرطوبة المحبّبة مع غروب الشمس، كوب الشاي الأحمر المسكر وسيجارة المساء أو رأس النارجيلة المشتعل على تبغ المعسل الأسود، لا لغة هنا ولا كلام، الكل ينصت للمذياع وقد تجلّى صوت (أم كلثوم) إذ بدأت إذاعتها الخاصة في بث إحدى أغنياتها التي يحفظها الشعب المصري كما يحفظون نصوص الدين، كان لمحطة أم كلثوم الإذاعية أهمية قصوى ليس لأنها تبث أغاني عظماء الطرب فقط بل لأنها كانت بمثابة ساعة رملية تجعلك لا تنظر في الساعة من الأساس، أول اغنية لأم كلثوم تنتهي في تمام السادسة ثم يليها عبد الوهاب وفريد الأطرش ونجاة الصغيرة تنتهي في السابعة ثم عبد الحليم ووردة وفايزة أحمد في تمام الثامنة ثم تبدأ أغنية لام كلثوم في الثامنة لينتهي البث في تمام

[illegible] كنت تمشي في شوارع [illegible] فتسمع فريد الأطرش مثلًا فتعرف أنه بين [illegible] والسادسة أو تسمع وردة فتعرف أنها تقريبًا في الثامنة مساءً، كنت [illegible] الصوت وقد تخففن من أحمالهن المضنية وقررن الانفصال عن واحديتهن في تمام الخامسة عصرًا تأهبًا لسماع الست، أما الأطفال فكانوا يلعبون في الشارع أو عند الجيران بعيدًا عن رقابة أمهاتهن وكأنهم في فسحة بعد أن دق جرس أم كلثوم التي رحلت منذ أكثر من عشرين عامًا وما زالت سطوتها لامعة مؤكدة على قلوب الجميع أما أجمل ما في هذا الوقت هو المقاهي وقد رحل الرجال عن بيوتهم وتحولقوا حول الموائد الرخامية ليلعبوا النرد والطاولة والدومينو وهم يحستون الشاي والينسون ويدخنون وينصتون بنصف تركيز لسومة وبالنصف الآخر يرمون النرد ويطرقعون بالقشاط على سطح لعبة الطاولة ويبصقون ويلعنون حظهم ويتهمون الطرف الآخر بأنه يقرص على الزهر أو ربما يخبئ راقصة في جيبه لجلب الحظ السعيد، كانت هذه الأيام بالنسبة لي هي عصر المزاج الرائق بالرغم من صباح المصريين الكئيب وتعب والزحام وكل شيء، رباه لقد كانت أيامًا جميلة مقبولة الدفع بأقل الأثمان.





السيدة زينب 1950

إنه أغسطس حيث اللهب وحيث ناره المتأججة في عز الظهيرة، الميدان تكاد يخلو من المارة، الكل التزم جحوره اتقاء لضربة شمس لا ترحم وكانت العربة الكارو تسير بحمولتها ويجرها حصان هزيل ظهرت أضلاعه بادي الإرهاق ينفخ منخاريه ليبرد رئتيه الساخنتين، تكاد العربة تميل على جانبها الأيمن من الحمل الذي تمثل في منقولات (أرجوك) من بيت كلوت بك لبيت السيدة الجديد، بينما تسير عربة حنطور وراء العربة الكارو تحمل (أرجوك) و (نادية) وصغيرها (حزين) وثلاث عاهرات أخريات من اختيار (أرجوك)، كانت نادية تطالع الشوارع وتشعر بنفس مشاعر الجرذ الذي غادر المجاري النتنة إلى الحقول الواسعة، وبالرغم من هجير أغسطس وتأفف (أرجوك) من هذا الطقس الملتهب إلا أن نادية لاحت على ثغرها الوردي شبحُ ابتسامة وهي ترى هذا الهجير هو ابتسامة ترحيب للعالم الجديد، لم يَدُر بخلدها أيّة مشاعر للخوف أو الرهبة، كانت تعتمد على حنكة أمها (أرجوك) والتي غيّرت اسمها للحاجّة (سميحة). وصلت العربتان إلى المقر الجديد ومن حُسنِ الحظ أن الناس مختبئون في البيوت اتقاءً للحر اللافح في هذا اليوم، كان الحانطور يسير متأرجحًا ليرجرج شحم (أرجوك) التي بدَتْ نافدة الصبر على قدرٍ غير عادي من العصبية.

- على مهلك يا عربجي.. هو إنت شايل زلط!

لوي العربجي عنقه لينعم بنظرة لنادية في حين تابعت (أرجوك):

- بص قُدّامك يا بأف في يومك الزُّحل ده.

برطم الرجل الغارق في العرق بشيء يمت للعنات على لسان النسوة الفالت وعرج إلى شارع ضيق لتقف وراء العربة الكارو المحمّلة بعفش (أرجوك) لتنزل الأخيرة ثم نادية ثم الثلاث عاهرات واللاتي كن يقفن على حدٍّ سواء من الغيرة والحقد على جمال نادية وامتيازها عند (أرجوك) وقفت نادية لتتفحص البيت الجديد والذي تراه لأول مرة ثم شاعت في وجهها ابتسامة.

كان بيتًا كبيرًا من طابق واحد عالي السقف له حديقة صغيرة تحفه من الأمام والخلف، انشغلت (أرجوك) بتوجيه عربجي الكارو ومساعده في نقل العفش بينما أسرعت نادية لتتفحص المنزل الجديد، خمس غرف وصالة كبيرة وتراسينة وأصص الصبار، سرت هبة هواء باردة تشير باتجاه البيت للشمال الرطب فشعرت نادية بالترطيب والتفاؤل وجعلت تتنقل بين غرف البيت محبورة سعيدة، أخيرًا تخلصت من غرف لوكاندة كلوت بك الضيقة ورائحتها المشوبة بالنجاسة والأبدان الغارقة في العرق، أخيرًا لن ترى المومسات وهن ينشرن ملاءات الفراش المُحمّلة بجرائم المضاجعة ، أخيرًا لن ترى الوجوه المصبوغة للغواني ولن تسمع تراشقهن بالعاهر من الكلام، أخيرًا ستغدو من مجاوري السيدة الكريمة التي تعشقها كما كان والدها يعشقها في الماضي البعيد ويحلف دومًا بغلاوتها حيث يقول (ومقام السيدة أنا قُلت كذا وكذا)، أخيرًا ستصبح سيدة محترمة وسيكون لها بيت وأم وابن، ليذهب الماضي للجحيم، وفي سرها شكرت (السيد جلال) على إصراره على إلغاء الدعارة. أنا اليوم نادية الأم المصونة، أنا اليوم شريفة بعيدة عن بؤر العار بعيدة عن الخطيئة.

- حاسب على الصناديق يا جعرّ منك له إنتوا شوية بهايم.

استفاقت على صوت (أرجوك) وهي تنهر الحمّالين وهم ينقلون صناديق الملابس

والمفروشات للداخل. رمقتها نادية وهي تدخل متجهمة للبيت، بدت أرجوك عصابية وعلى قدرٍ كبيرٍ من النرفزة

- مالك يا أما زعلانة ليه؟ ده البيت يشرح القلب؟

- اسكتي يا نادية أنا مش طايقة نفسي.

- ليه بس يا أمّا.

- تقولي شُفت مين دلوقتي؟

نظرت لها نادية بعدم اهتمام كامل وسألتها باسترخاء:

- شفتي مين يعني؟

- أبو شخة.

بهتت نادية واصفرّ لونها وانعقد لسانها.

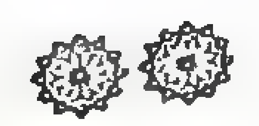
فهي لم تكره شخصًا في حياتها مثل هذا الشعبان، إنه واحدٌ من أسوأ القوادين (الجرارين) وأكثرهم سفالة وحقارة في شارع كلوب بك.

- تقصدي أبو شخة ال...

لطمت (أرجوك) على صدغها وقالت من بين أسنانها الفضية:

- أيوه يا أختي هو.. العرص بتاع خمارة يعقوب..

زاغت عيون نادية العسلية وتحجر القهر في عقلها وهمد حماسها بغتة وضمت صغيرها (حزين) وكأنها تحتمي به وأسرعت لتفرغ الصندوق من القطط التي وثبت للخارج تتشمم أرجاء المنزل الجديد.



وداعًا كلوت بك

السيدة زينب 1950

لكل شيء نهاية، كانت الأيام الأخيرة لنهاية نشاط شارع كلوت بك تشهد مواقف غريبة تستحق التسجيل، أنت تشاهد النسوة وهن يغادرن أعشاشهن وعلى رؤوسهن طيور الشؤم والضياع، كلهن يفكرن في نفس الشيء ماذا سنفعل وحل قرار مجلس النواب بإلغاء تجارتنا معناه.أن نعود شريفات مصونات؟ أم إن الشارع سيكون مصيرنا؟، نسوة في كل مراحل العمر ومن كل لون وصنف حتى الأجنبيات منهن كن في منتهى التعاسة وفي بيت (أرجوك) وقفت نادية تحمل ابنها ذا العامين تنتظر رجوعَ (أرجوك) من مكتب البوستة العمومي، كانت (أرجوك) لا تؤمن باكتناز المال المتحصل عليه في البيت خشية أن يطمع فيها أحدُ البطلجية ويذبحها ويأخذ كُلّ ما لديها من حصيلة عرق الدعارة، بل كانت تذهب يوميًا كل صباح لتضيف حصيلة الغرف الحمراء لتضيف رقمًا لدفتر التوفير خاصتها، كانت تضم نقودها على نقود (نادية) بالذات بعدما أقنعتها بأن تفعل مثلها وتكتنز النقود لهذا اليوم الأسود، اتفقت أرجوك أن تكون النسبة بينها وبين نادية الثلث والثلثين، كانت (أرجوك) شخصية عملية لأبعد الحدود تؤمن بالأرقام والحسابات وتحب المال حبًا جمًا، كانت خبرتها في الحياة قد علّمتها أن القرش الأبيض يصلح لكل ألوان الظروف وأنها بالمال

تشتري من سيعتني بها في خريفها، وكانت تصب كل خبراتها في بدن نادية ونفسيتها بلا كلل وبكل قسوة.

(قرشك هو شرفك وسترك في الدنيا يا بت)

(بالقرش تقدّري تشتري أي راجل وتشتري الاسم والشرف لو حبيتي)

(بقرشك تقدري تحجي وتتوبي وترجعي أنضف من الصيني بعد غسيله)

كانت (أرجوك) ترى في نادية نفسها وترى فيها شبابها الذي ذاب في أحضان الفحول على مدار خمسين عاماً على أقل تقدير، كانت (أرجوك) شخصية يقظة شديدة القسوة، حتى إن نادية كانت تعاني من قسوتها ولكنها التزمت الصمت حيال رعايتها لها ولابنها (حزين)، كانت (أرجوك) تنتقي لنادية صفوة الزبائن وكانت نادية بمثابة بطلة مسرحية البغاء التي تفتتح عروضها يوميًا من الساعة الثانية عشرة ظهرًا، كانت ترشدها دومًا وتعلمها أساليب الزينة والجمال والنظافة ومعاملة الرجال واستخراج ما في جيوبهم ، وفي الجانب الآخر كانت نادية تستوعب وتفعل بآلية ما تمليه عليها (أرجوك) من علوم الغواية، وتستحثها على صيانة جسدها وجمالها ليوم يأتي فيه (باشا) من الباشوات ليقتنيها محظية مدفوعة الثمن لأرجوك، كانت أرجوك تقدّر ذلك الجمال النادر الذي تتمتع به نادية وتجد فيه استثمارًا مستقبليًا فضربت حولها أسوارًا من الحماية من غوائل شارع كلوت بك وحارة حلاوتهم ونسائها اللواتي ذاب جمالهن في بحر الخمر والجنس، فتبدت نادية كزهرة بيضاء مزروعة في بركة من البراز، عندما سمعت (أرجوك) بنيّةِ الحكومة بإلغاء البغاء كانت تعد العدة للتصفية التي استمرت لثلاث سنوات والتي هي عمر نادية في سوق البغاء المرخّص في مصر المحروسة، لم تنسَ (أرجوك) أبدًا أن نادية كانت هدية السيدة زينب لها، وأنها ابنتها التي لم تلدها، وفيما كانت النساء تبيع أجسادها أسفل أعمدة الإنارة وتتلاحق مبهورة الأنفاس خلف كل ما يحمل صفة الذّكر، كانت نادية معززة مصونة لا يأوي

لفراشها إلا زبدة الزبائن في بيت (أرجوك)، كانت نادية قليلة الكلام تخزّ ما تعم
عمّا بداخلها لأحد، كم من رجل خطب ودّها وصارح (أرجوك) برغبته في تحتيه
ولكن أرجوك لم تكن لتفرط في نادية إلا بسعرٍ كبيرٍ لن يقدر عليه سوى باشا عز أو
تقدير، وعلى مشارف الخمسينيات كانت أرجوك قد صفت تركة البغاء وسرّحت ما
لديها من بغايا كتصرف أخير تقوم به (عايقة) مثل (أرجوك) لكل (مقطورة) عملت
لديها واستبقت نادية باعتبارها ابنتها المدللة غالية الثمن لذلك آثرت ألا تطرد لقططها
التي تربيهم مع ابنها على السطوح.

- اسمعي يا بت، أنا اشتريت بيت وهنروح نعيش فيه أنا وانتي وحزين

- فين البيت ده يا (أمّا سميحة)؟

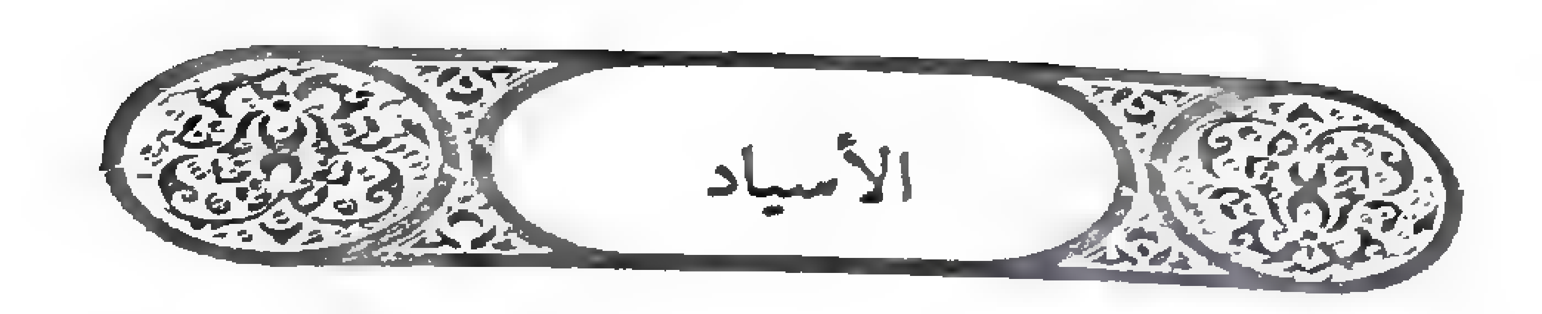
- في السيدة زينب طبعًا -شي الله يا طاهرة- نفس الحتة اللي ولدتك فيها

- ولدتيني؟

- أيوه يا بت من هنا ورايح أنا أمك وانتي بنتي.

ابتسمت نادية لأول مرة منذ وقت طويل واستبشرت خيرًا بمغادرتها إلى مسقط رأسها الافتراضي، في السيدة زينب.





الأسياد

في العرف الشعبي يوجد الأسياد، والأسياد يختلفون تبعًا للشخص وميوله وموقعه وقوته أو ضعفه، وفي علو الروحانيات الأسياد هم قرناء من الجن يتلزمون بمرافقة الشخص ويكون لهم الكلمة عليه وعلى تصرفاته ولا بُدَّ للشخص من استرضائهم واستمالتهم لصفه وإلا تحولت حياته لجحيم فعلي بلا أي مبالغة، والأسياد يملكون أسلحة ودروعًا لصد المعاكسات أو (العكوسات) وتلك العكوسات هي مواد تقف وتحول دون سعادة الإنسان واستقراره وتحقيق مسيرته ومآربه في الحياة فلو كان الأسياد راضين عنك فلسوف تتحول لزهرة فواحة توزع شذاها على المحيط وتكون مركز الاهتمام والسُّلطة والجمال ذلك أن الأسياد يحمونك بدروع متينة ويحافظون عليك ويتأكدون من حمايتك وإعطائك الحظ الوفير أما لو الأسياد غير راضين فالويل لك كل الويل، سيرفعون عنك الدروع ويتركونك معرضًا لكل العكوسات التي ستحيل حياتك لأوتوبيس مزدحم في عز الظهيرة، سيتركون المنافسة تمزقك ويسمحون للحسد بالتفعيل في حياتك وينزعون البركة من معيشتك ويقتلون فيك الجاذبية والجمال فتصبح منبوذًا تعيسًا مريضًا مُطارَدًا لا أنت على قيد الحياة ولا أنت ميت؛ لذلك كانت سطوة الأسياد عميقة متجذرة في حياتك إلى درجة لا تُصدَّق، وغضب الأسياد ينبع من أفعال كثيرة قد تقوم بها أنت أو يقوم بها أحدٌ غيرك فيقلبهم عليك ليجعلهم غاضبين ناقمين عليك يرفعون عنك الحماية والوصل الجيد معهم ومع المحيط من حولك.

وهناك طرق عديدة لإثارة غضب الأسياد منها أن لا تقوم بتحقيق النذر المفروض عليك أو أن تتكلم عنهم بما لا يليق أو تتحداهم أو تنكر وجودهم أو تؤذي أسياد أحد آخر وبالتأكيد تسمع في الأفلام القديمة جملة (ربنا يجعل كلامنا خفيف عليهم) وهو دعاء بأن يكون كلام اللسان خفيف الوطئ على هؤلاء الأسياد الذين يقدرون على إصابتك بالشلل والجزام والسعار والبلاهة والعبط وينزعون منك الحكمة والرزانة ويصيبونك بالخزي والعار والاحتياج، أي إن الأسياد في الثقافة الشعبية تحل محل الإرادة الإلهية أو تكون العصا الغليظة لها بشكلٍ أو بآخر، وحتى المتدينون من الناس في ذاك الوقت كانوا يرهبون كلمة الأسياد ويستعيذون بالله وبكلماته من شرورهم وآذاهم -وحسب كلام العم عشم فإنهم ماكرون أذكياء لا ينطلي عليهم كذب البشر ونفاقهم باعتبارهم من أبعاد لا تعترف بحواجز الجدران أو الزمن، إذًا الأسياد هنا مكان الضمير أو الأنا العليا في علم السايكولوجي.

ولو كنت تريد أن تعرف سيدك أو نوع سيدك فسأقول لك.

الأسياد نوعان لا ثالث لهما:

1- الأسياد العلويون وهم من ملائكة الجن وهم مخصصون للناس الأتقياء الأوفياء الذين يمشون على صراط الاستقامة لا يخونون ولا يغدرون وغضبهم قوي مُزلزِل له فعل التأديب فلو أصابك الكبر يكسرون نفسك وكبرياءك بالمرض مثلاً أو الإصابة أو التشوه أو الهجران أو الاحتياج للغير، ولو فتشت سرًا أو اغتبت أحدًا فيكون عقابك الفضيحة والخزي وإصابة سيرتك بأضعاف ما أصبت غيرك بالفضيحة والجرسة، ولو قبلت الظلم على الآخرين يكون ظلمهم لك مضاعفًا (إلى حدٍّ ما يشبه الكارما في علوم الطاقة) وهم ذوو تكوين رقيق شفاف ما إن يتعكر أو تصيبه البقع فيحدث الانقلاب.

2- الأسياد السفليون أو الأرضيون

وهم قساة القلوب لهم غلاظة وبشاعة وقدرة عالية على التخويف وهم

مخصصون لذوي الشخصيات الشريرة والفعالة والإيجابية والتي تتميز بالصرامة والحزم والقدرة على إيذاء الغير وهم في غضبهم عاصفون ريحهم لا تُبقي ولا تذر ويكون عقابهم قائمًا على الشماتة والتشفي والانسحاق الكامل ولا يمكن توقُّع ما يفعلون فلو كان العلويون يحدثون الضعف والهوان بغرض التاديب أما السفليون فهم يحدثون الدمار والتخريب لدرجة الموت في أحايين كثيرة.

- طيب مين اللي يقدر يحدد إن كانوا سفليين أو علويين يا عم عشم؟

- الروحاني اللي (بايع) هو بس اللي يعرف.

- اللي بايع؟ اللي بايع إيه؟

- اللي بايع عمره.

- بايع إزاي عمره؟ إزاي يعني؟

- اللي بايع لخالق الخلق واللي بايع للشيطان اسمهم روحانيين.

وقبل أن أستطرد في الأسئلة ابتسم وربت على كتفي ونهض كما يفعل الفيل الإفريقي واعتمر عمته الخضراء وثبتها جيدًا فزادته طولاً ومهابةً.

وخرج إلى حيث السطوح نفسه ووقف في وسطه وهو ينظر لي بتركيز كبير.

- افتح قلبك وشوف يا ولدي.

ضم الرجل قدميه بانتظام ووقف منكس الرأس وأخذ يتمتم بأشياء لم أستطع تمييزها ثم بدأ يدور حول محوره ببطء وانتظام ثم بدا يرفع يده وكأنه يسمع هو وحده إيقاع طبل ودفوف لا يسمعها غيره، وقفت مشدوهًا أراقب ذلك الجبل الذي يتحرك حول مركزه وأنا مندهش لهذه الخفة لرجل يتعدى وزنه المائتي كيلو على أقل تقدير، كان ككتلة واحدة أو كصخرة عاتية.توشك على اقتلاع نفسها من جبلها وهو يزيد في سرعته ويزيد، رباه إن أرض السطوح لن تتحمل ثقل هذا الرجل إضافةً لحركته الدائرية المتسارعة، كان مشهدًا مهيبًا في تلك اللية الصافية وشعرت أن النجوم قد التفتْ لتشاهد..

- توقف يا عم عشم أرجوك.

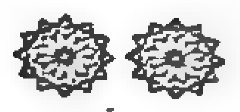
ولكن الرجل استمر في الدوران بينما طرف جلبابه الواسع استدار معه ليصنع مدارًا فلكيًا خاص به، كنا في الهزع الأخير من الليل وكانت هذه ليلته الأخيرة قبل أن يشد رحاله لمدينة طنطا لحضور فاعليات مولد السيد البدوي هناك، إنه يدور ويدور كبريمة بترول عملاقة. بدا أنه سيخرق الأرض ويهوي على رأس عائلة تجار المخدرات في الطابق الثالث، أرجوك توقف يا رجل إن الأرض تهتز وستنفسخ العروق الخشبية بالتأكيد وحال البيت لن يحتمل أكثر من ذلك، زاد الدوران وهو يرفع ساعديه ويوجه كفيه كأنه يدعي أو يُدعى لا أعرف ويدور ويدور بينما ارتفع طرف جلبابه ليمثل دائرة هو في مركزها بالضبط، فجأة ارتفع الجسد.. نعم ارتفع بمقدار بوصة أو يزيد إن لم تخدعني عيناي، لا لم تخدعني عيناي عرفت أنه ارتفع لأن اهتزاز الأرضية توقف، كان ما يزال يدور على هذا الارتفاع الطفيف وإن خفّت سرعة الدوران نفسها، ذهلت واشرأب عنقي وأنا أخشى الاقتراب من مجاله، كأنه ثقب أسود سيمتصني إلى جانب آخر شديد الرهبة، شعرت أن الهواء نفسه يدور مع دروان الرجل مغمض العينين العائم في ملكوت آخر، إنه البهاء.. إنه الجمال.. إنه المتعة الصافية، هكذا شعرت أنا؛ فكيف يكون شعوره هو، حسدته وتمنيت أو أصل لما وصل له هذا الرجل من صفاء وخفة، لم أنتبه لذلك الكائن الذي كان يراقبنا نحن الاثنين بعينيه الدائرتين الخبيثتين ووجهه العجوز السافل، كان يقف خلفي على سور السطوح فاغرًا فاه، لم أنتبه إلى اقترابه وهو يتسكع بالقرب مني، كنت مندمجًا تمامًا مع دوران العم عشم قبل أن أشعر بشيء يخترق مؤخرتي بسرعة، صرخت من الذعر والمفاجأة وأنا أنظر لما خلفي فوجدته ذلك النسناس الأجرب الشيطاني (بعبوص)، لا بُدّ أنه تسلق مسقط النور في غفلة من أبلة كريمة، اتقدت عيناي بالشرر لا بُدّ أن أسياد هذا النساس هم الأبالسة أنفسهم، آه يا ابن القرود والله لألقيك في الخرابة يا ابن الشياطين، ركضت وراءه وهو يتقافز ويزوم ضاحكا أو ساخرا، حاصرته في ركن الباب ومسكته من ذيله قبل أن يقفز

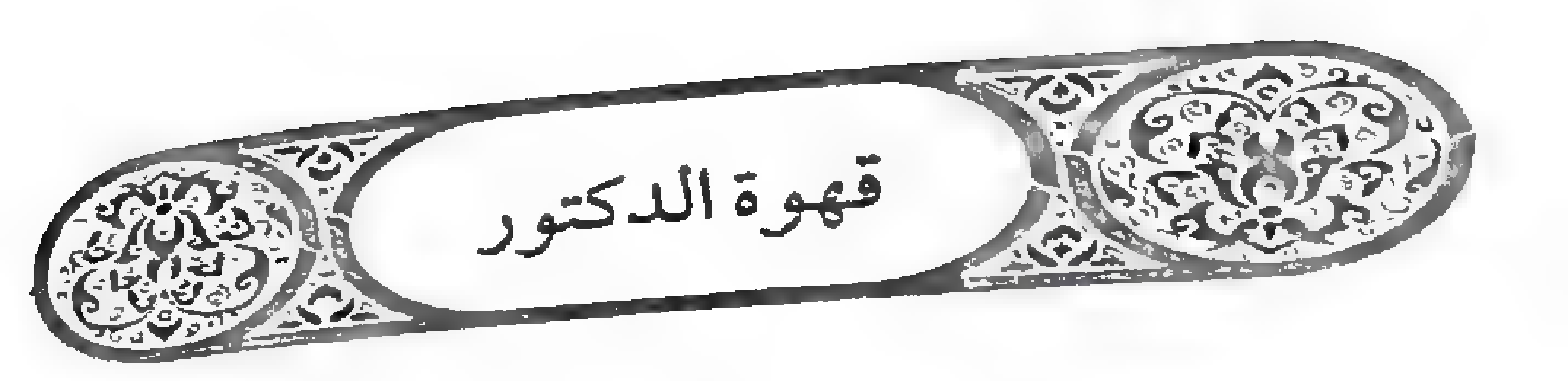
إلى مسقط النور، صرخ صرخة السعادين العاتية فانتبه العم عشم وهو في نشوته الدوارة والظاهر أنه فقد تركيزه فسقط فجأة على الأرض محدثًا زلزالاً ثماني درجات على الأقل في مقياس ريختر فاهتز السطح بالكامل كما لو كان سينهار مبططًا كل من في المنزل، نظر لي في عتاب فوجدني أمسك بذيل ذلك النسناس الشيطان يصرخ الأخير محاولاً خمشي وعضي وهو في حالة هياج، وإذ فجأة يباغتني ويعضني في كفي القابضة على طرف ذيله فصرخت تاركًا إياه ليركض في اتجاه العم عشم الذي وقف مشدوهًا ويحتمي فيما خلف ساقيه وهو ينظر إلى متشفيًا.

- إيه ده يا ولدي؟

أجبته بدون تفكير وأنا أتحسس مكان عضته بحقد وغلّ:

- ده.. ده.. ده بعبوص يا عم عشم.





1947

بالرغم من سعي النحاس باشا في الثلاثينيات لإلغاء نظام الفتونة والذي مكث لخمسة قرون كاملة يحكم الحارات والبشر، إلا أن الفتونة اتخذت شكلاً آخر لم تستطع الحكومة محوه، فلكل حارة أو منطقة فتوة كان يسمى في السيدة زينب بـ (عم المنطقة)، في الغالب كان يملك هذا (العمّ) مقهى شعبيًا أو تجارة معينة كالسلع التموينية مثلاً أو غير ذلك من الأنشطة التجارية التي كانت تمثل غطاءً قانونيًا لأعمال الفتونة سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة، وكل (عمّ) يكون له الكلمة النهائية في الفضّ في النزاعات بين أهالي المنطقة، ولو كان حظ المنطقة عاثرًا فسيحظون بعم ظالم مختلس متجبر يمارس أعمال البلطجة على الضعفاء لينصر الأغنياء وأصحاب النفوذ ومن يدفع بالجنيهات الحمراء، أما لو كان حظ المنطقة سعيدًا فسيحظون بعمّ عامر القلب رحيم يملك ضميرًا ويبطش بالأغنياء لصالح الفقراء وفي حكايتنا هنا نجد عمًّا من نوع خاص جدًّا، إنه المعلم (رضا الشحري) والشهير بـ (الدكتور) على سن ورمح، سمين لحيم أبيض البشرة يشوب وجهه حُمرةُ الأجانب، أزرق العينين يلبس جلبابًا ضيقًا أبيض ليبدو محشورًا فيه بكل كثافة وتكدُّس، يملك مقهى رحبًا يسع من الحبايب ألفًا، يفترش ناصية حارة المنفلوطي بكامل مساحتها، يجلس فيه

الرجل الخطير بسنوات عمره الأربعين لا يترك مبسم الشيشة أبدًا، ويمتص طوال النهار دخانها المطعم بالحشيش المغربي الفاخر، كان شخصية هادئة صموتًا لا يكترث كثيرًا لمجاملات الناس ولا لمحاولات التقرب إليه، أبوه هو (عبد العال الشحري) فتوة حقيقي توفي في السجن بعد تورطه مع آخرين في قضية مقتل الراقصة (امتثال فوزي) الشهيرة في الثلاثينيات تلك القضية التي أدت لإصدار قانون إلغاء الفتونة على يد رئيس الوزراء (النحاس باشا)، كان (عبد العال) لا ينجب سوى الإناث فقط، كان مزواجًا يحب النساء ويركض وراء الجمال بكل ما أوتي من قوة ونفوذ، كان مرهوب الجانب شديد البأس وأبًا لأكثر من عشرين أنثى على الأقل، كانت مشكلة إنجاب الولد هي أكبر المشاكل التي تؤرق منام (عبد العال) إلى أن تعرّف على الراقصة (ريتا) ذات الأصل الأرمني والتي كانت تعمل أيضًا كـ (كومبارس) في ملهى البسفور في رمسيس، تزوجها رغمًا عن أنفِ كل المحيطين به، فهي في الأخير راقصة محترفة في هز الخصر وحمل الشمعدان مع مجموعة أخرى من غواني البسفور، اعتزلت (ريتا) الرقص وتفرغت لزوجها الفتوة واستنامت لسطوته وحمايته بل وأنجبت له الولد الذي تمناه فرفعها لعرش المنطقة باعتبارها أمًا لوريث الفتونة من بعده، جاء الولد صورة طبق الأصل من أمه ذات الدم الأجنبي، جاء بعين زرقاوين جميلتين وأهداب ذهبية ووجه مشوب بحمرة الصحة ونظر ضعيف اسلتزم ارتداءه نظارة طبية منذ كان في السادسة من عمره، ورث من أبيه جثمانه المتين مع لمسة بدانة وبأس قويين وإن كانت تشوبه بعض مظاهر الطرواة والرومانسية بشعره المجعد ولثغته في حرف الراء والتي لا تخطئها أذن أبناء البلد لتؤكد على أصلٍ لا يمت لأصل أولاد المنطقة المنقادين لقافية ودلال لغة الشارع، لم يتجرأ أحدٌ في الحي على ذِكر ماضي أمه الراقصة، فهي أم فتوتهم القادم ولا بُدّ لها من الاحترام والتبجيل، كانت تسير في الدوكار الخاص بها وإلى جانبها (رضا) كأنهم من أولاد الخاصة الملكية، حرصت (ريتا) على تعليمه إلى أن حصل على شهادة الكفاءة (الابتدائية)، كانت أمه تعده ليصير

طبيبًا وبسبب تلك الرغبة القديمة وارتدائه للنظارات الطبية لقبه المحيطين باسم (الدكتور) اعتمادًا على نظارته ووجهه الأجنبي النظيف، ولكن الأب الصارم كان له رأيٌ آخر، فهو لا يريد أن تخرج الفتونة من بيت الشحري العريق، فاكتفى من تعليم الولد بشهادة الكفاءة واصطحبه معه في مغامراته وصولاته وجولاته ليتشرب ذلك الفتى ذو السحنة الأجنبية من مشارب الفتونة على أصولها من أبيه وحاشية أبيه، وبالرغم من إلقاء الأب خلف القضبان إلا أن بطانة الفتوة المخلصين بايعوا ابنه العشريني بأن يصبح الفتوة الجديد خصوصًا وأنه تشرّب على أيديهم كل تعاليم الفتونة بالإضافة لأملاك الأب في منطقة جنينة ناميش وناحية الماوردي كلها، ورث (الدكتور) شغف أبيه بالجمال ودان لأمه بالولاء الكامل والتي أصرت على تزويجه من ابنة واحدة من أقاربها ولكن الزواج لم يسفر إلا عن انفصال سريع نتيجة اكتشاف عجزه الذي تأكد منه بعد عدة زواجات أخرى ليتفرغ بعد ذلك لأعمال الفتونة وإدراة أملاك أبيه وسلطته على أهل المنطقة بعيدا عن الخصوبة ، ومع مرور الزمن وموت الأب في الليمان تحول (الدكتور) لرمز فخري للمنطقة ومارس كل ما كان يمارسه الفتوات من فصلٍ للمنازعات وتحكيم وإنصاف للضعيف ضد الظالم، فـ (الدكتور) رجل ثري وحيد وتدور الشائعات حول قوة فحولته كرجل زينبي خصيب، كان يرعى مصالح أهل المنطقة وكتيبة كاملة من أخواته وأمه التي هي ربة حياته وراعيته الأولى، ربما كانت التسمية بـ (الدكتور) هي اختصار عميق لكل ما يرواد أهل المنطقة من تشكيك في أصله وخصوبته وديانته بحكم أصل الأم المسيحي الأرمني.

ولم يسد فراغ (الدكتور) ولم يجد سلواه إلا بالهروب لأرض الملذات في كلوت بك، كانت رحلاته سرية لا يعرفها سوى مساعديه المخلصين وهم لا يتعدون أصابع اليد الواحدة، فهم يقومون بحراسته حتى لا تضايقه أية ذبابة من عوام الشارع، فهو ملكهم ومن حقه عليهم أن يتركوه (يشوف مزاجه) خصوصًا مع حالة الاكتئاب والوحدة التي يعاني منها ومن الفراغ الذي يحيط بحياته، فكانت رحلاته لخارج

المنطقة تتلخص في زيارته لمواخير كلوت بك ينتقي منها كل مرة طبقًا مختلفًا؛ فمرة يفضل طبق البصارة المخلوط برائحة زيوت الشعر والقرنفل لبنات البلد أو طبقًا فرنسيًا معتقًا بالكونياك وارد اليونان أو أستراليا أو طبق الكوارع مخلوطًا برائحة عرق البديات من العواهر المحليين. كان من عاداته أنه يأخذ المرأة مرة واحدة فقط ولا يكرر لقاءه مع أي مومس مهما كانت مطهوة بجودة. في كل مرة ينام على فراش واحدة من "إياهن" لليلة واحدة وأحيانًا كان يقضي دقائق ويغادر، يكتفي بالتحسيس واعتصار ارتخائه الدائم فقط، في حين كانت تنتظره بطالته في الأسفل حتى يُشفى وطره المحموم بالوحدة والاكتئاب وقلة الحيلة تجاه مزايا الفحول. كان عجزه يمثل حائطًا مرتفعًا من التحفظ والتعقيد في معاملته. لم يجد في عائلة أبيه ولا أبناء أخواته أي شاب يصلح للفتونة فكان كابوسه يطابق كابوس أبيه وإن كان الأخير قد لحق ببعض الحظ في إنجابه أما (الدكتور) فقد حُرِمَ تمامًا من إنبات أي بذرة . كانت حكايته مثالاً للتندر السري بين الأهالي لكنّ أحدًا لم يكن ليجرؤ حتى على التلميح خصوصًا بعد حادث (بسيوني الوحش) والذي كان في حالة سُكرٍ شديدة فتفاخر أمام بعضهم بأنه فحلٌ خصيب وأنه ابن المنطقة الحقيقي الذي يستحق لقب عمّ الحي، ووصل الكلام لـ (الدكتور) طازجًا مبهرًا بزيادة في بعض التفاصيل، وفي غضون أسبوع كانت النيران تأكل بيت (بسيوني الوحش) وتأتي على عائلته بالكامل من زوجات وأطفال كان يفخر بهم بسيوني بأنهم من إنتاج فحولته البلدية. وتحوّل بسيوني بين ليلة وضحاها إلى درويش يبيت في العراء بجوار مسجد السيدة، تحول لعبرة وحكاية مفزعة جديرة بقطع لسان كل من يجرؤ على التعرض لحالة الفتوة . كان يحلو له ارتياد شارع كلوت بك والتسكع بين خمارات الشارع ومداعبة النساء اللائي يقفن تحت نواطير الإضاءة يتحسسهن ويلقي لهن ببعض القروش أما ليلته فكانت من إخراج (فرغلي أبو شخة) وهو رجلٌ رقيعٌ يتكلم كالنساء وينتقي له من اللحوم الطازجة التي يأتي بها الموردون لشارع البغاء بين حينٍ وآخر. كان (فرغلي) رجلاً

طويل القامة كالثعبان أصلع الرأس يمتلك وجهًا من أخس وأحقر الوجوه التي تقابلها في حياتك بزينته المكونة من الكحل وأحمر الشفاه وجلبابه المحزق ومشيته التي تنافش الراقصات ومصاغه الذي يرتديه ودوره الحقير في الجرّ و(الجرّان) هو الذي يجر الزبائن الرجال ويقترح عليهم أسماء بيوتٍ وعاهرات ليأخذ نصيبه مزدوجًا من البيت ومن الزبون على حدٍّ سواء، اشتهر بـ (أبو شخة) لأنه كان يبول على نفسه كلما ضربته أمه في الشارع وهي بالمناسبة إحدى عاهراته القدامى والتي توفيت مذبوحة في ظروف غامضة، اشتهر بشذوذه وشغفه بالفصول وإن بدا هذا الأمر عاديًا جدًا في حي البغاء، تعرّف إلى (الدكتور) وعرف مدى قوته وسطوته فارتمى تحت قدمه طمعًا في الحماية وعارضًا كل ما لديه من بضاعة واقتراحات حمراء، واستمر الحال سنوات كان فيها (أبو شخة) هو سكرتير الدكتور يأتي له بالجديد والجيد من المومسات ويأخذ ما تجود به كف الدكتور الكريمة من ريالات فضية.

- العواف يا دكتور.

- مرحب يا أبو شخة.

- سمعت إن العايقة (سميحة أرجوك) جابت مقطورة بنت سبعتاشر بس إيه لوز اللوز تقولش بنت خواجات.

انتبه الدكتور وارتج جسده بالإثارة وأشار لرجاله في جلستهم بخمارة يعقوب بكلوت بك.

- إوعى تطلع زي البت عزيزة العرجة اللي جبتها من جمعة.

شهق (أبو شخة) وتفل في عبه ثلاثًا.

- يا أختي يا (دكتور) إنت قلبك أسود كده ليه بقولك بنت سبعتاشر يعني لسة بخيرها.

- طب روح وسع السكة ووضب القعدة.

وألقى له بجنيهين لزوم تهيئة الجو والاتفاق مع (أرجوك).

فذهب الفؤاد لبيت (أرجوك) وطلب منها نادية ولكنها رفضت بأدب اتقاء لشره:

- ما أقدرش يا أبو شخة البت حامل.

اندهش الفؤاد من الرفض وشخر لها بأنفه:

- وماله يا الدلعدي.

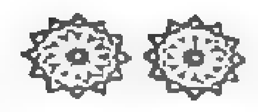
رفضت (أرجوك) بتحفظ حتى لا تثير ذلك الثعبان وقالت بهدوء:

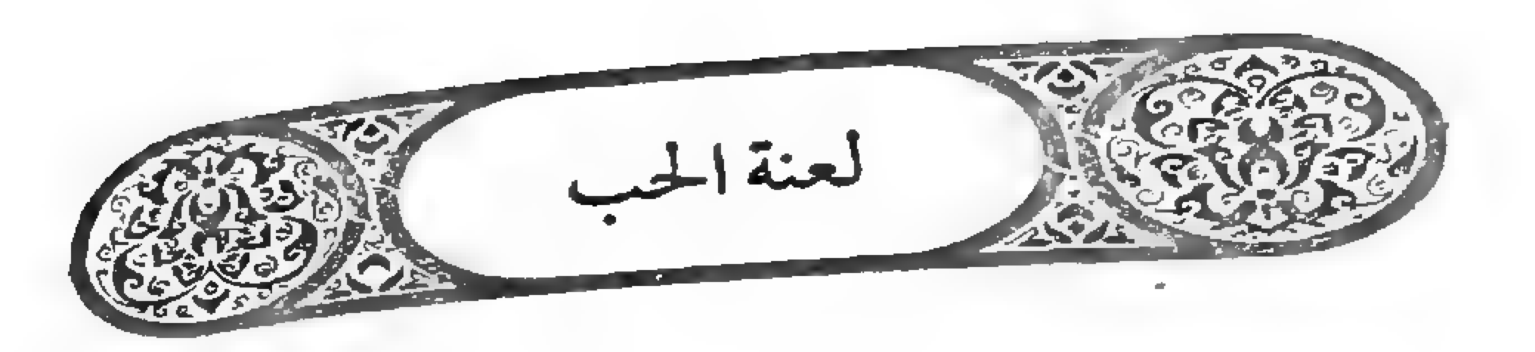
- لما تولد وتربعن هتقبي تحت أمره.

- اسمعي يا مرة أنا لما أقول لازم يبقى لازم، ولا انتي غاوية لبش؟

وتركها بعدما رمى لها جنيها وخرج يتبختر كالعوالم وسمعته يتغنج بأغنية فاحشة وهو يغادرها:

(آه ياني آه ياني دي العضة لسه مالماني طب عض في الكتف التاني آه ياني آه ياني)





كلوت بك 1948

لم تكن الحيرة والرفض أو حتى الخوف هو ما يعتريَ (أرجوك) وهي تدلف لغرفة نادية الواقعة على سطوح البيت، كانت نادية تعاني من ألمٍ وضعفٍ عام أورثها أيامها ولياليها التي قضتها في الشارع بحثًا عن لقمة، وجدتها نائمة على ظهرها وقد انفرجت شفتاها تتنفس بصعوبة، بينما بطنها العالية تتحرك بتموج يشي بساعة مخاض قريبة، اقتربت منها لتجد حبات العرق منعقدة على جبينها وباتت في حال سيئة جدًا، لا بُدّ وأنها تعاني من الحمى، وضعت أرجوك كفيها على جبين البنت لتجد أن حرارتها مرتفعة جدًا لدرجة أن البنت بات تهلوس في نومها، انذعرت (أرجوك) وقامت لتنادي (عليش) صبي الفندق من أعلى الدرج:

- واد يا عليش يا واد يا عليش.

طل برأسه من بئر السلك بطاقيته البيضاء وعيونه المستديرة:

- اجري بسرعة انده على (نوال) الممرضة لحسن نادية تعبانة أوي.

- حمامة يا أبلتي.

وقبل أن تصل الممرضة كان الدكتور وحاشيته قد اقتحموا المكان وبصحبتهم الجرار (أبو شخة) فاصطدم صبي اللوكاندة به وهو خارج مسرعًا لجلب الممرضة.

- فين أبلتك يا عليش؟

ارتبك الصبي لرؤية الدكتور وحاشيته وتلعثم قائلاً:

- فوق السطوح.

فناوله (أبو شخة) ضربة على قفاه وهو يترنم بغنج قبيح:

- بتعمل إيه فوق السطوح يا صبي العايقة.

ارتبك الصبي ولم يعرف هل يقول أم يلتزم الصمت لكنه حزم أمره:

- أصل.. أصل البت نادية بتولد.

لمعت عينا (الدكتور) ببريق غير مفهوم عندما سمع الخبر وتركه يذهب.

- أنا طالع لأرجوك لوحدي استنوني هنا.

صعد الدرج إلى أن وصل للسطوح ثم اقترب من غرفة نادية فسمع (أرجوك) تبكي:

- فوقي يابت مالك كده سايخة شدي حيلك، يا سيدة زينب انتعيها بالسلامة.

اقتحم الغرفة ليجد نادية غارقة في العرق وعلى وشك ولادة فيما يبدو متعثرة نظرًا لسنها الصغير أما أرجوك فانذعرت وهي تقف أمامه.

- لا مؤاخذة يا معلم البت شكلها بتولد ممكن تستناني تحت.

نظر (الدكتور) لنادية وهي في حالةٍ ما بين الضعف والهذيان ليدق قلبه بعنفٍ وتخترق الفتاة قلبه بلا رحمة، لقد عشقها من أول لحظة وانصهر قلبه ووجدانه مفتورًا على حالها، بل إنه تصوّر أنها زوجته، وأنها تضع طفله هو الآن، اقترب منهما أكثر تحت نظرات الدهشة العارمة من (أرجوك) بل وركع إلى جوار فراشها الفقير وهو يتأمل وجهها العاجي الممتقع والذي استحال للأصفر من فرط الحمى.

- هي دي.

هزت أرجوك رأسها بأن نعم.

- اسمها إيه؟

- اسمها نادية يا معلم

عاود النظر إلى محيا نادية وفاضت من عينيه الدموع.

- هي حبلت من مين يا مرة؟ من زبون؟

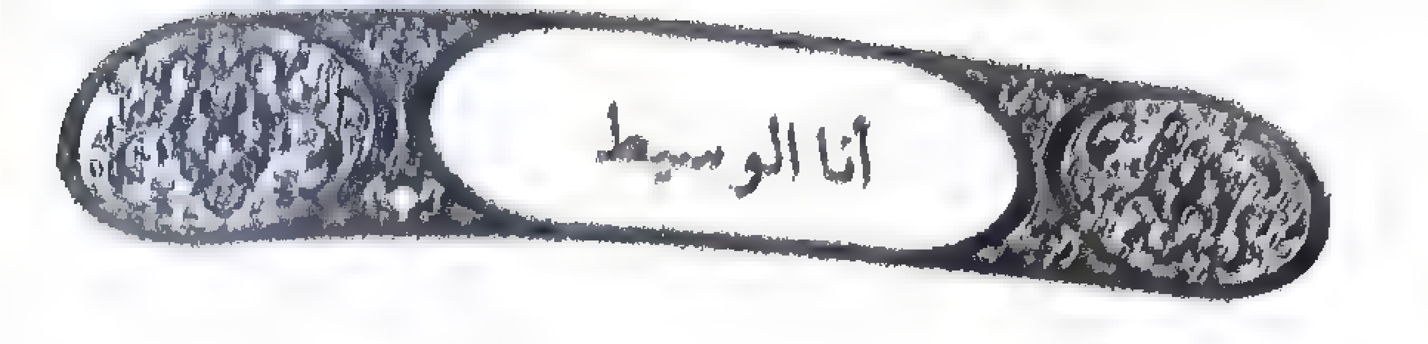
- أبدًا وشرفك الغالي أنا لقيتها على باب السيدة زينب.

بمجرد أن نطقت (أرجوك) باسم (السيدة زينب) حتى خفق قلبه، فأي شخص يقطن السيدة زينب يخفق قلبه فورًا عند سماع أي شيء يمت بصلة لمقام الطاهرة أم العواجز، إذًا فهي من منطقته وابنة حيِّه فزاد هذا من تعلقه بها أكثر.

وصلت الممرضة (نوال) وهي امرأة عجفاء تلبس العوينات مطرودة من عملها الأصلي بالقصر العيني، واحترفت عمليات إجهاض عاهرات الشارع إذا حدث حمل ما ترتدي المصاغ الذهبي وتتمتع بسلطة وحزم كبير في الشارع. افسحوا لها الطريق بينما وقف الدكتور وقلبه يخفق بشتى المشاعر، إن الله قد أرسل لك الولد يا رضا على حين غرة وبأبسط الطرق، لقد وصل الولد الذي تمنيته كثيرًا، نزل مسرعًا لبهو اللوكاندا وأمر رجاله بالانصراف، اندهش الرجال من أوامره ولكنهم لم يجدوا بُدًا من الانصياع لأوامره فهم يخشونه ويهابون غضبته التي لا تبقي ولا تذر حين يعصف به الغضب، حتى القواد (أبو شخة) خرج معهم وهو ينظر وراءه وقد اشتعل فضوله، ترى لماذا صرفهم الدكتور كما تصرف أنت عفاريت المكان، وهل هذا له علاقة بالفتاة والولادة أم إن في الأمر شيئًا آخر، عاد (الدكتور) إلى السطوح ليجد (أرجوك) واقفة خارج الغرفة وقد علاها التوتر والقلق بينما تمارس الممرضة (نوال) عملها في توليد نادية، كان الدكتور شخصًا رقيق الحشاشية فعلاً وإن كان يخفي ذلك طوال الوقت بسبب صيته القيادي في مجال الفتونة، في الحقيقة كان يعاني عجزًا جنسيًا أطاح بتوازنه النفسي ولم يكن سبب عدم الإنجاب هو العقم كما أشاع عن نفسه بل كان بسبب عجزه التام والذي أورثه انسحابًا كاملاً، طاف على المشايخ والأطباء بلا فائدة.

بلا أي أمل في أن يواصل شيئًا ما يمت لعالم الرجال بصلة، في كل مرة كان يحاول يعود مخذولًا غارقًا في عرق المهانة لم يعرف سببًا محددًا لهذا الأمر الشائك، أشاع من نفسه العقم حتى لا تمتهن رجولته بعار حقيقي، كان يراقب رجاله وهم يفتكون بالنساء في حسرة وحسد ويشعر أن الله يعاقبه على شيء لا يدري سببه، كان الحشيش والطعام والصمت هما رفقاؤه المخلصون؛ فالحشيش يرك خيالًا رحيمًا والطعام يعوضه بلذة موازية والصمت يكلله بالحكمة والغموض الذي يجعله مرهوب الجانب، كان لا يرحم من يسمع أنه تفوه بشيء عليه لذا أحاط الرعب بالجميع وصار يخشاه حتى أخواله البنات من البطش، كانت أمه تشعر بأنه على غير ما يرام ولكنها لا تملك حياله أي شيء، فهو يملك كل شيء ولكن هذا النقص المفزع أطاح بكل بنيان للسعادة في حياته، وحين رأى نادية في مخادعها تصوّرها زوجته وهي تضع الآن ابنه. كان يعشقها كما يعشق مريض السكر الشكولاتة، ولكن كيف الوصول؟ ازداد رعبه وهو يتصورها تنظر لعجزه وتقارن بينه وبين أقل رجل عاشرته في عملها، لسوف تحتقره بلا ريب، لسوف تسخر منه وتفضحه بين العاهرات في الشارع، لسوف يصير مسخة الشارع ومسرح تندرهم، اتكأ على أحزانه وتبعها من بعيد وهو يتمنى في قرارة نفسه فقط أن يقبّل قدميها.





السيدة زينب 1995

مئات الكتب وملايين الكلمات تتكدس في فراغ هذه الغرفة، الإضاءة خافتة وإن كان ناجي يعتمد على الأباجورات وليس الضوء العمومي، تتوسط الغرفة مائدة مستديرة يحيط بها أربعة مقاعد، لكن ناجي لا يدع أحدًا يدخل الغرفة فلماذا أربعة مقاعد؟ الأجدر به أن يضع مقعدًا واحدًا، كانت الخمر تتلاعب برأسي الخام والذي لم يستقبل بعد أيًا من مشتقات الكحول، سحبت مقعدًا لأريح جسدي المترنح عليه فأوقفني ناجي بحزم ألا أفعل، فأعده متذمرًا وأمسكني من يدي ليطوف بي على جدران الغرفة والتي هي عبارة عن رفوف مكدسة بالكتب، مجلدات تحمل عناوين بلغات لا أعرفها من الأساس فأنا ابن التعليم الحكومي أعرف الإنجيليزية بالتهجئة وتفصيص الكلمات وأعرف الفرنسية بعلامات الفواصل ونهايات الكلمات، لكنّ بعضًا من هذه المجلدات يحمل عناوينَ كأنها من لغات ميتة على الأرجح، كان يتوقف بين الحينِ والآخر ليتفحص بعض الكتب، وجدته يخرج مجلدًا عملاقًا لحُسْنِ الحظ أنه يحمل عنوانًا باللغة العربية (الإنسان روحٌ لا جسد) اسم المؤلف رؤوف عبيد، ذكرني هذا الاسم بأنيس عبيد أكبر مترجم للأفلام الاجنبية في مصر وقتها والذي كنت تقرأ اسمه قبل عرض أي فيلم أو مسلسل (طُبِعَت الترجمة بمعامل أنيس عبيد).

- إيه الكتاب ده يا ناجي؟

- ده مش كتاب ده اسمه (مطوّل) يعني بحث شامل عن علوم الروح مجمّع من تجارب مسجلة وموثقة من جميع أنحاء العالم.

كان الكتاب غليظًا يتعدى الألف صفحة على أقل تقدير، تناولت منه الكتاب بحرص لأتفحصه بنصف وعيٍ، كلام في كلام في إشارات لمراجع مع بيوت شعر مطول مع صور رمادية تمثل أشخاصًا يجلسون حول شخص معصوب العينين، الحقيقة أنني لم أجده كتابًا شيقًا بل وجدته يشبه كثيرًا مراجع علوم الحشرات والجيولوجيا التي تزخر بها مكتبة كلية الزراعة والتي لا أجرؤ على الاقتراب منها، أنا أفضل سلسلة (ملف المستقبل ورجل المستحيل وألغاز المغامرين الخمسة) فهي خفيفة طازجة تحمل الشيء الكثير من المتعة والتسلية أما هذا الكتاب جدير برسائل الماجستير والدكتوراه، ابتسم ناجي وهو يتسعيد الكتاب ذا الغلاف السميك بحرص ويضعه مكانه.

- مصيرك هتعرف قيمة الكتب دي، دي تعتبر أمهات الكتب ولازم هترجعلها في يوم من الأيام.

جاوبته وأنا أبتسم بخجل:

- ما أظنش إني هعمل كده دي حاجات معقدة بتفكرني بالأبحاث والامتحانات بتاعة الكلية.

تصاعدت رائحة الطعام فغادرني ناجي مسرعًا لمطبخه العزيز، يبدو أنه توتر وخاف من احتراق كتلة اللحم التي يطهوها، فأكملت أنا دوراني حول موائد الغرفة لأتفحص باقي الكتب دون اكتراث حقيقي، إلى أن وصلت لرف يحمل عددًا من القوارير الزجاجية مختلفة الأحجام التي تذكرني بقسم البيولوجي، قوارير زجاجية كبيرة نوعًا ما مملوءة بسائلٍ ما، اقتربت منها أكثر، أنا أعرف تلك القوارير، إنها مخصصة للمعامل ولا تصلح إلا لتركها على الرفوف بما تحمله من سائل الفورمالين

نفاذ الرائحة، كان بداخل القوارير أشياء لم أتبينها جيدًا بسبب الإضاءة الخافتة للغرفة، اقتربت من واحد عملاق منها ودققت النظر، لا لا لا، كانت قارورة بحجم ماكينة الحياكة يسبح في سائلها الأصفر ما يشبه الشعر الطويل، مددت يدي وأدرت القارورة لتنفلت مني شهقة عاتية، إذ كان هناك ما يشبه.. لا ليس ما يشبه إنها.. إنها رأس بشرية بالتأكيد.. عاااا لا إنها فعلاً رأسٌ بشرية مقطوعة لأنثى ذات شعر طويلٍ يلتف حول رأسها وغاطسة تمامًا في الفورمالين، رأس بشري في قارورة يا نهاري الأسود، تجلت الحقيقة زاعقة في وجهي، هذه القوارير تحمل أجزاءً من الجسد البشري، هناك أيضًا بعض الأجنة غير مكتملة النمو بدت كأسماك تم نهشها في عمق المحيط، هذه القارورة بها ساعدٌ صغيرٌ بدا لطفلٍ، ماعت نفسي وشعرت برغبة شديدة في القيء وتلبش بدني بالقشعريرة، لماذا يا ناجي تحتفظ بهذه المواد الجديرة بالمشرحة؟، توترت لأقصى درجة فأنا من بيئة شعبية متدينة تقدس الموت والأموات، ما زلت أتذكر أبي حين اقتحم عليّ غرفتي فوجدني أمارس تشريح ضفدعة مصلوبة على طبق من الشمع، لن أنسى تعابيرَ وجهه وهو يبصرني وأنا أشق جلد البطن، لقد سبّني وكاد أن يهجم عليّ ضاربًا وجهي في الطبق مع أنها مجرد ضفدعة فما بالك بالجسد البشري، إننا ننظر للجسد في العموم بأن له حرمة الدين والصلاة، فكيف يتأتى لشخص أن يحتفظ بأجزاء من الجسد البشري في بيته الخاص، للحظة شعرت بالمقت لناجي نفسه ووجدتني أنعته بالكافر الذي لا يمتلك قلبًا، غرقت في أفكاري السوداء قبل أن أشهق مجددًا وأنا أسمع صوته ورائي.

- دي مواد مهمة جدًّا عشان الجلسات.

التفتُّ ورائي بذعر وأنا أبصره يقف بهدوء وهو يتأملني بجسده البدين.

فبادرته بسؤال أعرف الإجابة عنه:

- هي الحاجات دي حقيقية يا ناجي؟

- أيوه يا تامر حقيقية وضرورية في أبحاث الجمعية.

- جمعية إيه؟

وضع كفه على كتفي ليثبتني أثناء إلقاء الاعتراف الأخير.

- جمعية الصمت.

- صمت؟

- أيوه صمت.. صمت الموت.

لمِزَ لوهي في عدم فهم مُطلَق وأنا أردد كلامه كالمنوم مغناطيسيًّا:

- صمت الموت؟

كان قد استعاد شخصيته الكاسحة التي أعرفها وبدت عيناه تلمعان بقوة وتركيز واستطرد قائلاً:

- صمت الموت يا مغفل.. جمعية الصمت دي مهتمة بمعرفة أخبار الأموات والتواصل معاهم.

- نعم..؟

- نعامة لما ترفصك ركز في اللي هقوله كويس.

انتبهت له مستعيدًا شخصيتي العملية أنا الآخر؛ فأنا طالب في كلية علمية ولا بُدّ من استعادة ضبط النفس كيلا أظهر أمامه بمظهر الغرير الجاهل.

- إنت بتجيلك زيارات من نادية مش كده؟

- آه

- خلاص يبقى إنت (ميديام) يعني إنت وسيط.

- وسيط؟

- أيوه وسيط يعني إنت عندك القدرة على التواصل مع الأرواح.

- وده إيه علاقته بجمعية الصمت دي؟

- علاقته مهمة جدًّا لأن جمعية الصمت هي جمعية للتواصل مع الأموات.

لم أفهم العلاقة أو المنطق فأنا أوقن تمامًا أن ناجي شخصية فريدة تتكلم في السياسة وحقوق الإنسان باعتباره عضوًا في (الهيومان راتس واتش human rights watch) كما عرفت لاحقًا، لكن موضوع الأرواح هذا شيءٌ غير وارد خصوصًا أنه كان يتعامل مع موضوع نادية بمقدار واضح من السخرية.

- مش مهم تفهم كل حاجة المهم إنك تعرف إنك وسيط.

- والله يا ناجي أنا ما فاهم حاجة خالص.

انتابته العصبية التي أعرفها عنه جيدًا:

- افهم يا بهيم.. الجمعية دي مهتمة بتحضير الأرواح والتواصل مع الموتى.

سألته في غباء:

- وهوالموضوع ده محتاج جمعية أصلاً؟

- طبعًا، لازم يكون فيه ترابط أصيل بين أعضاء الجمعية وأنا قررت إنك تنضم لينا.

توترت أعضائي الداخلية وهممت بالخروج من الغرفة فأنا أكره الغموض وأعشقه في ذات الوقت ولم تكن سنين عمري العشرون بقادرة على الاستيعاب الكلي للموضوع ولكنه استوقفني بحزم قائلاً:

- افهم يا غشيم مش أي حد ممكن ينضم للجمعية دي وأنا عارف إنهم ممكن يعترضوا لكن أنا متأكد من إنك الشخص المناسب.

- بس أنا مش عاوز أنضم للحاجات المخيفة دي.

اقترب وجهه مني وهو يحملق في وجهي وقال بصرامة:

- إنت مالكش اختيار أصلاً، وكمان هدفعلك 1000 جنيه عن كل جلسة.

استدارت عيناي لفداحة المبلغ:

- ياااااه 1000 جنيه حتة واحدة.

فقال بشيء من الغواية والترغيب.

- وممكن أكتر لو قدرت تخترق الطبقات.

- طبقات إيه يا ناجي مش فاهم.

ضربني على وجهي بلطف وقال لي وهو يبتسم:

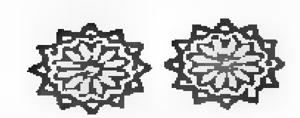
- بلاش أسئلة كتير وحضّر نفسك بس عشان أول جلسة بعد بكرة.

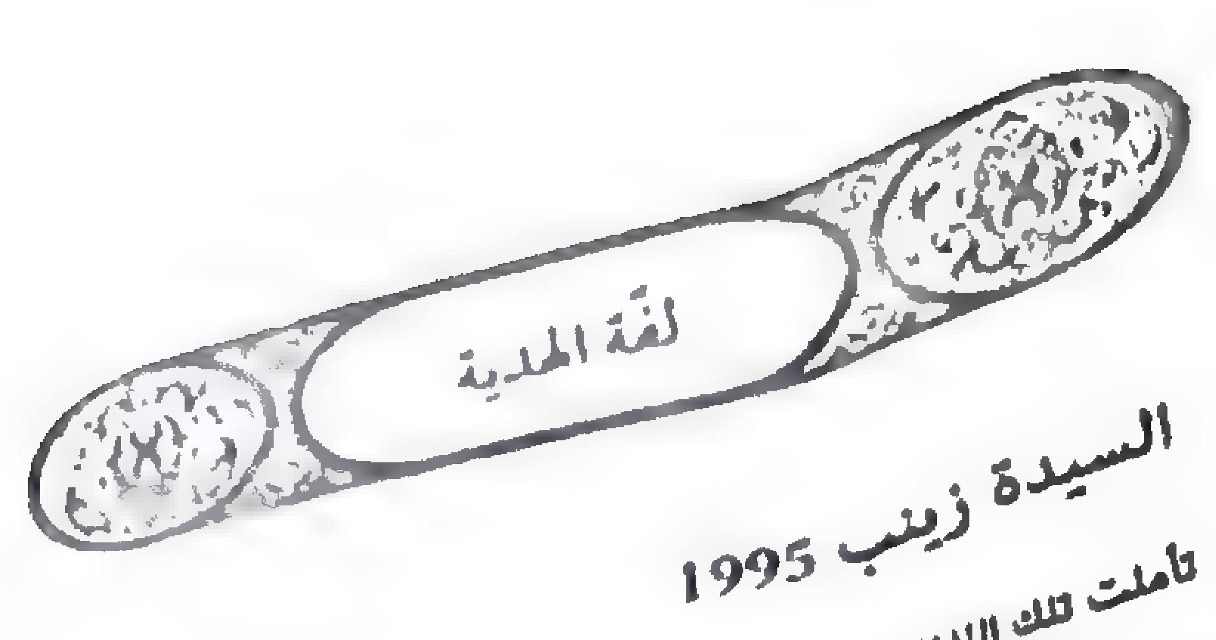
تحمست للـ 1000 جنيه وقلت في اندفاع:

- طب ليه مش النهارده؟

فقهقه ضاحكًا وهو يربت على جبيني:

- عشان بعد بكرة القمر هيكون بدر يا...





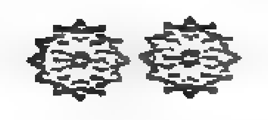
السيدة زينب 1995

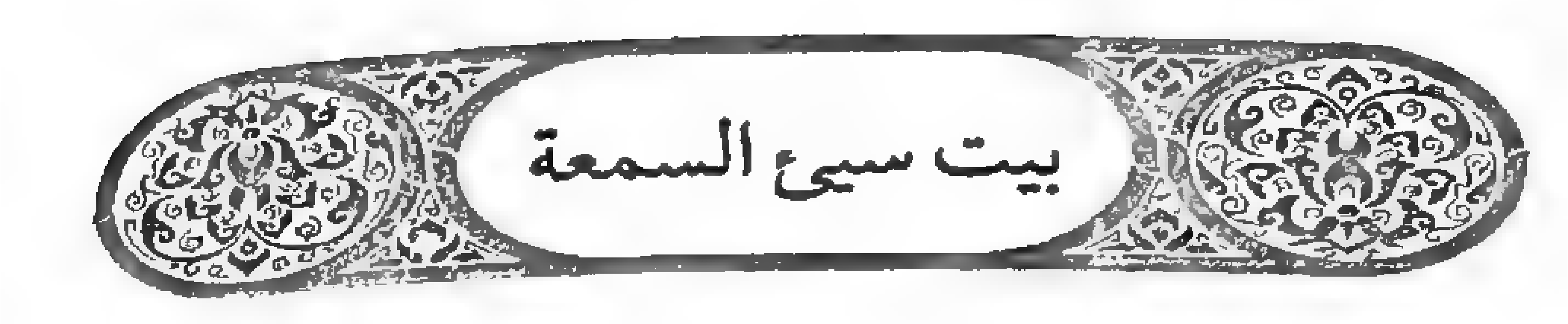
تأملت تلك اللفافة وأنا غارق في الصمت، ترى ما الذي تحمله تلك الملعونة على نفسها، لا بدّ أنها تحتوي على بقايا بشرية وطلاسم وعهود مع الشياطين، لا بدّ أنها تحتوي على عزيمة ولو حللتها فلسوف تصيبني تلك العزيمة بالبرص والجرب والحمـ أنا أعرف أن مثل تلك الأمور لا تمزح وأنها قاسية بما يكفي لأن تطبع مستقبلـ وضعت اللفة على الطبلية الخشبية وملكتني الحيرة في الساعات القادمة، هل أقدم بقرار متهور على حلها أم أتركها كما هي، كان الفقر يمض أحشائي بالجوع والإحسا بالقهر والبارانويا، إنني بائس بما يكفي ولا ينبع الجمل بحمل بطيخة إضافية، مثلا أفعل ماذا أفعل؟، ذهبت لحمامي التعيس وغسلت خدوشي وسحجاتي التي أصابت ذراعي، تبًا إن هذه الخدوش تحرقني فعلاً، ولكن لا بدّ من بعض التطهير ولو حتى بالماء، كانت تلك اللفافة تحتل تفكيري وتجلس مكان مخي في رأسي هل أحل وثاقها أم أتركها بسلام، بحثت في مطبخي البائس عن أي شيء يؤكل، أنا من الناس التي كلما توترت بحثت عن الطعام، إن الطعام يجعلنا نشعر بأننا جيدون وعلى قيد الحياة لم أجد سوى بعض الخبز المحمص والذي أفضله في طعامي، أحب تلك القرقشة التي أشعر بأنها تحولني لخروف يجتر طعامه، رفعت الغلاية على النار لإعداد بعض الشاي

وقررت أن تكون وجبتي هي الخبز المقرمش مع حسوات من الشاي المسكر، اعتبرت أن هذا الخبز هو بديل للبسكويت، إن الفقر عضني بأنيابه الزرقاء ولا مناص من اللجوء لبيت أبي العامر باللحم والملوخية، فكرت جديًا في زيارة أمي والتي قاطعتني بسبب قرار استقلالي عن حضنها، أعرف أنها ستعبس في وجهي وتتظاهر بالقسوة لكنها أبدًا لن تتركني جائعًا، أعرف أن أبي لسوف يجعل مني أضحوكة ولسوف يتندر بأخباري بين أصدقائه على القهوة عن ذلك الشاب المتهور الذي أصر على الانفصال حاسبًا أن شعره الناعم وقوامه الرياضي لسوف يغنويه عن رعاية أهله، كنت أقضم الخبز الجاف أحسو الشاي وأنا أفكر في محشي ورق الكرنب وفخذ البطة وطبق الملوخية المقدس من يدي أمي الغالية، انهمرت مني الدموع شفقة على حالي وعلى تواجُدي في مثل تلك البناية القديمة لأشرب من القلة الفخارية بعيدًا عن مبرد أمي العامر ولأستحم بالماء البارد بعيدًا عن السخان الكهربي في بيت أبي القوي، لا بُدَّ أن أذهب إلى أمي، كم أشتاق لكِ يا أمي أريد دفئًا وحنانًا ورعاية حتى ولو شابتها بعضُ الصرامة والعقاب، أريد طعامًا مُسبكا بالمسلي البلدي من يديك الغاليتين، أريد فراشي الوثير وغرفتي وجيراني وأهلي الذين يحوطون بيتنا إحاطة السوار بالمعصم، لكن كيف أعود وكيف أعترف بفشلي أمامهم، إنهم لن يرحموني ولن يتهاونوا في تصفية استقلالي بكل جبروت، كانت منطقتي الأصلية (البساتين) ذلك الحي الريفي هو مسقط رأسي الحقيقي ومرتع طفولتي وصباي ومراهقتي، وهو بمثابة بلدي الأم إذ إنني أنحدر من عائلة عريقة تمثل السكان الأصليين لهذه المنطقة، ينتشر أهل أبي وأمي كالجراد في ربوعه ويملكون من العادات والتقاليد ما يوطد استقرارهم في الحي إلى الأبد، أما أنا فأفضل الطفو أكثر من العوم في بحر الحياة، نعم سأذهب إلى أمي وليكن ما يكون، سأهجر شقتي التي عانيت الأمرّين في جمع أجرتها، سأترك بيت السيدة ولن أتناول بعد الآن طعام النذور الذي لا أملك أن أعترض على مذاقه، سأهجر قراءة الفنجان التي جعلتني أغتصب قصرًا من (سكسكة) التي باغتتني في

حمامي وكأنني أستحم على قارعة الطريق، سأغادر للميدان الحبيب ودقائق التحرش
الشاذ من ذلك المدعو (كوارشي) والذي يذكرني بالكلب المسعور، لن أذكر شيئًا عن
تجربتي في المعايشة لأهلي ولن أتكلم عن معاناتي وسأرجع طالبًا معافًا في كلية لا
يحبها، لن أقول شيئًا عن عشقي لفتاة أصبحت راقصة في مواخير شارع الهرم، لن
لن، سأعود منكفئًا نادمًا لبيت أهلي وسأتقبل وصاية أبي وتحكمه في مواعيد حضوري
وانصرافي لبيته العامر، سأعيش مثل من هم على شاكلتي بلا زيادة ولا نقصان،
سأترك جدتي تقول ما يحلو لها عن حفيدها الأكبر الذي ظنّ نفسه رجلاً قبل الأوان
وعاد منكس الراس لحضنها طالبًا العفو والمزيد من الطعام، اندفعت الدموع تبلل
وجهي وأنا أنظر لشقتي الصغيرة والتي هي كل ما أملك نظرة وداع، سأغادر أبلة
كريمة وأم زينهم وتجار المخدرات وأعود لأهلي المرموقين بالفضيلة والملل، إنني جنّغ
مُشرّد لا أملك أي شيء، لا أملك الحب ولا النقود ولا المستقبل ولا العقل الرزين
إن للتهور مذاقًا يُشبه السمك المملح، فهو فوّاح بالتعفن قاهر لخياشيمك مالح ذو
رائحة خبيثة تجعلك فواح برائحة لا هي مستحبة ولا هي منفّرة بل هي منفرة في
الغالب الأعم من الأحوال، عزمت على المغادرة ولملمت كتبي ومراجعي توطئة لترك
كل شيء خلفي، سأغلق الشقة لأجل غير معلوم وربما أفقد حيازتها مع مرور الوقت
لقد كانت تجربة جميلة بها كل التفاصيل التي تجعلها لن تُنسى أبدًا، أهل السيدة
ومسجدها ومقامها العامر بحضورها الطاهر والشوارع العتيقة والحاحرت الزاخرة
بالحكايا والعبر، نعم سأغادر بلا رجعة.. أتممت جمع حاجياتي وكتبي ومتعلقاتي
في صندوق كرتوني وأخرجته لخارج الشقة، وعدت أدراجي لأتأكد من غلق النوافذ
وصنابير المياه وخرجت للصالة الفسيحة وأنا أكاد لا أرى من انهمار الدموع الغزيرة
التي تتدفق من عيني، ثم... وجدت تلك الهرة السمينة تمارس خدش اللفافة التي
تركتها بكل رهبتها على الطلبية الخشبية، كانت تجرها جرًا وهي تموء كأنها تتكلم، ما
الذي أتى بكِ الآن يا نادية؟! ما الذي تريدين قوله؟! كانت تمزق الغلاف البلاستيكي

للفافة وتعقرها بأسنانها وهي تموء، اقتربت منها لأمنعها عن التمزيق فما كان من الهرة إلا أن فحت في وجهي بكل شراسة لم أعهدها بها وعادت للتمزيق والخدش، كلما أبعدتها برفق عادت بعناد للخمش والتمزيق أفهم من هذا أنها تريد فض تلك اللفافة مثلاً؟ مسحت دموعي وافقت من شجوني وأحزاني وإحساسي بالخسارة الفادحة وركعت لأرى ما تفعله الهرة، فهدأت وكأنها تعرف أنني سأمزق اللفافة بدلاً منها، كانت تموء وهي تتمسح بجانبي وساقي المنثنيتين إلى الأرض كأنها تشجعني، عالجت الكيس البلاستيكي المهترئ فوجدت طبقة من قماش ملون لطرحة نسائية بهتت ألوانها المتداخلة، رجعت للمطبخ وعدت بسكين صغير وقطعت القماش وفردته على الأرض لأجد كيسًا بلاستيكيًا آخر أسود اللون، ارتفعت دقات قلبي بينما الهرة تموء وتمسح رأسها في ساعدي كأنها لا تطيق الانتظار، مزقت الكيس لتتفتح عيناي عن آخرهما وأشهق من فرط الذهول..





بيت سيئ السمعة

السيدة 1956

انتظمت الحياة في البيت الجديد وتبين أن (أرجوك) لها غرض آخر غير الاستقرار، كانت أشد صرامة عن ذي قبل وتعاملت مع الجميع تعامُل الاستعباد، كانت نادية إحدى أربع نساء احتفظت بهن (أرجوك) لإشعار آخر بعدما باعت الأخريات لحركنش وغيره، كانت تمثل دور النخاس بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، استقلت نادية بغرفة صغيرة بصحبة ابنها حزين واستقلت الثلاث الأخريات غرفة واسعة، كن: ثلاث الأولى اسمها (عراقية البايشة) ولا أعرف معنى لكلمة (بايشة) ربما تعني الاهتراء أو التآكل لا أعلم ما الذي يبوش أو يتآكل في المرأة، وهي أقرب لخادمة منها لعاهرة تلبس العوينات، نحيلة، أقرب للشكل الرجولي وتمثل دور جارية أرجوك، فهي من تعتني بتظافتها واستحمامها وتدليكها وتقبل الشتائم والإهانات منها طوال الوقت، بالإضافة إلى أنها كانت المسئولة عن نظافة المنزل وترتيبه وطهي الطعام والخروج للسوق وإن كان الأمر لا يخلو من أشياء أخرى سنعرفها في حينها، كانت (البايشة) في الثلاثين من عمرها تملك نفس سلاطة لسان سيدتها وتعمل جاسوسًا لها على الباقيات تنقل لها الأخبار والأحاديث، عاهرة فاشلة لا تملك من المواصفات ما يجعلها تصلح للفراش اللهم إلا بعض السّريحة وبائعي الخردة والصبيان على أعتاب

المراهقة والذين كانت تفضلهم عن أي صنف آخر وكثيرًا ما اكتشفت أرجوك علاقتها بصبي الكواء وصبي اللبان وصبي المخبز، كانت (أرجوك) ترفعها علقة ساخنة كل يوم تقريبًا وتنعتها بأبشع الألفاظ، ولكنها لا تستغني عنها أبدًا؛ فهي جارية مثالية تقوم بكل أعمال التنظيف البدني لـ (أرجوك) والعمل على إزالة الشعر وحك كعوب (أرجوك) بالحجر وتدليك ساقيها أوقات العصاري حين تجلس أرجوك في بهو المنزل لتمتص دخان المعسل، أما الثانية فكانت تدعى (جمالات شلتة) ذات أصل ريفي وارد محافظة الفيوم، بيضاء مستديرة ذات شعر قصير مجعد وجسد مدملج بصدر صغير وأكتف مكتنزة ومؤخرة هي أبرز ما فيها إذ إنها كاملة الاستدارة والدوران حول محور جسدها القصير تهتز بعنف كلما تحركت أقل حركة مثال للشكل الكمثري بكل كمال، تشعر أنها على قدر ما من البلاهة في أواخر العشرينيات تم علفها في بيت أرجوك لتصل لتلك الصورة الأقرب للكاريكاتور منها للواقع، كانت في شارع كلوت بك يعشقها الرجال الذين يفضلون الغرام الخلفي -وهم كثيرون بالمناسبة-، كان تخصصها النادر هو سر احتفاظ (أرجوك) بها واستخدمتها (أرجوك) أحسن استخدام وبالتالي احتفظت بها لتغطية ذلك الميل المتفشي في الرجال، أما الأخيرة فهي (فوزية أنجاچيه) طويلة القامة تميل للنحافة تحمل وجهًا طويلاً وعينين سوداوين لوزيتين وشعرًا أسود طويلاً تعرف جيدًا كيف تستخدم أدوات الزينة والألوان الفاقعة على سطح وجهها الكبير، كانت تملك صدرًا بارزًا فعلاً تجيد استخدامه ليشارك في كل كلامها بالاهتزاز فحين تعبر عن الرفض يهتز الثديان يمينًا ويسارًا وحين تعبر عن الموافقة يهتز النهدان لأعلى وأسفل، كانت فوزية تجيد الرقص وترتدي بِدَل الرقص وتقوم بليلة كاملة من الاحتفال، كان دورها هو (الملاغية) أو (الأنجاچيه) إذ إنها طليقة اللسان مجاملة مرحبة بالضيوف مبتسمة تعرف كيف تجُر من جيوب الضيوف والزبائن النقود وتقدِّم لهم الخمر والمزات بتوجيهات من (أرجوك) مباشرة، تهتم بها أرجوك اهتمامًا كبيرًا وتعتمد عليها في السهرات الخاصة كفقرة فنية شاملة باقي الخدمات، أما نادية

فكانت الوحيدة التي تسود شخصيتها جاذبية خام، فهي تميل للصمت والعبوس، ولكن جمالها وأنوثتها يمثلان تحديًا يحرك أعتى القلوب بلا جدال، تكتفي نادية فقط بالحضور وهذا كل ما تفعله لتجذب لها الأنظار، وكانت أرجوك تعرف القيمة الحقيقية لجاذبية نادية التي لا تنضب بالإضافة لكونها تحبها حبًا معقدًا وتكتفي منها بحديث مقتضب وطاعة نادية العمياء لها تكفي وزيادة، مع مرور الوقت بات بيت أرجوك هو بيت سيئ السمعة لدى الجيران، وتم ضرب حصار غير مرئي حول البيت من التحفظ في المعاملة من الجيران وإن لم يصل هذا التحفظ لدرجة العداوة ولسبب آخر هو أن (عم المنطقة الدكتور) كان دائم التردد عليهن فضرب جدارًا آخر مشمول بحماية المعلم نفسه، أم أن أرجوك نقلت نشاطها للسيدة ولكن بصورة مختلفة وتكنيك آخر، فكانت ترسل مقطوراتها إلى الزبائن ليبتن ليلتهن عندهم ويأتين في الصباح محملات بالثمن والهدايا، شبكة صغيرة قوامها ثلاث أما الوحيد الذي كان يدخل عليهن بلا خوف فهو (الدكتور) والذي كان يهيم حبًا في نادية، بل كان يغير عليها ولكن بشكل غير مُعلَن ويهتم لأمر ابنها (حزين)، بينما تمارس نادية مهامها بكل قرف ورفض، ولكنها لا تملك من أمرها شيئًا ولو أبدت اعتراضًا ولو بسيطًا كانت أرجوك تعاقبها وتعنّفها وتذكّرها بماضيها وبأنها من لمت لحمها وهي بعد حبلى تتسول في الميدان غير البعيد عن بيتهن، وقامت ثورة يوليو وسبح الناس في الديمقراطية الجديدة وأحلام المساواة وتغيُّر شكل الشارع والناس الذين تشبعوا بمبادئ الثورة وفي ليلة صيفية بينما كان الراديو الموضوع على الرف الخشبي ينقل أنباء العدوان الثلاثي عام 1956 جاء (الدكتور) وجلس قبالة أرجوك التي ظهرت عليها علامات الشيخوخة فبدت في زينتها الفاقعة أكبر سنًا، أما الدكتور والذي شارف على الخمسين فقد صارحها بآخر شيء يخطر على بالها:

- بقوللك إيه يا سميحة.

- أؤمرني يا سيد الناس.

- أنا نويت أتجوز.

- يا ألف نهار أبيض.

- أنا عاوز آخد نادية.

تدلى فك العايقة لأسفل ببلاهة، فنادية كانت أمام عينه طوال ست سنوات تخرج وتمارس مشاوير (أرجوك) الحمراء تحت عينيه، إنه حتى لم يشرع في إعلان رغبته فيها مع أنها كانت رهن إشارته، الحقيقة أن الدكتور تدهورت حالته الجنسية إثر عجزٍ ألمّ به إثر البدانة المفرطة واليبوسة التي اعتلت عظامه من فرط الدسم فبات مجرد متفرج يتسلى بالصحبة دون محاولة جادة منه للممارسة خشية افتضاح أمره في بيت أرجوك وكيلا تهتز صورته، والحقيقة الأكثر غرابة هي أنه كان يعشق نادية ولكنه أبدًا لم يكن ليغامر بربطها معه في زواج يعرف جيدًا أنه سيكون عذريًا بلا اتصال مؤكد، ولكن وبعد أن رحلت أمه ودفنها في مقابر الأرسوزكس بمصر القديمة عانى الأمرّين والخواء في البيت الكبير، كانت نادية لا تبرح خياله وبتخيلها نائمة إلى جواره على فراشه الوثير البارد.

لم يُخفَ على أرجوك أن الرجل يعيبه شيء ما، لا بُدّ أنه يعاني عجزًا ما وإلا لكان استفاد من علاقته بأرجوك في جرّ ما يحلو له من بناتها، ولكنه اليوم يطلب يد أكثر بناتها جمالاً والأكثر إقبالاً، تحركت لديها السمة التجارية والقدرة على المساومة.

- لكن نادية دي (غالية) أوي عندي يا معلم.

التقطت الدكتور طرف الخيط وفهم ما ترنو له أرجوك.

- هديكي اللي تطلبيه وزيادة.

لعبت الأرقام براس أرجوك وأجّلت البت في الموضوع للقاء قادمٍ حتى تزيد من حماسه على بذل الأكثر من الزيادة التي قال عنها الدكتور.

وفي المساء وصلت نادية من إحدى مشاوير أرجوك وقد بان عليها الكدر والغم، تدافعت القطط لتلهو وتموء احتفالاً بها؛ فقد كانت نادية تعشق القطط وتتأكد من تغذيتهم ورعايتهم بالرغم من اعتراض أرجوك ولكنها أبدًا لم تتخلَّ عنهم.

- مالك يا بت؟

- قرفت خلاص ونفسي غمت عليًا من العيشة دي.

- حصل إيه فهميني؟

- الراجل الزفت بتاع السمك ده معفن وريحته تقرف أنا خلاص مش قادرة.

هزت أرجوك رأسها الراكب على رولمان بلي فاهتز معها قرطها الطويل ومارست المماطلة وهي تجهز للخبر الكبير:

- طب وإيه الجديد؟ ما إحنا طول عمرنا كده.

شوحت نادية بذراعها وبان الغل على محياها وهي تنظر لأرجوك بغضب:

- أنا كنت فاكرة إننا هنعيش بشرف لكن آديكي نازلة فيًا بيع وشرا.. لحد إمتى القرف ده؟

- وكنا هنعيش منين يا روح أمك، كنت هأكّلك إنتي والمحروس ابنك منين، كنتي هتلبسي وتتزوقي منين!

- أنا كنت عايزة أعيش محترمة يا أمًا.

- قصدك تعيشي شحّاتة زي ما لاقيتك على باب السيدة.

نظرت نادية للأرض ونفرت من عينيها الدموع وفتحت حقيبة يدها وألقت لأرجوك بإيراد ليلتها مع تاجر السمك وقبل أن تقوم من مجلسها أمسكتها أرجوك لتخبرها بالمفاجأة.

- الدكتور طلب إيدك يا نادية.

تجمدت نادية في مكانها وهي ترمق أمها بذهول، فقد كانت أرجوك تتندر بحالة الدكتور وبعجزه الواضح عن المعاشرة، هي الآن تطلب منها الاقتران به.

- بس إنتي قلتي قبل كده إنه...

- أيوه قلت.. وماله يعني هو إنتي ناقصة رجالة.

نظرت لها نادية بعمق ولم تعلّق:

- ها قلتي إيه يا بت؟

- على رأيك أنا مش ناقصة رجالة وأهو ضل راجل ولا ضل حيطة.

- ومش أي راجل ده عم المنطقة وهيغرّقك في العز إنتي وابنك.

- موافقة، أهو أخلص من النجاسة والقرف اللي أنا فيه.

طفرت من عيني أرجوك دمعة سرعان ما مسحتها بيدها قبل أن تردف:

- هتسيبيني يا بت؟

اقتربت نادية منها بعزم وثقة وقالت وهي تقبّل رأسها:

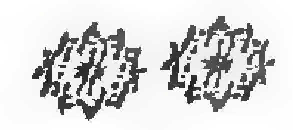
- وأسيب جلدي ودراعي لو هيخلصني من قرفك يا كركوبة.

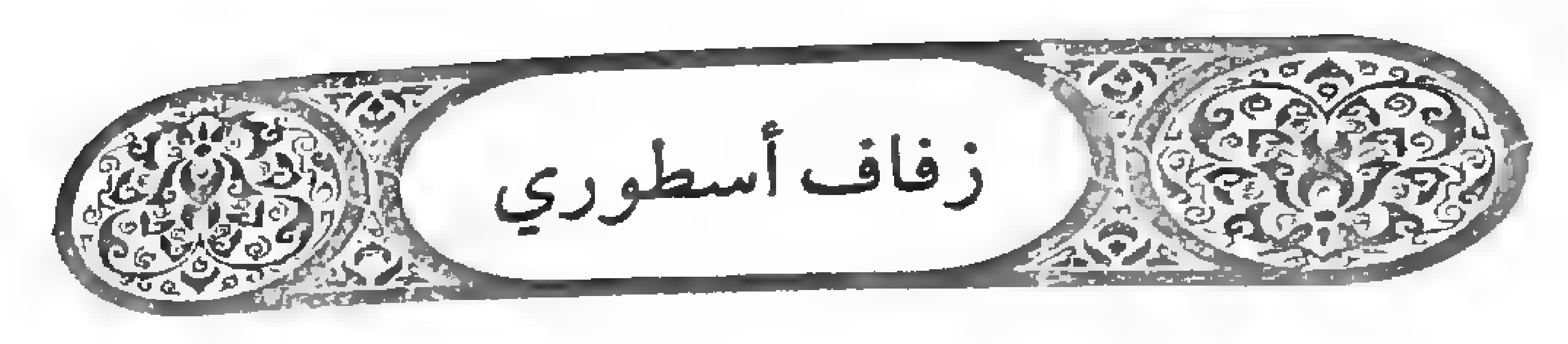
ضحكت أرجوك من تعليق نادية وضربتها على صدرها بغنج.

- آه يا وسخة صحيح تربية أرجوك بجد.

بادلتها نادية الضحكات:

- يلا غلسيني، ومن النهارده إوعي تجيبلي سيرة الشغل تاني.





زفاف أسطوري

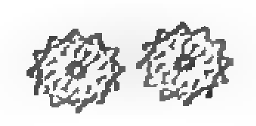
السيدة 1956

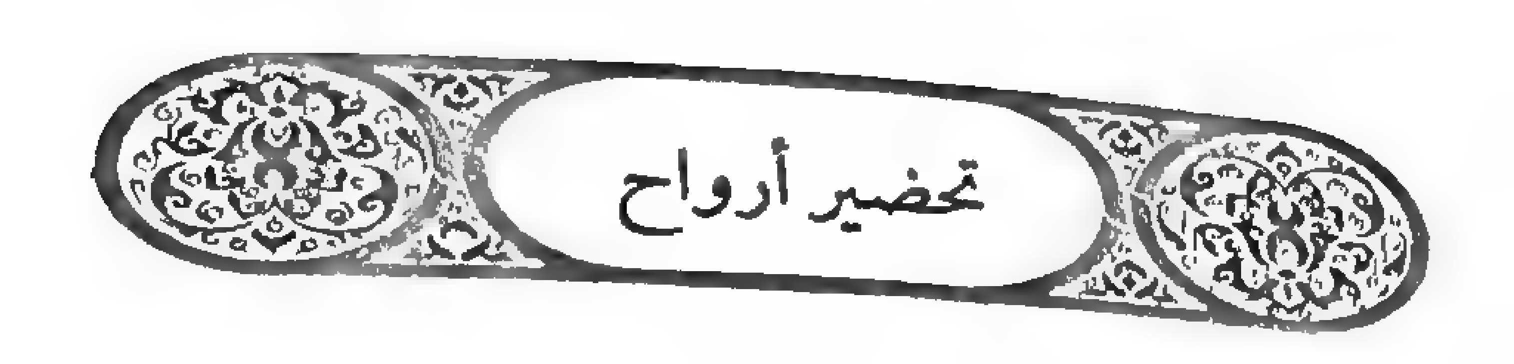
ساومت (أرجوك) بكل قوة وفازت بصفقة لا تُصدّق؛ فقد دفع (الدكتور) ما يزيد عن ألفي جنيه لها نظير أن تتنازل له عن نادية، كان حدس أرجوك لا يخيب، إذ إنها شعرت بأن هذه البنت كنز لا يفنى، وها هي النبوءة تتحقق يا سميحة وبركات السيدة هلت بالخير، ودُفع في المتسولة مهرًا يوازي أربعين عذراء، تألقت نادية في ثوب أبيض طويل مُحلّى بشراشيب فضية وظهرت كملاك للناظرين. اشترطت نادية أن يكون بيت الزوجية هو بيت أرجوك نفسه لأنها تحبه وتعودت عليه، فوافق الدكتور على طلبها بلا تردد، وانتقلت أرجوك لشقة واسعة في شارع زين العابدين، شقة أرضية استقلتها مع الثلاثة الأخريات مع ابنها حزين بالطبع، وتم إعادة ترميم بيت أرجوك القديم وتجديد سقفه الخشبي لتغدو الخمس غرف بالكامل مِلك يمين نادية، أعدها الدكتور بأفخر الرياش والتحف وخصص لـ (حزين) غرفة بفراش وليد وألعاب حين يأتي، أما الزفاف فكان أسطوريًا بالمعنى المتعارَف عليه وقتها وأحيا الحفل المطرب شكوكو والراقصة زينات علوي، تبدت نادية كملكة متوّجة على عرش الحي في حين ظهر الدكتور أصغر من سنه الحقيقي بعشر سنوات، كان الحقد يتأجج في القلوب على تلك المومس التي فازت أخيرًا بـ (عم المنطقة)، وفي ليلة

الزفاف اجتمع الدكتور مع نادية أخيرًا تحت سقف غرفة (أرجوك) القديمة الواسعة وقد تحلت بالزينة والرياش الفاخرة وتزودت المائدة بالمشوي والمحمر من اللحم والطيور والكونياك، خلعت نادية عنها ثوب الزفاف وهي تفكر في توتر كيف سيكون اللقاء بينها وبين الدكتور وهي تعرف حقيقة حالته، ولكنها لم تتصور التفاصيل، لقد همست أرجوك في أذنها بأن الرجل الذي يعاني من تلك الحالة لا بُدّ وأن تأخذيه بالسياسة والاطمئنان حتى لا يثور ويهدم البيت فوق رأسها (اسمعي يا بت الراجل من دول مهما كان تعبان اسمه راجل لازم يرضع ويشبع ويتكرع وينام)، كانت تخشى من اللقاء وقد خلا البيت وذهب (حزين) مع جدته لشقة زين العابدين حتى يخلو الجو للعاشق السمين، انغلق الباب أخيرًا عليهما. كانت نادية ترفل في ثوبها الأبيض وتستعيد مشاهد الزفاف ووجوه الحاضرين، بينما سارع الدكتور لاجتراع كؤوسًا متتالية من الكونياك، كان ينظر لها بانبهارٍ عاتٍ وتأكدت نادية من سطوة جمالها عليه بما لا يُقاس، اقترب منها وأنفاسه المعبقة بالكحول تفعم أنفها برائحة لا تحبها وتذكّرها بلياليها مدفوعة الأجر، كانت نادية شخصية صلبة وقوية اكتسبت قوتها من حياتها الصعبة والسابقة وتقلبت بين أحضان الرجال بأنواعهم ودرجات قوتهم، وأدركت أن الدكتور -والذي يكبرها بأكثر من عشرين عامًا- هو مجرد طفل جائع مهتز الثقة بنفسه فقررت إسعاده بكل الطرق التي تعلّمَتْها من أرجوك، تركته لغرفة النوم لتستبدل ثيابها بأخرى، وعادت له وقد ارتدت ثوبًا محتشمًا وبان شعرها الاحمر كلهيب الكحول الذي يعتمل في جوفه، كان يتحرك بصعوبة نظرًا لوزنه الفائق فساعدته على خلع جلبابه وهي تربت على جسده مطمئنة إذ إنه كان يرتعش بالقلق والتوتر فابتسمت في وجهه لطمأنته وجلست لجواره حول صينية العشاء الفاخرة بأطياب الطعام، كان يتكلم كثيرًا وتحتشد المعاني في حلقة بطريقة تسبق أفكاره نفسها فبدا طفلاً ضلّ طريقه في السوق فما كان منها إلا أن احتضنته لتمتلكه فبادلها

الحضن بمثله فقبّلته فقبّلها فابتعدت عنه قليلاً فمد يده تلقائيًا لهبش ما يطاله من صفحة الطعام فأوقفته فنظر لها مندهشًا وضعت كفيها على نهديها ليبصرهما يتأرجحان في تماسك ونفوذ وسلطة مطلقة على عقله، قبل أن قبل أن ترفع له أهدابها الكثيفة لتقول له في سحر ودلال مدروس:

- العشا هنا يا معلم.





السيدة زينب 1995

هبطت من شقتي متانقًا كعادتي فأنا لا أطيق ألا تتماشى ألواني مع بعضها، ارتديت سروالاً أسود وقيمصًا أسود وحذاء أسود، لكن درجات الأسود في مصر تحتوي على درجات لا نهائية من التباين، لكنه أسود على كل حال حتى وإن حال لون الحذاء للبني أو بهت السروال لرمادي، كله أسود في أسود والسلام.. أنا اليوم على موعدي مع ناجي، عرجت لشقة أم زينهم لأطمئن عليها، مضت فترة لم أدخل لشقتهم الحميمة، طرقت الباب ففتحت لي (عزة) تلك الفتاة التي تمتلكها أبلة كريمة من حطام العالم، نحيفة متنمرة طيبة القلب، دومًا أجدها في اللباس الرسمي لفروع كنتاكي، سروال أزرق وقميص أحمر، تعتمر طاقية محفور عليها الشعر، شعرت بأنني مُقبِلٌ على وجبة الـ (دينر بوكس) الحارة المقرمشة والتي أفضّلها عن كل وجباتهم، أشعر أن كنتاكي هو الوجبة الحقيقية الوحيدة التي تُقدّم في سلسلة المطاعم الأمريكية في مصر بالإضافة إلى أنه يضمن نوعًا من الاحتلال الاقتصادي غير المباشر، لكنها غالية، دومًا غالية ومُبالَغ فيها، فقد وصل سعرها لسبعة عشر جنيهًا بالرغم من كون الدجاجة كاملة لا تزيد عن العشرة جنيهات، لا بُدّ أنهم يبيعون ربع الدجاجة شاملة أوراق الدعاية ومرتبات الموظفين والضريبة وإيجار محلهم في ميدان التحرير، الحقيقة أنني

لا أفضل أكل المطاعم وأفضّل طهو وجبتي بنفسي مهما كانت الظروف، والوجبات الوحيدة التي آكلها خارج البيت هي الكشري والفول المدمس من عربات الفول، أما أي شيء آخر فأعتبره شيئًا من البلاهة والسخافة والتبذير القائم على عُقَد النقص والبحث عن مذاق بلاستيكي سابق التجهيز، أما أن تشتري الدجاجة وترميها في الماء المغلي لتصنع حساءً من الملوخية وتأكل كبدها لهو أمر غني تمامًا عن تلك العقد.

- نينة صاحية يا عزة؟

تأملت أناقتي السوداء وهي تطرقع اللادن، الحقيقة أن تلك البنت توحي لك بأنها من دمك، ثمة فتيات لا يمثلن لك أكثر من صورة أختك أو حتى قريبتك الشبيهة بأختك، فهي عارية تمامًا من أي عوامل إثارة، ليس لأنها غير جميلة ولكنك تشعر معها أنها توأم لك فقد أشياء أو اكتسب أشياء ليصبح أنثى في المقابل منك، هل تفهمني، هناك فتيات تشعر بأنهن المقابل الأنثوي منك وهذا شعور رخم أوي.

- اتفضل.

تركتني (عزة) دونما أي اكتراث منها، أظنها تبادلني نفس مشاعر الإخوة المملة وتراني ذكرًا لا يصلح إلا للعداوة الأخوية المتعارف عليها بين الأشقاء، فهي تراني دومًا جالس إلى جوار جدتها أو أتشاجر مع أمها (أبلة كريمة) واكتفى منها بإشارات الصم والبكم في التحيات، إنه شيء مريحٌ جدًّا أن يتواجد في محيطك أشخاص لا يأبهون لوجود وبالمثل أنت تفعل، لا أعرف عنها أي شيء ولا أريد فقط هي عاملة في مطاعم كنتاكي ولم أحظَ منها بأي وجبة مجانية ولم يأتِني منها فخذ أو جناح مقلي بخلطتهم السرية إذًا لا شيء يربط، دلفت لحجرة أم زينهم فوجدتها غارقة في تأمل لا شيء، كان الوقت بعد العصر تقريبًا ولكنني وجدتها مغلقة الأجواء.

- مساء الخير يا حبيبتي.

انتبهت ولفت رأسها إلى حيث أنا ولكنني لم أتلقَّ جوابًا، فقد رفعت كفها وعقدته تحت ذقنها وأشاحت بوجهها بعيدًا عن اتجاهي، لا بُدّ أن في الأمر شيئًا ما، جلست

إلى جوارها كعادتي فالتزمت الصمت، هل أنتِ غاضبة مني يا صديقتي العزيزة؟

- مالك يا لينة شكلك متضايق ليه؟

- ..

للمرة الثانية تتجاهلني أم زينهم وهذا شيءٌ لم يحدث من قبل نهائيًا.

- إنت زعلانة مني في حاجة؟

- ..

هذا كثير جدًا وقبل أن أطرح المزيد من الأسئلة دخلت علينا (أبلة كريمة) حاملة صينية الفُلّ لتضعها على إفريز الشباك المطل على الشارع، تجاهلتني هي الأخرى ولم تطلق على وابل العدوانية والمرح الطفولي ولم تدعُ على كما تفعل في كل مرة ترى فيها وجهي.

- الله.. مالكم يا جماعة هو أنا زعلتكم في حاجة.

تمتمت أبلة كريمة وهي تهش الذباب بمنشفة في يدها وتجبرهم على الطيران تجاه النافذة.

- هوووف هوووف علمناهم الشحاتة سبقونا على الأبواب هووووف.

أها إذًا لقد وصل الخبر وعرفت أنني أمارس قراءة الفنجان في قهوة السوق بعيدًا عن أعينهن، لقد وقعت في المحظور والآن أنا على وشْكِ خسارة أحب الناس إلى قلبي، بدأت في الدفاع عن نفسي:

- والله يا لينة كنت هقولك، أصلاً أنا مش عاوز أرجوكي سامحيني أنا أصلاً ناوي ما أقراش الفنجان تاني.

- خلاص سبت الفنجان ودخلت في الشبشبة يا ضنايا؟

أها إذًا فالأخبار تنتشر كالدخان، لا بُدّ أنهن عرفن بزيارتي لسميرة وأنا ما زلت جالس عندها.

- والله كنت عاوز أعمل حاجة كده كانت مضايقاني يا نينة.

- أستغفر الله العظيم.

هكذا تمتمت وأشاحت بوجهها بعيدًا، فعرفت أنني غير مستحَبٍّ وجودي الآن فانسحبت، وأنا حزين لموقفها مني فهي عزيزة غالية أتصور أن أيامي القادمة ستكون تعيسة بسبب غضبها عليّ.

مشيت في الشارع وأنا أفكر في هذه الخطوة وتذكرت تلك الدمية (الشعباذ) الذي يتأرجح في غرفتي محمّلاً بالطلاسم واللعنات، ترى هل تأثر ذلك الوغد بالشبشبة أم أن لم يحدث شيء على الإطلاق وأنه ما زال يمارس تبختره واستعراضه بالمال عند أقدام نادين، ياه نادين لقد ضرب اسمها قلبي فجعلني مختنقًا موشكًا على البكاء، تابعت سيري وأنا أنوي إجراء مكالمة للحاج مصطفى استشف بها أي خبر عن فاعلية الشبشبة لذلك المتصابي طلال.

وصلت لبيت ناجي الموحش وأنا في حالة من التخبط الشديد وبادٍ عليه السرحان، استقبلني بجسده العظيم وتفرس في ملامحي قائلاً:

- مالك شكلك مش مبسوط؟

- لا أبدًا هبقى تمام.

جذبني من يدي للمطبخ ومررنا بالغرفة إياها كان الباب مفتوحًا فلمحت ثلاثة أشخاص يجلسون إلى المائدة في وسط الغرفة صامتين تمامًا، رجلان وامرأة ولكن ناجي جذبني لأدخل المطبخ وصبَّ لي كأسا من النبيذ الأحمر وأشار لي بأن أتجرعها ففعلت، أن طعم النبيذ يختلف عن طعم الخمر فهو غير مؤذٍ لحلمات لسانك ولا يورثك لمحة العقاب التي تشعر بها وأنت تتجرع الخمر، طعمها متوزان بين مرارة الخمر وعطن البيرة، صب لي كأسا ثاني وأشار لي أن أتجرعه ففعلت:

- النبيت يهديك ويخليك حاضر.

طبعًا هو يشير للجلسة التي ستُعقد بعد قليل، وسأكون أنا فيها الوسيط.

نفسك خالص.

- أنا عاوزك هادي ومطيع وتسيب نفسك خالص.

كان الكأسان قد أتيا معي بمفعول باهت، ولكنه بدأ يتعاظم في التأثير على أعصابي التي وجدتها قد خف توترها وبدأت أشعر ببعض الانتعاش بل والمرح أيضًا فأشرت له بكأس ثالث فصبَّ لي الثالث وتجرعته بينما هو كان يعب من الزجاجة نفسها كما لو كانت بيبسي كولا، ثم توجهنا للحضور الجالسين في الغرفة.

الرجل الأول كان بادي الوقار يدخن الغليون ويتحدث به وهو عالق بين أسنانه، في الستين أو أكثر أنيق كلاسيكي نحيف تحف ذقنه الرمادية وجهه بوقار ووسامة بعيدة يلبس نظارة بلا إطار.

- أعرفك بالدكتور يحي علم الدين أستاذ الفيزياء بجامعة القاهرة.

أما الثاني فشاب لم يتجاوز الثلاثين بعد أشعث كثيف الشعر يلبس الجلد الأسود ويتدلى على صدره المفتوح العديد من السلاسل كان يمتص دخانه من سيجارة حشيش كان بادي عليه الاستهتار المصحوب بلمحة الانفصال عن الواقع وبعض الغرور مدّ يده بالسلام فبادلته:

- أحمد ابو بكر مهندس.

أما الأخيرة فكانت سيدة ذات طراز مخيف بعينها السمكية وحجابها المشدود على رأسها وملبسها المكون من بذلة حريمي قاسية منفوخة الأكتاف بفعل الإسفنج المحشو على كتفيها ومتطابقة مع موضة التسعينيات التي خلعت كل أكتاف النساء عريضة بسبب (الأوبلت الإسفنجي)، كانت عيناها جاحظتين بدرجة كبيرة وواسعة على وجه مثلث وجسد ناشف كأبطال الكاراتيه، كانت بادية العصبية تُصدر التوتر بتلقائية:

- مدام (تُماضر) موظفة.

على المائدة بعض الأوراق البيضاء وقلمٌ به حبر أحمر.

كانت جلستي بين ناجي وتماضر:

- تامر طالب بكلية الزراعة وأظن أنه هيكون وسيط ممتاز.

فتكلمت تلك التماضر بصوت أشبه بالفحيح.

- مش حساه شفاف يا ناجي.

كان الرجلان الآخران يتفرسان في وجهي بطريقة أزعجتني وجلعتني أشيح بعيني متظاهرًا بأنني أتفحص أركان الغرفة التي قام المدعو أبو بكر وأطفأ المصباح لتخرق الغرفة في ظلام كثيف بينما أشعل الدكتور يحيى قداحته وهو يشعل الشموع الخمس ليتبدّد الظلام بأسوأ الطرق ويلقي ضوء الشموع بالظلال على وجوهنا وعلى معالم الغرفة لتزيد من الأمر سوءًا. كان دخان السيجار ودخان سيجارة تماضر ينعقدان فوق رؤوسنا ومع أننا كنا في الشتاء إلا أن جو الغرفة كان دافئًا بفعل التدخين والانغلاق.

أخرجت تماضر ما يشبه الدفتر من حقيبتها ودوّنت التاريخ والساعة وفقًا لما يقوله ناجي الذي بدا صارمًا حازمًا في إدراة الجلسة.

- اليوم 20 نوفمبر وبحضور أربعة أعضاء من جمعية الصمت وهم ناجي ويحيى وأحمد وتماضر. كلٌ باسمه وصفته لتحضير روح أستاذنا الفاضل والرئيس السابق للجمعية الأستاذ (توفيق الضبع) المتوفي في نوفمبر عام 95 وبحضور تامر عطوة كوسيط جديد سيتم البت في عضويته بَعد اجتياز فترة التأهيل وهذه الجلسة منعقدة برغبة المرحوم الدكتور (توفيق الضبع) لأنه وعدنا بأن يحضر في أول اكتمال للقمر بعد مرور عام كامل على رحيله.

ثم ساد صمت فظيع، أنا ساكون وسيطًا لمتوفي رحل من عام وطلب قبل رحيله تحضير روحه بعد عام، يا صلاة النبي أحسن، اعتراني الخوف وخصوصًا وأن الجميع تظهر عليهم الجدية، أزاح ناجي الأوراق ليضعها أمامي ورفع الجميع كفهم لسطح المائدة وفرد كلنا الكفوف بحيث تتباعد أصابعنا لتلامس أصابع الجالس إلى جوارك، عشرة كفوف بخمسين إصبعًا متصلين على المائدة.

وكان في وسط المائدة صورة فوتوغرافية لكهل تخطى الثمانين بوجه متغضن ونور شبه مجفف يبتسم وقد اعتمر قبعة فراء روسية على رأسه واستند بذقنه على عصاه، إنه السيد المرحوم رئيس جمعية الصمت توفيق الضبع.. ثم بدأنا.

إن طقوس تحضير الأرواح متنوعة وشديدة الاختلاف في كل الثقافات، وفي ثلاثينيات القرن العشرين بدات الصحوة الروحية الكبيرة وتسابق الناس كالجوعى لينكبو على المواد الروحية وتظهر مدارس ومؤسسات وجمعيات تعني بالتواصل مع الروح أو بمعنى أصح مع الأموات وهنا في مصر كان التداوي الروحي وجمعيات الروحانيين مُعلنين بكل أريحية وكانت تمثّل رافدًا من روافد العلاج وشاع مسمى المعالج الروحاني في تلك الأثناء وامتد الحماس للمواد الروحانية إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية وخطفت الأضواء من نشاط الروحانيين في العالم وفي باريس عاصمة النور ما زال للآن جمعية مجلس السحرة العمومي وهو جمعية مرموقة لا يدخلها إلا الأفذاذ في هذا العالم، تعود لتحضير الأرواح، تحضير الأرواح يشبه تمامًا (قانون الجذب) الذي يتحدثون عنه باعتباره سحرًا أسودَ هذه الأيام باعتباره من علوم الطاقة السوداء، وقانون الجذب يعتمد على صفاء فكر الجاذب ومدى جديته في (استحضار) طاقة ما في الغالب تكون طاقة شيطانية أو سُفلية وفي النادر تكون طاقة روح متوفٍّ، فالتحضير يعتمد على اتحاد رغبات عدد معين من الأشخاص بتركيز بؤري لتنزل الروح في أحدهم وتتواصل، الذي تنزل فيه الروح لا بُدّ أن يكون بمواصفات معينة ويسمي (الوسيط) أي الذي تسمح روحه باستضافة روح ثانية في الجسد، في بعض الأحيان تبقى الروح المستحضرة وتطرد الروح الأصلية للشخص وهذا هو قمة الخطورة على الإطلاق؛ لأن الشخص يتبدّل حاله بسبب عدم الانسجام بين الروح المحتلة وبين حياته الحالية فيحدث ارتباك قد يؤدي للجنون أو الانتحار، وقد كان الضحايا في العالم بآلاف نتيجة ممارسة طقوس التحضير وباتت خاسرة غير مضمونة العواقب ففقد الناس اهتمامهم بها وقصرت عمليات التحضير والتداوي على المتخصصين فقط،

وتحضير الأرواح معترف به في بعض الولايات الأمريكية ونتيجة الجلسة قد تحسم قضايا لجرائم شنيعة، وتحضير الأرواح لا يمت بصلة للروحانيات الدينية فهو لا يمت للسحر والطلاسم والجن بأي صلة، فهو مثل الشبشبة التي تمارسها سميرة بمفردها فهو يعتمد بالكامل على (اكتوبلازم) الحاضرين في الجلسة، والاكتوبلازم هو (الجبلة) التي تحيط بكامل بدن الإنسان، فلو كان الاكتوبلازم كثيفًا كانت الدرجة الروحية أقل وكلما كان شفافًا رائقًا ارتفعت درجة الروح فيه، ولكي تعرف كثافة الاكتوبلازم وتحصينها سأقول لك.

(جرب بأن تمشي في الظلام في المناطق المهجورة مثلاً وحدك أنت وأنت فقط. صفي ذهنك واستعد داخليًا لاستقبال المؤثرات، لو لم يحدث شيء فأنت ذو أكتوبلازم كثيف لا يخترقه شيء ولذا أنت محصن، أما لو ركبتك العفارين وتخبطت وشعرت بالهلع الذي كاد أن يوقف قلبك فمبروووووك أنت ذا اكتوبلازم خفيف وستمتع ببعض المواهب التي قد تحيل حياتك لجحيم.)

"أحضر أحضر أحضر أحضر أحضر"

كنا نردّد بلا كلل أن أحضر أحضر أحضِر وكلنا كنا ننظر لصورة الرجل بكل تركيز، كنت أتفرس في ملامحه وأشعر أنها تكبر وتتحرك. أحضِر أحضر أحضِر احضر احضر، صوت دقات الساعة الرتيب يثير التوتر بينما نهمس بكل جدية ان أحضِر احضر أحضِر أحضِر، كان أول من أغمض عينيه هو أحمد بل ونكس رأسه لأسفل وهو مستمر بالهمس أحضِر أحضِر أحضِر أحضر أحضر، ثم تلاه ناجي الذي أغمض عينيه وهو يهز رأسه يمينًا وشمالاً وهو يهمس بلا كلل أحضر أحضر احضر أحضر أحضر ثم تبعه الدكتور يحيى بأن ثبت رأسه كأنه ينظر للأمام وأغمض عينيه بتصلب وهو يردد بهمس أحضر أحضِر أحضِر أحضر لم يبقَ سواي أنا وأنثى اليعسوب هذه، كانت تحدق بعينيها الجاحظتين للصورة وقد انتفخت عروق جبهتها وظلت تردد بغلّ وقسوة وتقول من بين أسنانها أحضِر أحضِر أحضِر أحضر أحضِر ثم فجأة نظرت

لي فنظرت لها وقلبي يوشك على الصراخ، ولكنني تمالكت جأشي وثبت عيوني عليها وكنت أردد أنا أيضًا أن أحضر أحضر، يا ربي إن هذه المرأة تتحول لحشرة فرس النبي وستمد مخالبها الآن لاقتناص عيني، طال تحديقها بي لدرجة أنني كنت سأصرخ في وجهها أن تكف تمامًا عن التحديق بهذا الشكل المرعب ولكنها ظلت تحدق في وجهي وتردد بهمس: أحضر أحضر أحضر. شعرت بغثيان وبأن شخصًا ما يريح كفّه على كتفي بينما ظلت (تماضر) تنظر بتركيز لوجهي حتى كادت أن تثقبه، ثم شعرت بثقل عاتٍ في جفوني، شيءٌ ما يجبرني على الاستغراق في النوم. إنني أهوي ببطء في المائع، أتعرفون الموائع هي السوائل التي يعلق بها جزيئات صلبة فتصير مائعة، مثل مشروب السحلب مثلاً إنني أغرق في وسط له كثافة فعلاً أعلى من الماء وأقل من الزيت. لا. لا إنني أنتزع من نفسي، أشعر بأن شيئًا يطرد شيئًا أو يزاحمه في فراغ ضيق. لا لا أسمع من بعيد همس الحضور ولكنه بصدى صوت متداخل مؤلم يولد طنينٌ متواصل شعرت بالضغط الشديد، شعرت بالغضب. أريد قلب المائدة على رؤوسهم، أصبحت أصرخ بلا صوت، كنت أرى شخصًا قادمًا من بعيد، لا لا إن هذا الخطر بعينه لا بُدّ أن أبتعد عنه، ولكنني كنت أنزلق تجاهه أكثر وأكثر ثم وصلت لحيث هو واقف فاحتضنني قاومت وحاولت الصراخ فلم يخرج مني صوتي أنا بل خرج صوت آخر. فتحت عيني بغتة وشعرت بأنني هنا أخيرًا وغمرتني الفرحة، ولكن لماذا أشعر بأنني خفيف لدرجة أنني أرتفع وانخفض عن الأرض شعرت كأنني قطعة فلين طافية تتقاذفها الأمواج الرتيبة، كنت أبصر ناجي وضيوفه ما زالوا جالسين إلى المائدة، ثمة شخص جديد يعطيني ظهره جالسًا معهم، بينما أنا واقف في ركن الغرفة لصق رفوف المكتبة، درت حولهم وأنا مندهشٌ لماذا قمت من جلستي ومتى حضر هذا الآخر، كانت أضواء الشموع تحيل دون أن أدقق النظر فاقتربت منهم وأنا أنظر لما يفعله الشخص الجديد كنت أقف إلى ظهره فوجدته يكتب على الأوراق

بطريقة متشنجة بينما ناجي يسحب كل ورقة كتب عليها ليسمح بظهور ورقة أخرى، كان يكتب بطريقة مهتزة:

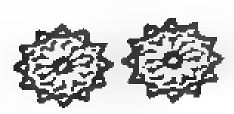
(سعيد.. فضيحة.. وصية ..اخ.. اختلاس.. هروب.. نادية)

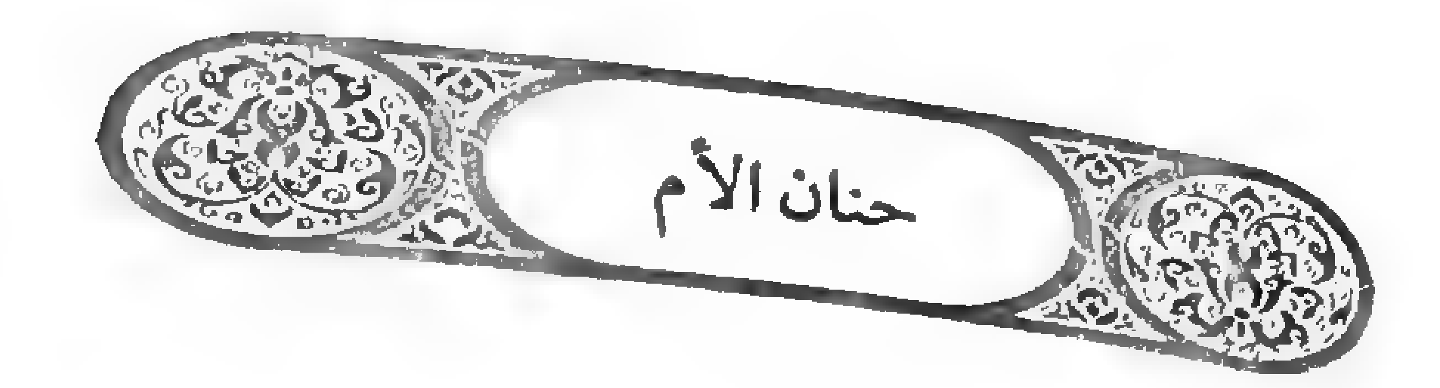
- هو إيه اللي بيحصل؟

سألتهم بهمس فلم يهتموا حتى بالنظر لي فشعرت بالعصبية وعلت عقيرتي:

- بقولكم إيه اللي بيحصل؟

فلا أدنى استجابة، كانت تماضر تسأل والجالس يكتب ويتبادل معه الأسئلة كل الحضور ومنتهى الاهتمام والتبجيل.. انخلع قلبي تمامًا وأنا أبصر خامسهم لا بدّ أنه صاحب الروح التي استحضروها وقد جلس مكاني شعرت بالرعب الحقيقي يا رب العالمين من هذا؟، إنه.. إنه.. إنه.. أنا...





السيدة زينب 1996

مزقت اللفة وأنا غارق في العرق ومعتقد تمام الاعتقاد إنها قنبلة شيطانية ستعبئ المكان بجراثيم الجحيم وتلوثه للأبد، ولكنني فوجئت بثروة صغيرة قوامها لفتان من الحشيش المكسو بالخيش الأبيض وبعض الحلي الذهبية، قرط وسلسلة وأساور طرية من الذهب وما يقرب من الخمس آلاف جنيه مبرومين في حزمة وبطاقة شخصية عليها صورة امرأة حادة النظرات ضيقة العينين مثل الأسيويات، اسمها دولت عبد العال الشحري

دولت؟ أتكون دولت أم وليد، لا بُدّ أنها هي، وهذه المنقولات تخصها وقد حشرتها مثلاً أن يهجم البوليس ويهدم البيت عليها، يا إلهي إنها مبلغ ضخم جدًا ولكن.. ولكن هذه أيضًا ليست أموالاً، رفعت المشغولات الذهبية أتأملها، ذوق شعبي توضحه الكثافة والوزن، النساء في مصر يعتبرن أساورهن هن خزانتهن الحقيقية ولكنها خزانة مكشوفة لروح الزينة والاستعراض، ماذا أفعل؟ أأعطيهم لوليد أم أنهم ملك لي أنا، لعبت الشياطين برأسي فالأمر مربك تمامًا، أعدت حقيبتي للداخل وعقلي يدور يدور ثم ماذا لو خرجت هذه الدولت وسألتني عن كنزها الذي تركته محفوظًا لخمس سنوات، أما تذكرت أن شقتي كانت بمثابة مخزنٍ لهم، رفعت

كيسين الحشيش، كانا ملفوفين في نسيج من الخيش الأبيض مختومين بختم أحمر مكتوب عليه (سبع حروف) أهذا حشيش أم تعويذة ما، وهل إذا ما أنكرت هل سيتركونني في حالي، أأسلمها للشرطة، إننا المصريون لا نثق في الشرطة ونعتبر التورط معهم في أي شيء هو عقاب حتى ولو كانت خدمة، لا بُدّ أن هذه اللفة هي ما تعتمد عليه دولت حين يفرج عنها وتخرج من الليمان، حتى لو أعطيتها لوليد سينسلها في أسبوع ويضيع حق المسجونة، قررت أن أزورها، قررت أن أزور دولت في السجن ولكنني لا أعرف أي شيء عنها، سأجرجر وليد في الكلام وهذا سهل فهو أصبح صديقًا ورتبت للأمر أن نسبة عشرين بالمائة لمرضية جدًّا لي ولكن لا بُدّ من الحيطة والأمان ششششششششش اكتموا معي السر حتى نرى من هي هذه الدولت..

وقبل أن أفكر كيف سأسأله فوجئت بمن يطرق الباب طرقات هادئة فأسرعت لغرفتي ووضعت اللفة بالكامل في صندوق تحت الفراش وفتحت الباب وقد علاني شيء من الارتباك فقد وجدت وليد نفسه من يطرق بابي بالتزامن العجيب، فعليًا هو صاحب اللفة وهو على بُعد خطوات من كنز أمه، وجدته يدلف بسرعة للمكان جارًّا في يده امرأة لا تقل عن الستين بأي حالٍ من الأحوال تلبس عباءة سمراء وطرحة سمراء ووجهها ملطخ بالأحمر والأزرق والأسود والأخضر بطريقة مثيرة للجنون، إن أولئك النسوة يتعاملن مع المكياج على أنه رسومات في حضانة ويعتبرن التبرج الزائد جاذبًا أكثر للرجل أو ربما تعوض غطاء شعرها بالمزيد من الدهان على تجاعيدها كانت أسنانها مهدمة كحطب المدفأة تبتسم وتستعرضهم بلا مناسبة، أغلق وليد الباب واقترب منها يعتصر ثدييها وهي تربت على رأسه و تبتسم في حنان، فصرخت لهول المنظر وغضبت، كيف يجرؤ على إحضار هذه القمامة لمنزلي، لا بُدّ أنه قد فهم الصداقة أن أفعل ما يريده، اعتراني الغضب وأنا أسأله.

- مين دي يا وليد؟

ترك ثدييها واستدار لي وابتسم:

- دي حنان الأم.

- نعم.. اسمها حنان الأم؟

- لا هي الأول كان اسمها حنان بس، لكن بعد ما خنشرت وعجزت بقى اسمها حنان الأم دي متخرج على إيديها أجيال يا توني.

ثم اقترب ليقف بجانبي ويوجّه كلامه لها:

- يلا يا حنان الأم.. وريه.

فتحت (حنان الأم) عباءتها لتكشف عن سروال ومشد للصدر أحمر فاقع ولا شيء آخر. رمت العباءة عن كتفيها ووقفت تستعرض مفاتنها أمامنا وهي تبتسم نفس ابتسامة التشجيع المحفزة على الاقتراب، تلتفت لتعرض الهزيل من لحمها بينما علامات السن واضحة على ترهلاتها، اجتاحني شعور بالشفقة والازدراء في نفس الوقت، هذه المرأة الآن تعتبر جدة، اختنقتُ وأشحت بوجهي فنظر لي وليد الذي كان في منتهى السعادة:

- الله.. مش عاجباك طب استنى بس شوف الحتة دي.

- وريله يا حنان الأم رقصة الوزة.

فأدارت ظهرها لنا وجعلت تتراقص بمؤخرتها برشاقة أقرب للبهلوانية ثم أدارت لنا وجهها وقد أطلقت ثدييها لخارج المشد فتدليا لبطنها وجعلت ترجرجهما وتهزهما ونفس الابتسامة المشجعة على ثغرها اليابس.

اهتاجت مشاعر وليد فهجم عليها بينما الذهول يعقد لساني وشعرت أنني أشاهد فيلما تسجيليًا عن تزاوج دودة قز مع صرصور، كان شيئًا منفرًا مثيرًا للشفقة والاندهاش.

- وليد، لو سمحت خد الست دي واخرج من هنا.

نظر لي وليد معاتبًا وهو يبتسم بارتباك:

- إيه يا أسطى وطي صوتك أنا طلع عين أمي عشان أدخلها.

- وأنا مالي!

- أنا جايبهالك عشان تزاملني.

- أزاملك.. يعني إيه؟

- يعني تقسم معايا ..إنت نُص الجثة وأنا النُص التاني، إنت البز اليمين وأنا الشمال وأهو يبقى عيش وملح يا صاحبي.

قالها بحكم الإيفيه والقافية ولكنني غضبت جدًا ووجهت كلامي للمرأة متجاهلاً مرحه:

- البسي يا ست إنتي هدومك ومع السلامة.

فما كان منها إلا أن اقتربت وهي مدلاة الصدر وعلى وجهها نفس الابتسامة الإيجابية فشعرت بالذعر وإن لم يكن الحائط ورائي لكنت تراجعت خطواتٍ فحاصرتني في الزاوية وهي تهمس بتشجيع:

- ماتخافش مني ده أنا زي أمك.

أمي؟ أين أنتِ من أمي يا يا يا... وجدتني حتى لا أسبها في سري، وأصلاً خوفي منها بسبب أنها مثل جدتي تقريبًا وليس أمي، دفعتها من كتفها للخلف فمسكت بكفي وحركته على صدرها وهي تبتسم لتكشف عن أسنانها النخرة:

- تعالى يا ضنايا أرضّعك تلاقيك هفتان.

لم أصدق نفسي بالتأكيد، إنني في عنبر العقلاء تلك الحيزبون تتعامل مع الموقف وكأنها أم حقيقية بكل مصطلحات الأمومة من ضنايا وروح قلبي وحبيبي، شيء ما استوقفني وجعلني أتريث وان أرى ذلك الحال العجيب فوليد الذي يملك زوجة جميلة يهتاج على امرأة في عمر جدته، جدته سميرة التي دللته لدرجة العمى وأفسدته بسلبياتها وحرمته من أمه، كان ذراع وليد موسومًا بوشمٍ عبارة عن قلب وبداخله جملة (أمي وبس) يحاول أن يقبّل تلك المرأة فأسرعت واحتضنته وقبّلته فصرختُ مرة أخرى: بقولكم اخرجوا بره دلوقتي وفي لحظة تهور فتحت الباب

لأصطدم بوجه (سمية) وقد ارتسم عليه أعتى علامات الغضب فما كان من رد فعلي إلا أن صفقت الباب في وجهها مذعورًا وأنا أنظر لوليد وأهمس:

(مراتك واقفة على الباب يا زفت) ولكن وليد كان مشغولاً في "التفعيص" والطبطبة والمرأة بدأ صوتها يعلو فدفعت (سمية) الباب وتدخل الكادر صارخة بكل غل:

- آه يا ابن الكلب يا واطي..

اندفعت سمية لأحضان وليد و (حنان الأم) كأنها ستشاركهما الغرام وقد كان غرامًا داميًا؛ فقد انتبه وليد أخيرًا وهو يشاهد سمية تدعك وجه (حنان الأم) في الأرضية وهي تزوم فما كان منه إلا أن ركلها ركلةً عاتيةً في بطنها أصابت بالخطأ (حنان الأم) التي صرخت كما لو كانت تلد وانهالت بالشتائم عليهما:

- وأنا مالي يا ولاد الوسخة انتوا.

هذه المرأة تعتبر نفسها مجرد شاهد وليست شريكًا في خيانة وليد.

توقفت سمية عن الخمش وتحولت لوليد وهي تعرف أنه كان يقصدها هي بالركلة وقفزت عليه لتوقعه أرضًا ولكن (وليد) لم يكن لين العريكة بل بدا مدرّبًا على القتال معها إذ لف شعرها على كفه وبدأ يناولها اللكمات، كل هذا وسرواله نازل لركبيته، أما أنا فحاولت التسليك بينهما، ولكن لا فائدة، فوضى عارمة وفضيحة بدأت تُسمع في الميدان نفسه، صوت أبلة كريمة يصرخ من مسقط النور تنادي عليّ وتسأل عن مصدر الصراخ والضرب، أشرت للسيدة شبه العارية أن تستر نفسها فقامت وهي تتأوه لتلقي بعباءتها على جسدها وهرعت للباب كي تخرج فاعترضها سمية وأمسكت بتلابيبها بينما وليد يوجّه اللكمات والركل لظهرها، وأنا أحاول إخراجهم جميعًا من فراغ شقتي، أريد فقط أن يخرجوا للسطوح وسأغلق الباب للأبد في وجوههم.

أسمع صوت أقدام تصعد مهرولة على الدرج، لكن أخيرًا نجحت في إخراجهم

من باب الشقة وصفقته دونهم، ووقفت أنهج كأنني كنت أركض من كلب مسعور، سمعت في الخارج صوت أبلة كريمة وشادية وعزة يحاولن تخليص العجوز من براثن سمية ويخلصن سمية من الاشتباك مع وليد.

- عيب كده يا وليد... سيبيها يا سمية.. أي يا واد إنت ضربتني أنا.

- أنا هفشخها بنت الكلب دي..

- يا لهوي الحقنا يا تامر الواد هيقتلها، يالهووووي.

هكذا نساؤنا في الحقيقة يطلقن الصراخ إذا تحوّل الأمر للخطر، يعتبرن أن هذا هو صافرة الخطر البيولوجية بالنسبة لهن، لا بُدّ من صراخ بـ (يا لهوي يا خرابي ويا دهوتي) في العراك وإلا لا تكتمل أركانه.

فتحت الباب استجابةً لنداء ابلة كريمة ودخلت بعزم بين وليد وسمية ورفعت وليد من وسطه وجريت به بعيدًا عنها بينما استعادت سمية تحرُّرها منه وبدأت تكيل للمرأة السباب والاتهامات، كان الدم ينز من الثلاثة بلا استثناء واكتملت الصورة بصعود أخيه المخمور (أحمد) الذي كان ينوي الهجوم عليّ أنا عندما رآني أحتجز أخاه بجسدي.

- الصايع الضايع ابن العايبة جايب واحدة عشان ينام معاها عند تامر.

انتبهت للتلوث القادم في سيرتي وقبل أن التفت لها لأرد سمت أبلة كريمة تشهق.

- عند تامر؟

ثم نظرت لي بعتاب دامٍ:

- أيوه ولما تامر لقاني واقفة على الباب قفله في وشي.

الله يخرب بيتك يا سمية الكلب.

هززت رأسي وأنا لا أجد كلمات أقولها وفي وسط هذه الفوضى سمعنا جميعًا صوتًا يهتف وهو يطرق باب الطابق الثالث:

- يا وليد، يا أحمد، إنتوا فين يا عيال؟

انتصب وليد وأحمد ونظرا بعضهما لبعض وعمّ شيءٌ من الذهول في ملامحهما.

كان صوت الجدال واصلاً لأسفل فصعدتْ مَن كانت تنادي عليهما.

سيدة بيضاء طويلة يميل جسدها للرشاقة تلبس فستانًا يصغرها بعشر سنوات ذات شعر عسلي مفروق من المنتصف تظهر عليها قوة الشخصية والقيادة بوجهها الطويل وعينيها المكحولتين الواسعتين وشفتيها الرفيعتين وفستانها الوردي مكشوف الصدر وهيئتها المتماسكة لامرأة اقتربت من الخمسين.

كانت تجول النظر فينا وتحمل في يدها حقيبة رياضية منفوخة بالملابس

اقترب منها وليد وأحمد ببطء وهم ينظرون لها بتركيز، انعقدت الألسنة حتى المومس العجوز نسيت العراك والدفاع ووقفت تراقب الموقف، إن لهذه السيدة حضورًا طاغيًا ومن الواضح أنهم يعرفونها.

- دولت؟

هكذا صاحت أبلة كريمة بعدما استوعبت الموقف فها هي (دولت) قد عادت من الليمان لولديها وبيتها، دولت تاجرة المخدرات الأشهر من نار على علم عادت بعد مضي خمس سنوات هم ثلاثة أرباع المدة.

اندفع الولدانَ يبكيان في حرقة وهُما يقبّلان يدها وقدميها وصدرها، كانت تنظر لأحمد طويلًا؛ فقد تركته وعمره عشر سنوات والآن هو - ماشاء الله - شاب بلطجي ضائع في السادسة عشر تفوح من فمه روائح الكحول، أما وليد فبدا رث الهيئة متهالكًا ضعيفَ الصحة معدوم العافية، عمّ البكاء السطوح حتى سمية التي أدركت أنها حماتها الحقيقية فنسيت كل ما كان وبكت تأثرًا كان لحضور تلك المرأة مفعولُ السحر فقد نسي الجميع الفضيحة التي كانت منصوبةً منذ دقيقة واهتموا بالوافدة العزيزة وانطلقوا ينهالون عليها بالتبريكات والتهاني ثم قرروا أن يجلسوا جميعم أمام بابي أنا حيث توجد دِكتان للجلوس.

اقترب مني وليد وقد شاعت الفرحة العارمة في وجهه.

- دي أمي يا توتي.

حولت المرأة ناظريها إليّ وضيّقت ما بين عينها تتفحصني:

- ده تامر جارنا.

- العمر كله.. جاركم.. من إمتى؟

- من ييجي سنة كده.

دققت النظر أكثر في شخصي قبل أن تردّ:

- العمر كله..

سلمت على المرأة، إنها تملك كفًا طويلاً وأصابع أطول، شعرت أن كفها يلتف على راحة يدي.

- حمد الله على السلامة يا أبلة دولت.

نظرت لي وهي تقيس أبعادي ثم ابتسمت وهي تردُ:

- الله يسلمك يا حبيبي. العمر كله.

شممنا رائحة توابل محروقة تقتحم أنوفنا وتتصاعد من أسفل..

فسألت دولت الجميع وعيناها تلمعان ببريق:

- العمر كله.. هي لسه عايشة؟

فردّت عليها شادية بشيء من النفاق:

- عايشة وزي القرد كمان على رأي المثل ما يقعد على المداود إلا شر البقر.

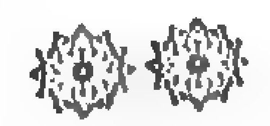
فرغ المجلس في القط فاستوقفتهم ريثما أسترد سمعتي التي أمرغتها سمية في الطين ووجهت كلامي لوليد:

- وليد لو سمحت قول الحقيقة.

انتبهت (حنان الأم) للموقف وكانت قد نسيت حقيقة وجودها معنا فزحفت بهدوء للخارج بينما هرش وليد رأسه وهو ينظر بخجل لسمية:

- أنا اللي جايبها وهو مايعرفش حاجة.

نظرت لي (سمية) باعتذار بينما وقفت أبلة كريمة لتدافع عن أخلاقي وانفض المجلس وهبط الجميع لشققهم وبدا الأمر خلافًا عائليًا قد انتهى؛ فعدت لشقتي أعيد ترتيب أوضاعي وأفكر في لفة الكنز، شعرت أنني مقبل على كارثة ما وفي نفس الوقت اجتاحتني مشاعر الطمع في هذه الثروة، قد تمثل هذه الثروة نقطة انطلاق سأشتري سيارة وأؤسس للشركة التي كنت أحلم بها شركة "ساوند أوف ميوزيك" لإنتاج شرائط الكاسيت وألبومات الأغاني، ولكنّ إمكانياتي الآن لا تسمح إلا بشطائر الجبن والشاي وهذه الثروة قد تبني مستقبلي، أسرعت لأخرج الصندوق الورقي من تحت السرير وأنا أشعر أنّ عيني دولت تتابعانني عبر سقفها، إن هذه المرأة قوية ويظهر عليها مخايل الفجور وأيضًا لأنها الآن من أرباب السوابق وسيكون من الخطر خداعها أو الاستحواذ على مدخراتها، ماذا أفعل؟





السيدة زينب 1965

استتب الأمر لنادية وبلغ من شططها ما يلزم الألوف على عم المنطقة (الخانجي) وصار كل حديث لحوبه والأطعمة ورجاله عن تلك السطوح الخاطئة التي تتحدث بها نادية على زوجها العجوز. كانت تطهو له من أطايب الطعام وتلبس له ويحتج وقد تحول بيتهما لصالة من صالات عماد الدين وبالرغم من الكلام حال زوجها الجنسي على نفسه إلا انه بدا سعيدًا بعدما تجاوزت نادية هذا الأمر ببساطة كأنها كما كانت تقول (أنا شبعت رجالة) واستقل حزين ابنها شقة زين العابدين مرافقًا لجدته الألمانية (سعيدة أرجوك) ويصحبتها خادمتها (عواطف البايشة) والفوزية الجاهزة) أما (جمالات قلتة) فقد عادت لبلدها بعدما هدها مرض السكري وودعتها (أرجوك) دامعة وهي تعطيها مكافأة نهاية الخدمة متمثلة في مبلغ 200 جنيه لتبدأ بها (فتحة) حياتها من جديد في مسقط رأسها. ولكن فوزية كانت تضع نادية نصب عينها وظلت تلح عليها حتى تقنع المعلم بتزويجها من (عطا الخشن): أحد أقرب رجال المعلم له بل ويعتبر ذراعه اليمنى.ونفذت نادية لها ما أرادت وبعد زواج (فوزية أنجاجيه) عاشت (أرجوك) حياة هادئة كجدة للولد الذي ترعرع وأظهر نبوغًا في الدراسة والذي لم تنسه نادية وتابعته بكل اهتمام وحب من بعيد لبعيد.

- [illegible] يا بنتي.

[illegible]

والبلبلة [illegible]

- أنا [illegible] تعمل في [illegible] هنا [illegible] في [illegible].

- المقصود؟

- أنه يعلى كل حبة تحت عينه. أنا [illegible] هناك.

[illegible] على الأرض [illegible] عليه [illegible] تلك [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] جمالها و[illegible] في [illegible] على [illegible] الرجال تحت [illegible] [illegible] كانت نادية [illegible] في كل ما [illegible] [illegible] كانت [illegible] [illegible] [illegible] تلك [illegible] كان لشعر الأحمر [illegible] نادية [illegible] والجمال، وبقدر ما [illegible] نادية [illegible] إلى أن جاء يوم سقط فيه المنعم على وجهه مصابا بالشلل [illegible] اللامة مجرد جسد مطروح على الفراش لا يستطيع حتى أن [illegible] لله أما نادية فقد حسبت حساباتها جيدا وحافظت على [illegible] الرجل [illegible] في [illegible] [illegible] هي والتي مارستها بكل الحذر ليموت المنعم بعد عام من إصابته بالشلل وتبقى نادية وحيدة تلبس الأسود وتوضع جمالها في عيون الرجال

بعدما انتقلت جُل ممتلكات المعلم إليها، في الوقت الذي كانت فيه فوزية تَحِثُّ زوجها على القفز على كرسي المعلمة باعتباره ذراعه الأيمن، ووصل لأنف نادية رائحة الشياط وبان زميلة شارع كلوت بك تخطط لتأخذ مكانها في السُّلطة والنفوذ، اشتعل التفكير في ذهن نادية وخصوصًا بعدما ازداد مرض (أرجوك) وبان لها أن تود اللحاق بزوجها الدكتور وشعرت بالوحدة تضرب حولها سورًا من نحاس، أما ابنها حزين فقد أنهى دراسته الثانوية بتفوق فأرسلته ليكمل تعليمه في فرنسا دارسًا للقانون والاقتصاد، وبقيت (أرجوك) والخادمة لوحدهما فسارعت نادية لالتقاطهما مرة أخرى وإرجاعهما لبيتها حتى تتولى مراعاة أرجوك بنفسها؛ فـ (أرجوك) باتت عجوزًا خرفة لا تستطيع حتى التحكم في نفسها، تحولت لخيال وإن كان لسانها محتفظًا بشبابه خصوصًا في السباب والدعاء على (عراقية البايشة) بالويل والجحيم.

- يا اختي مالك ماسكة في الولية الكهنة دي، ارميها لحرنكش هو هيعرف يستفاد بيها.

كان هذا كلام (فوزية أنجاچيه) وهيَ تحتسي القهوة في بيت نادية التي نظرت لها في استنكار:

- عاوزاني أرميها تشحت وأنا موجودة يا فوزية دي مهما كانت المعلمة (أرجوك).

- يا أختي طظ فيها هي هتاخد إيه من الدنيا تاني.

كانت نادية تعرف ما تضمره فوزية لها من حسد، ومع الوقت تأكدت ظنونها بعصيان (عطا الخشن) لبعض أوامرها وأصبح يصدر الأحكام الظالمة والتعنتية بنفسه، وفي يوم كانت نادية توزع النذور كعادتها في ضريح الماوردي فالتقت عيناها الساجيتان بعيني الشيخ (أحمد) خادم الضريح الذي بال على نفسه وأفسد وضوءه بمجرد ما رآها، ولمست نادية منه ذلك الاهتمام وشمت بأنفها رائحة رغباته النشادرية.

- إحنا خدامين الملكة.

كان يسمع عنها لكنه لم يصادفها ولا يعرف شكلها وتصنعت الاستجابة فاقترب أكثر وهو يسلم ويربت على يديها:

- أي حاجة تؤمري بيها تتنفذ في الحال.

- أي حاجة زي إيه؟

- جلب حبيب، غرام، ربط، شبشبة وكل اللي إنتي عاوزاه تحت أمرك.

فجأة لمعت الفكرة في سمائها القاتمة والتي كانت بالويل وبئس المصير، لماذا لا تستخدم الشيخ (أحا) وهو يعرض عليها خدمات السحر، لماذا لا تستخدمين السحر يا نادية، أنتِ في خطر داهم وسينتهي بريق سلطانك إذا لم تغاري على مجدك ومكتسباتك؟ أنتِ لن تطلبي الكثير فقط بعض الخدمات ، تركته مهتاجًا مشتاقًا بعد أن قالت له سأعود لاحقًا لأرى ما يمكننا فعله، وعادت للمنزل تائهة وقد بلغ مسامعها أن (عطا الخشن) قد أضمَر الغدر فعلاً، لا بُدّ من حل لن تترك سلطانها يضيع مهما كانت النتيجة، لا بُدّ من تخطيط ما، لماذا لا تستغل قدرات الشيخ (أحا) هذا لماذا لا تجعل من الكل عبيدًا تحت قدميها حتى ولو بالسحر، فالشر بالشر والبادئ أظلم، كانت القطط تعمر البيت بعدما توالدت وأنتجت أجيالاً متعاقبة ونادية تهتم بهم وتغذيهم فكانت كلما دخلت البيت جعلت القطط تموء وتتحسس ساقيها مرحبة، ما يزيد عن أربعين قطة ينتشرون في المنزل والحديقة كانت نادية تجد فيهم بعض السلوى في وحدتها مع أرجوك، وفي ليلة قررت وأرسلت في طلب (أحا) ليأتيها في جنح الظلام ماسكًا بكتبه وتعاويذه، المرسال قال له إن (شجرة الدر) وبالمناسبة كان هذا اسمها السري بين حسادها وأحبّائها على حد سواء، إن المعلمة نادية تريد بعضًا من خدماتك في سرية، وجاء الشيخ ودلف للمنزل ليصدم بأن من يحلم بها ليلاً لدرجة الاعتصار هي نادية نفسها، هاجت خياشيم الرجل

وهو يستقبل نادية في لباس أزرق آية في الغواية وتأمل كعب رجلها الأحمر في نعم وهي تجلس قبالته في قاعة الاستقبال التي شهدت كل أحكام المرحوم رضا. تأمل صورتها على الحائط المواجه، بينما وضعت نادية لنفسها صورة على الحائط الخلفي للمعدة.

- الله يرحمه كان واحد ولا كل الرجال.

كانت نادية تتأمل ملامحه وتعرف جيدًا أن هذا الرجل شبق يريدها بأي حال، ولكنها كانت حازمة لا تقبل علاقة تذكرها بعرق كلوت بك. كانت تريده في مهمة محددة، ولكنها لم تعرف كيف تستحوذ عليه. كان لقاءً استكشافيًا فقط لا غير صرفته نادية ليعود متخاطًا من عدم إتمام ما يحلم به وقررت أن تستحوذ عليه بعدما سمعت أن أعماله هالة وأنه يفعل الأعاجيب في مسائل الطلاق والزواج والربط وما إلى ذلك من الأسحار الشعبية. وفي ساعة عصاري حضرت امرأة تبدو عليها مخايل الثراء وأساورها الذهبية تتهلل في عيون الشيخ الذي اقترب منها محاولاً التحسيس على ظهرها وهنا هبطت الصاعقة. لقد أمسكت به المرأة وصراخها يشق الهواء ليتجمع الناس فترميه بتهمة مجهزة وبأنه حاول اغتصابها هنا في حرم الماوردي، وظلت تصرخ وتصرخ فتكالب الناس عليه وأوسعوه ضربًا وطردوه شرّ طردة من المسجد بعدما شنت الفضيحة أسماع آخرين ولما له من سمعة بطالة سلفًا والتي جعلت الناس يطلقون عليه الشيخ (أحا).

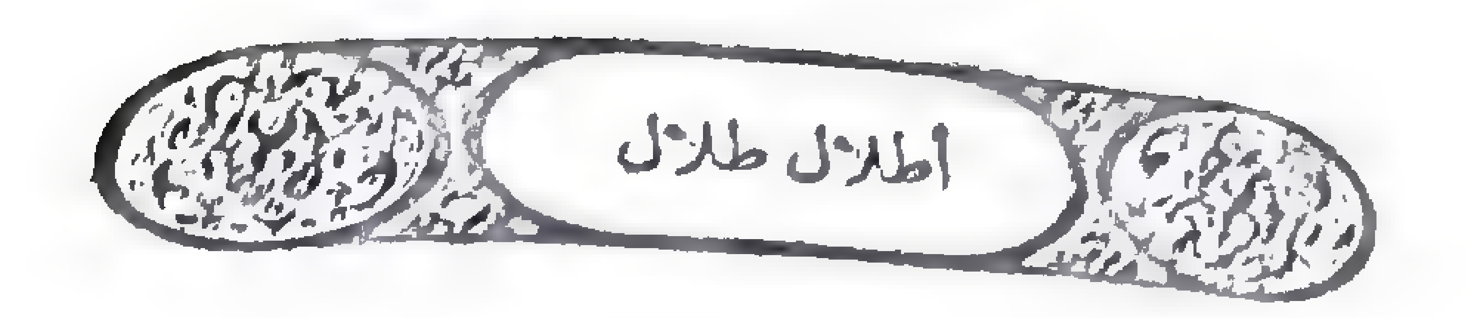
تقوقع الرجل في ركن مظلم من أركان ميدان أبي الريش وهو يتحسس تورماته وجراحه لقد سحلوه وفتتوا عظامه، وها هو الآن لا يستطيع العودة لبيت الشيخ الدهل وإلا لطحته زوجته إربًا ولا يستطيع العيش بوجهٍ مكشوف في حي السيدة وإلا تفل الناس على وجهه، في الوقت الذي اقتربت منه سيدة عجفاء تلبس العوينات وتعتمر طرحة سوداء حتى إنه ظنّها ملاك الموت. اقتربت منه في الظلام

وجعلت تتفحص جروحه وكدماته واقتربت من ثيابه وأخرجت له جلبابًا حريميًا أسود وطرحة سوداء.

- البس دول وتعالى معايا، المعلمة نادية عاوزاك.

بمجرد سماع اسم نادية استجاب فورًا وارتدى الثياب وغطى وجهه بالطرحة وذهب في إثر (حرافية الباطنية) ويدخل بيت نادية وهو لا يعلم أنها المرة الأخيرة التي سيرى فيها الشارع.





شارع الهرم 1995

كانت مشاوير طلال اليومية للكباريه لها غرض آخر غير ملاحقة نادين وليس رغبة حقيقية فيها، كان طلال ذا عقدة أصيلة من ملابس النساء، يلبسها تحت مظهره الرجولي ويتلذذ بها ويلبس الفاضح منها بينه وبين نفسه، عقدة غريبة كشفتها يداي وأنا أشق جلبابه حين صفعني، لا أعرف عن هذه العقدة شيئًا. وفي الأيام التالية لم يستطع إظهار وجهه لرواد الكباريه الذين لاحظوا قميص النوم الذي يلبسه تحت جلبابه الموقر، بل قرر أن يلغي الاتفاق السري بينه وبين جعفر في الاستيلاء على الملهى، ولنعود الآن للقائي الأول مع ربة الملهى وصاحبته الحاجة شوشو.

كان الفنجان يدور في يدي لأبصر كارثة محدقة بالحاجة شوشو، لمة انتزاع وضياع ودموع ومحكمة في انتظارها، كنت أسمع نواحها الآن في أذني وأنا أتفرس ملامحها المطمئنة تحت طبقات المكياج، وضعت الحاجة شوشو مبسم الارجيلة جانبًا ثم أراحت رأسها على كفيها وهي تنظر إليّ بشيء من الاستهانة ولكن فيه بعض التردد:

- انطق يا واد شايف إيه؟

تلاعب حاجبها مع عينيها بغمزة قاسية:

- إيه مش عارف تقول.

نظرت لها في شفقة وأزحت ببصري عنها، كانت نظرة خاطفة لكنها زلزلتها بشكلٍ أو بآخر.

- فيه إيه يا واد قول؟

- أنا شايف حاجة واحدة بس يا حاجّة.

- شايف إيه بسم الله الرحمن الرحيم.

أعدت الفنجان لدائرة بصري وأنا أقول كلمة واحدة فقط أسمعها تتردد في حنايا وجداني:

- خراب.

ندت شهقة ذعر من الفنانة وهي تبسمل وتحوقل صارخة في وجهي:

- بعيد بعيد بعيد.

أغلقت فمي ريثما تستوعب هي ما نطقته؛ إن كلمة خراب كلمة لها تأثير ساحق وكأن الكلمة نفسها لها طاقة سوداء، خراب يعني أن تزول النعمة عن بكرة أبيها وأن تساوي بالأرض كل إنجازات الإنسان، خراب يا حاجة شوشو خراب.

انزاحت عن المائدة واقفة وقد أعطتني ظهرها؛ فقمت أنا الآخر وأنا أقترب منها، كنت أعشق تلك اللحظات التي أواجه بها أصحاب النفوذ والقوة بمصير أسود آتٍ في الطريق، كانت تنتابني لذة سادية وأنا أرى وجوههم الممتقعة إثر ما أنعق به من أخبار سوداء إن الروحانية تنبعث من ثناياها القسوة، فأنا في نظر مَن أقرأ له مجرد عراف يُلقي له بالقروش لو رضي عن كلامه ويعود هو لسلطانه وأعود أنا لفقري، لماذا لا يغتني العرّافون والسحرة ذلك الغنى المرجو في الأحلام؟، لقد وجدتهم على مَر السنين أناسًا بسطاء، حققوا معي ودققوا في العرافين والروحانيين،

تجدهم متوسطي المعيشة وقد تجد فيهم أيضًا الفقراء، لكنهم يملكون شيئًا أغناهم عن ملذات الحياة وأطماعها، يملكون الاتصال مع العالم الآخر ويسترقون الأنباء والمعاكسات القادمة، كنت أعرف أنني مهما صدقت لن أكاقًا بالطريقة التي ترضيني، ولكن إدمان الإنسان للخطورة والأهمية هو ما جعلني أمارس ذلك النشاط من وقت لآخر.

- خدعة وعقود امضت ونهيبة وسرقة عيني عينك.

التفتت لي وهي تتفرسني وقد سال منها الدمع وعضت على شفتيها بألم، كانت تعرف أن هذا التوكيل القانوني الذي أعطته ل(جعفر) سيوردها موارد الهلاك، ولكنها وقعت وانتهى الأمر، لقد لمست تمردًا من جعفر عليها وجاءتها أنباء بأن (جعفر) يعيد ترتيب الوظائف والاختصاصات في الكباريه وأنه ينوي تغيير فريق الحسابات والإدارة ليصبح كل شيء تحت سيطرته، ولكن في المقابل ازدهر الكباريه خصوصًا مع إتيان جعفر بفقرات جديدة كان منها ابنة الطبال شافعي نادين.

- أنا أحلامي ماتنزلش الأرض أبدًا.

كانت شوشو تكلم نفسها وقد نسيتني تمامًا كما هو متوقع.

- إحم إحم.

عادت من غيومها لتنظر إليّ مرة أخرى قبل أن تقرر:

- تشتغل معايا يا واد؟

- أشتغل إيه؟

- أنا ممكن أمسّكك الشيشة لأن جعفر مش حيخليني أحطك في حته مهمة.

- بس أنا ما أعرفش أشتغل صبي شيشة.

- مش مهم.

اقتربت من المائدة وتناولت حقيبتها وأخرجت منها رزمة صغيرة من فئة الخمسة جنيهات.

- إمسك دول 500 جنيه خليهم معاك وأنا هديك تاني بس تفتح عينك كويس أنا عاوزة أخبار جعفر أول بأول.

يا فرحتي لقد عينت في كباريه لأشعل الفحم للزبائن وأشتغل كجاسوس أيضًا لا بأس فهي مهمة وستنتهي على أية حال خصوصًا وأن حال المخللات لم يعد يؤتي بثماره كما السابق.

وذهبت في اليوم التالي لأستلم عملي الجديد وأنا سعيد بأنني بتُّ بالقرب من الكلبة بنت الحرام نادين التي صفقت قفاي بصفعة محترمة، لم أقابل جعفر وجهًا لوجه سوى مرتين مرة حين ذهبت ليتفحصني ويقيسني، وفي المرة التي ضُربت فيها من الكهل الخليجي، لكن الأخبار كانت تصل أولا فأول للحاجة شوشو التي عرفت أن ثمة اتفاقًا سريًا بين طلال وجعفر، كان طبعًا الهدف هو الاستيلاء على الملهى الذي يعتبر علامة سياحية من الدرجة الأولى في مصر، إلى أن جاءت الضربة في طردي من المكان ومن وقتها لم أتواصل مع الحاجة، ولم تتصل هي وانقطعت الأخبار.

ومارست أنا الشبشبة انتقامًا من الرجل ولكن ترى ما الذي حدث للرجل؟

لم تكن الحفلات الخاصة من نشاطات جعفر المفضلة إذ إنها تضطره للغياب عن الصالة وهو الذي يريد أن يحكم قبضته على كل مقعد فيها، ولكن رغبات طلال أوامر، وبالرغم من سوء سمعة الحفلات الخاصة في مصر وخصوصًا بعدما حدث للمطرب الشعبي أحمد عدوية وتعرض فيها لعملية إخصاء كيماوي من قبل أمير كويتي في عام 89، كان حديث الناس لا يهدأ عن عدوية وكلما شاهدنا أميرًا خليجيًا تذكرنا عدوية والذي أخصاه الأمير وتسبب في شلله لسنوات فقط لأنه غار على صديقته منه، ولكن في اللحظة المناسبة طلب طلال منه الاحتفال في الملهى بمناسبة عيد ميلاده، أعد له جعفر كل اللازم من كعكة كبيرة وزجاجات الويسكي والمزة العامرة باللحوم المشوية وفي تلك الليلة لم يعد طلال كما كان أبدًا، في الأول كانت تطارده كوابيس مزعجة فيها صرخة دهشة، كان يحلم أنه يمشي في شوارع

مدينة غريبة وكلما نظر له أحدٌ كان يصرخ من الدهشة والفزع ولكنه لم يكن يرى في نفسه ما يثير الدهشة، ظلّ يجري في الشوارع والناس تصرخ منه وتهرب كما لو كان مجزومًا في نهاياته، ثم توقف أمام أحد المحال التي تعرض ملابس نسائية ساخنة، توقف أمامها وهو يلهث ووجد في زاوية الفترينة مرآة فنظر ثم صرخ هو الآخر كان وجهه بلا عينين.

صرخ واستيقظ من النوم مذعورًا، ثم دخل في مرحلة اكتئاب حاد كان فيها يشعر بأن الموت اقترب وأن الشيطان يعد له حفرة من الجمر على سبيل الاسترخاء، لم يكن الرجل سليمًا من الأساس، كان يعشق ارتداء الملابس النسائية لدرجة الهوس، يقضي أوقاته يجرب الملابس أمام المرآة في فيلته بالمهندسين، فيروسٌ عجيبٌ أصاب الرجل وجعله مدمنًا على ارتداء الملابس النسائية الداخلية، الغريب أنه لم يكن شاذًا أو مثلي الميول، بل كان يعشق النساء لدرجة الذوبان في تفاصيلهن بل كانت تنتابه الغيرة النسائية حين يرى سيدة جميلة أو غانية مزهوة بأنوثتها، أكيد النفسانيون يعرفون تفسيرًا وسيقولون هي شهوة اللبس المغاير أو الـcrossing dress.

وفيها لا يستثار الشخص إلا وهو يرتدي ملابس نسائية، وهي ظاهرة نفسية كانت منتشرة بين نبلاء البلاط الملكي في أوروبا، فتجد (الأمير من دول) يرتدي الفساتين الناقشة والغارقة في الدانتيل ويعتمر القبعات الرقيقة ذات الريش ويتحلى بالمجوهرات وعقود اللؤلؤ وكل الأصباغ اللازمة للوجه من رسم للعيون وطلاء الشفاه، فتجد الأمير وقد تحول لعانس مشعرة يظهر شنبها ملونًا بأحمر الشفاه وتظهر شعيراته لتخترق الحرير، ولكن كل هذا لا يهم أبدًا المهم أنني هنا الآن مع فساتيني وزينتي وليكن ما يكون.

رقصت نادين كما لم ترقص من قبل وبدت كشمس ساطعة توزع الغواية والأمل على الجميع بالخصوص صاحب عيد الميلاد البرنس طلال، كان يبدو شاردًا أثناء الاحتفال ويراوده ذلك الحلم بين الحين والحين ليسد عليه المباهج.

اقترب منه جعفر وهو يربت على يديه:

- مالك يا برنس شكلك مش مبسوط ليه؟؟

نظر له طلال قائلاً له:

- أبغي نادين الليلة.

ارتبك جعفر من هذا الطلب الذي بدا صارمًا من طلال، فهو لا يظن أن يسمح شافعي بهذا أبدًا وإن لم يقُم بتنفيذ طلب طلال فقد يذهب أيضًا الاتفاق القديم من طلال الذي وعده بأن يستخلص الملهى ويكتبه باسمه إذ إن سمعة الرجل لا تسمح أبدًا.

طفق جعفر يفكر ليريح طلال، لا شيء مستحيل وبالفلوس نقدر على إزاحة الجبال، اقترب من طلال وقرب من أذنه هامسًا:

- إيه رأيك تعقد عليها عرفي وتبقي بتاعتك لحد ما تستكفى منها؟

سرح طلال لبرهة وبان له الحل مناسبًا فمعظم الأمراء العرب يتزوجون سرًا الفنانات خصوصًا في الثمانينيات والتسعينات وأصلا البنت لم تنتشر بعد.

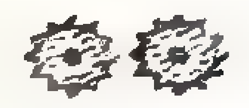
- أدفع فيها كم يا جعفر؟

سرح جعفر لبرهة وحسب حساباته ثم قال:

- نقول نص مليون جنيه كويس.

ظهر الاعتراض على وجهه إلا أن جعفر بادره بابتسامة تشجيع فوافق ليحين الآن دور جعفر في إقناع شافعي بالبيع.. أقصد بالزواج.

وفي الليلة التي ضربت فيه سميرة بشعذاب طلال كان هو يوم زفاف نادين على طلال وبالرفاء والبنين إن شاء الله..





السيدة زينب 1967

دخل الشيخ الصفتي لدار نادية وهو مرتبك يحضن كتبه وصرة ملابسه وهو موتور القلب مرتبك، لتقابله نادية وهو بعد في لباس النسوة، كانت في أوج تألقها فنظر لأسفل مطرقًا في خجل.فأخذته لغرفة خلفية مجهزة لمعيشته، وتركته ليستريح بعدما وضعت (عراقية) صفحة الطعام على مائدته، كانت عراقية تختلس النظر له باعجاب فهو على قدر من الجاذبية التي تعجب عراقية ولاحظت نادية الأمر وابتسمت.

-أؤمريني يا ست نادية.

-عاوزة عطا.

اختلج وجه الساحر العاشق وكتم انفعاله فمضت لحظات قبل أن يسأل:

- تحت رجليكي؟

- لا .. تحت الجزمة.

انكب الرجل على أسحاره بعدما سربت له نادية قطعة من أثره سرقتها عراقية من بيته، كانت نادية تزور عطا في احلامه يسمع صوتها ويستعيد لماليين المرات

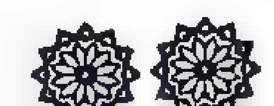
كلامها ومواقفها وجمالها، بدأ في التخلي عن تعصبه في صحبتها لم يعد يقصد المواضيع كي يزورها، لقد اخبرها الشيخ الصفتي بأن المراد يتحقق في سبعة أيام التي وهو يذبح أول أضحية للأسياد في الحديقة الخلفية.

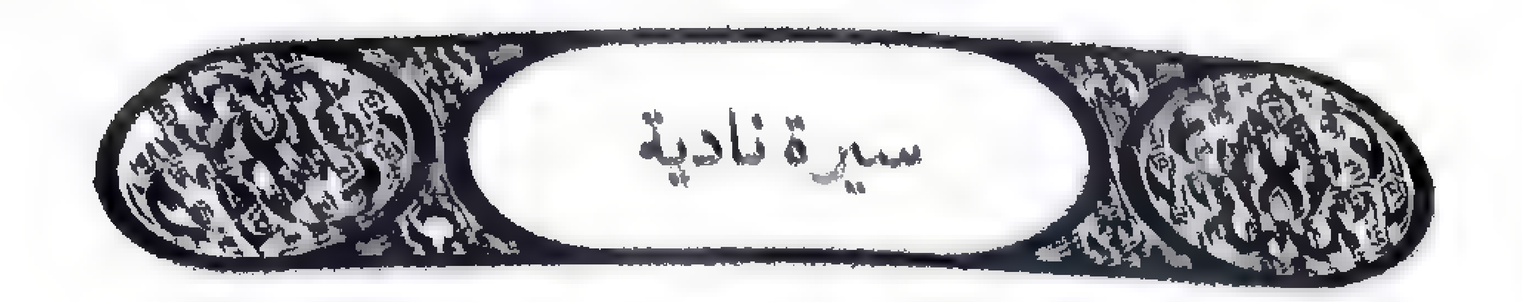
- الخاتم ده من العقيق الأحمر هيخض قلب عطا من جوه.

وبالفعل استجاب (عطا الخشن) ووجد نفسه عريسًا لنادية بعدما بذل في سبيلها ما طلبت وزيادة، وتوكدت سلطتها على عطا واستعادت بريقها بل وزاد عليه أنها أنجبت ولدًا وبنتًا في عامين متتاليين. كانت قططها سعيدة بتوافد النسل الجديد للبيت كان عطا مثالاً للفحل المطواع يتشكل بين يديها كالعجينة بينما احترقت زوجته وغريمتها (فوزية) من القهر فراحت الأخيرة تكيد لها وتبعثر كلام عن أصلها وعملها في البغاء فما كان من نادية إلا أن تصنعت خناقة لرب السما مع عطا وطردته من بيتها ليعود إلى زوجته الأولى كعقاب لها، ولكن نادية كانت تريد هذا حرفيًا، أطلقت عليه دفعتها الثانية من السحر ليجلس إلى جانبها كأختها وطلبت الطلاق فطلقها لتخرج نادية بفوز معقول وهو الطفلان وجزءٌ من أملاك عطا وتجارته بحكم أنها الحاضنة ، ولم تكد شهور العدة تكتمل إلا وذهل الجميع من إعلان زواج نادية من المعلم (منصور زايد) صاحب المخبز والذي كان الذراعَ الأيمن لعطا ورفعته الى جانبها كان يتميز بالغشم والقوة فصار بين ايديها عجينة تشكلها كيفما راق لها، انجبت منه ثلاثة ابناء ولدين وبنت فزاد قبيلتها ثم قررت الاستغناء فطلقها دون أن ينبس ببنت شفة وعاد لزوجته الأولى بعدما أخذت نادية الكثير علاوة عن كفالة أولاده، ثم ألقت بشباكها على فريد العسال لبَّان الحي لتستحوذ منه على بيتين وتتركه بعد أقل من عامين، وكان سعيد الركيب آخر أزواجها والذي أتت منه بولد قبل أن تصل نادية لسن يأسها وما إن أقبل عام 75 إلا وكانت تملك قبيلة من الأبناء والبنات والقطط، وأخيرًا استقر لجانبها (الشيخ أحا) كزوج بعدما دفع لها أغلى مهر تأخذه امرأة بعد أن عاش لها خادمًا لأكثر من

عشر سنوات شاع عنها أنها تعمل الأسحار لجذب الرجال، امتلأت نادية بالدهن المدروس لتصير أنثى السيدة بلا منازع فقد كسرت عين الجميع واحتفظت بأولاها جميعًا تحت سقف واحد وبكفالة أعيان المنطقة رغمًا عن بوزهم، أصبحت نادية تدير كل هذا بكل فخر وثقة في النفس وجاء عام 75 حزينًا إذ ودعت (أرجوك) لمثواها الأخير بعدما هزمها المرض وبقيت نادية ملكة متوجة على بيتها وأبنائها وأملاكها تثير الحقد ويتأجج الحسد في النفوس، ويرتفع سقف العداوات مع العديد من عائلات الجنينة وخصوصًا النسوة. ويأتي عام 1979 وقد بلغت نادية أوج قوتها وباتت تتحكم وتحكم والكل يطيع يخدمها قطيع من النسوة، بالإضافة لزوجها المخلص والذي أعطاها من أسحاره ما أكد قوتها، ماتت أرجوك بين أحضانها تاركة إياها بعد عشرة دامت لأربعين عامًا، أصبحت نادية منطقة محظور الدخول فيها وإلا كان مصيرك أن تلفظك بعدما تأخذ منك طفلاً أو اثنين، وبالرغم من أن كل أزواجها لهم أبناء لدرجة أن الأمر اختلط على كثيرٍ منهم عندما كان أبناؤها يلتقون مصادفة مع إخوتهم، لقد تشعبت نادية في نسب العائلات وتركت بصمتها على إنتاجها من الأطفال، ثم بدأ الأبناء في التزاوج مع جيلهم لتدخل نادية الستين وقد بدأ الأحفاد يهلون عليها لتزداد قوة وتصبح رمزًا للمنطقة حتى في الأفراح الشعبية باتوا ينادون على اسمها كالنجوم.

مات الشيخ أحمد تاركًا لها إرثاً من التعاويذ جعلها تسيطر على مقاليد الأمور وكانت تظهر في عرس أولادها كملكة متوجة إذ إنها احتفظت بجمالها ورونقها، حاولت كثيرًا التأثير على حزين ليعود لها ولكنه رفض وأصر على البقاء في الخارج، كان يعرف أنه ابن سفاح سمع هذا الاعتراف مرة من أرجوك وهي تهذي، لا يريد إخوة بلا نسب كلهم يعرفون آباءهم إلا هو، ثم كان اليوم المفصلي ليسدل الستار على نجوميتها.



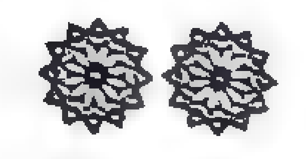


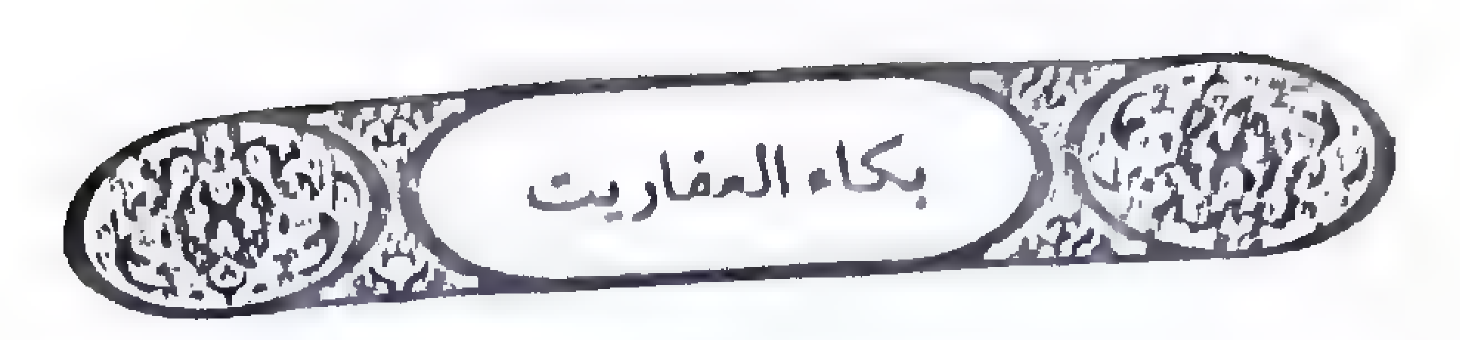
سيرة نادية

لم يكن عشق القطط شيئًا واردًا على خاطرها هي تجد نفسها تنسحب كل ليلة كملكة لتفقد رعاياها الفقراء، تهمس بأسمائهم وهي تتجول في الشوارع الجانبية والحارات الصامتة وتحمل حقيبة السوق مملوءة بالطعام، يتجمع عليها الرعايا خارجين في فرائهم المرقط من أسفل السيارات ومن على درج المنازل وعتبات الشقق، يركضون نحوها بكل لهفة وترحيب، زرافات من قطط الحي يأتين لها ليأخذن نصيبهن من الطعام، حتى في أواخر أيامها حين انعقدت عليها خيوط الوحدة والرغبة في الابتعاد كان هم يزورونها فجرًا، كان تعرف كل قط على حدة بل إنها كانت تطلق عليهم الأسماء فهذا الأكر المدملج يذكّرها بزوجها الراحل الدكتور وهذه القطة المسنة تذكّرها بأرجوك وهذا الذكر اليافع يذكّرها بحزين وهذه الشرسة تذكّرها بفوزية، أطلقت على القطط أسماء أمواتها سواء كانوا فعلاً موتى أو أحياء، كان الجيران يسمعونها تضحك معهم وتوبخهم وتحكي لهم، كانوا يؤكدون بأن القطط ترد عليها بل كانو يسمعون نغمة المواء كأنها ردًا فعليًا على الكلام، فتارة يسمعون القطط تموء بحزن وتارة يسمعونها تفح بشراسة وعداونية وتارة يسمعونها وكأنها تدافع عن نفسها، انتاب الحي القلق واعترته الغرابة والخوف من تلك السيرة، سيرة نادية، ظهرت نظرات الخوف والقلق تجاه أي قطة، كل هر من قطط الحي باتت له صلة أكيدة بنادية، فكلهم على حدٍّ سواء يذهبون لبيتها، يتجمعون في صمت لا

يقطعه سوى معض المواء أمام بابها حتى تخرج عليهم بالطعام والعصير، راقب معي كيف تتمسح القطط في ساقيها المرتعشتين، راقب كيف يدينون لها بالولاء والتعلق تتهادى، مَن منّا لا تعتريه مشاعر الحسد عندما يرى حيوانًا يلاطف شخصًا ويلعب معه وفي نفس الوقت يرفض أن يقترب منك أنت، ما الذي يحمله الآخر ولا يوجد في روحك، أهي المحبة مثلاً؟، أهو السلام الداخلي؟، أهي الذنوب التي تجعل منّا كائنات جاذبة لتلك الحيوانات المحبوبة؟، إن التراث الروحي للقطط ومدى اتصالها بالعالم الآخر تعج به كل الحكايات، بات كل الجيران يتحاشون التعامل مع القطط بطريقة فظة، بل بدأت موجة من الرعاية والحنان، الجارات يلقين لهن بفضلات الطعام ويملأن الأواني بالماء لتشرب ويضربن أولادهن لو تجا طفلاً فيهم وشد القط من ذيله أو ضربه، تنزل عليه الأم باللسعات والقرصات الموجعة كيلا يفعلها مرة أخرى، كانت الأمهات تخاف عليهم من غضبها وعقابها، حتى بعد رحيل نادية باتت السيرة حية تسري في ارجاء الحي، وكل من تسول له نفسه بإيذاء قطة او ضربها أو طردها، كانت تزوره نادية. الغريب أنه مع تكرار الأمر بات الناس الذين يتمتعون بالفظاظة ويعاملون الضعفاء بقسوة أو استهانة باتوا يعرفون جيدًا أن نادية ستأتي لهم، ستتكل بحياتهم وتمسح بهم بلاط البيت، زيارة نادية ليست بالشيء السار أبدًا، ربما تصاب بالشلل مثلاً أو تفقد القدرة على النطق أو يزهدك النوم فتبقى بجفون مفتوحة رغمًا عنك لأيام حتى تصاب بالخرف، أو ربما تصابين بالبوار والعنوسة أو النزيف، وأحيانًا تكون الزيارة قاتلة ويموت المضيف من فوره، أي ظلام وأي نور يحيط بتلك الروح، الكل خائف من عقاب ما والكل صاغر لكيان غير مرئي يرعى قطط الحي ويضرب بيد من فولاذ عن أقفية من يقسو على القطط أو حتى الضعفاء الذين لا يملكون من أمرهم شيئًا في الحياة، أسَر بكاملها ترزح تحت نير الفقر والهوان وتراهم مهمومين جالسين على أبواب بيوتهم المهدمة يتنسمون عبير الميدان الملون الزاخم بالثراء، لا تحسب أنني أصف لك المتسولين والشحاذين، لا لم أقصد هذا بتاتًا،

ولكني قصدت الغالب الأعم من شعب السيدة النفيسة، فقراء لدرجة أنهم يعيشون بمستوى أعلى من الكلاب وأقل من القطط، هل تعرف الفرق، هم لا يستجدون أحدًا لدرجة الذل ولكنهم يرحبون بابتسامتك ويقتسمون معك عطاياك لهم، إنه التعفف أتعرفون التعفف؟ لقد ذكرهم القرآن الكريم (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا) الواقع أننا شعب من المتعففين سواء كان هذا التعفف إجباريًّا أصيل أو طبع توارثناه، فنحن باستمرار في احتياج ما بل إنه متكرر على نسق أيدي كجينات الوراثة، آسف للدخول في تلك التفاصيل فالحياة في تلك الأحياء تورثك شجنًا وحساسية أقرب لدموع الفرح بعد فوات الأوان، تورثك كرامة واعتداد بكل هذا الفقر والصبر والمعايشة الضاحكة رغم كل النقص، شيئًا فشيئًا ذابت الحكاية وترسخت في وجدان الأهالي، وباتت زيارة نادية لهم أكثر رعبًا من كبسات البوليس على المجرمين التائبين، حقًا لقد كانت سيرة نادية كفيلة بجعل الجميع يتلفتون حولهم برعب خفيٍّ كان كل واحد فيهم ينتظر عقابًا منها على ذنوب لا يعرفها سواه.



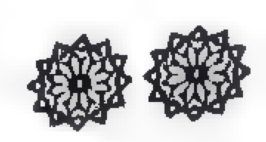


بكاء العفاريت

لم يعرف سكان الجنينة ما حدث بالضبط، لقد انهار السقف بالكامل على مَن في البيت، بحثوا في الرماد والأنقاض فلم يجدوا إلا التفحم ، تناحر الورثة على البيت ودخلوا في مشاكل قضائية لتقسيم أرضه، وبقي البيت مُعلقًا في المحاكم لوقتِ كتابة هذه القصة، ولكن الأحداث لم تنتهِ حول نادية، الكل يتكلم ويحكي سيرتها ويتتبع نسلها في الحي "العاهرة، صائدة الرجال، شجرة الدر، الفاجرة"، كلها نعوت كانت تخص نادية ومرّ عام وفي العام 1986 بدأت الأحداث المرعبة وفي نفس توقيت الحريق تقريبًا.

لقد عاودت نادية الظهور في الحي، ولكنها ظهرت في كل شبح يهاجم الناس، من تزُره نادية يصيبه النحس والمرض والفقر والموت، كان الجيران يسمعون خطواتها قرب البيت الذي تحولت أطلاله لخرابة يلقي فيها الناس القمامة، لقد أقسم بائع الفول ومكوجي الرجل وبعض أطفال الحي إنهم شاهدوها تهيم فوق أطلال الخرابة وكأنها تبحث عن شيء، أصبح الحي كله يترجف ويتسلى الناس على المقهى صباحًا بسيرة نادية، إلى أن أصبحت تزور الناس في بيوتهم، أولهم كان مع (فوزية) زوجة عطا الخشن وصديقة نادية الخائنة، لقد طرقت عليها الباب ليلاً، كانت تصرخ في فوزية "افتحي أنا نادية"، فوزية الآن تعيش مشلولة غير قادرة حتى على النطق أما عطا الله زوجها فقد تحول لدرويش لا يبارح صحن المسجد الكبير، والزوج الثاني

منصور، يقول الناس إن نادية طرقت بابه ليلًا فمات في الحال بعدما توقفت دقات قلبه، وزوجها الثالث وجدوه غارقًا في قدر الحليب بعدما سمع نداءها له فوقع على بوزه في القدر الذي يسوي فيه الارز بالحليب ومات من فوره، أما زوجها الرابع فقد فُقِدَ ولا لم يعثر له على أثر، وعلى مّر السنين كانت نادية مصر الفزع والشؤم والخراب في معظم الأحوال، لم يكن بيت نادية بالبعيد عن شقتي، إذًا فهو الخرابة الخلفية للبيت حيث رأيتها تتهادى على أطلالها بين القطط.



دولت العمر كله

1995

هناك مَن يطرق الباب، كنت منشغلاً في عمل شيء ما لا أذكره، فتحت الباب لأجدها، (دولت) ، ارتبكت فأنا أعرف أنها تريد استعادة ما لديها من مدخرات، رحبت بها فدخلت وبين إصبعها لفافة تبغ محشوة بالحشيش، لا عجب فهي المصدر ولا بُدّ أنها (كييفة) بلا شك، كانت ترتدي روبًا منزليًا وتعقص شعرها الأسود عل هيئة كعكة، سمعت أن السجن ينطبع على ملامح الشخص فيجعله أكثر هدوءًا وأكثر قسوة وحزمًا، لم أصادف امرأة خارجة لتوها من السجن من قبل، كنت أتفرس فيها بحثًا عن متغير بيولوجي مثلاً، ولكنها بدت طبيعية متماسكة قادرة أيضًا على الابتسام، كانت تعاملني برفق باعتبار أنني مثل وليد ابنها وقد راق لي هذا التعامل، صحيح أنها تاجرة مخدرات ولكنها سيدة على أية حال، بل إنها تتمتع ببعض الرقي الذي لم أجده في شادية وأبلة كريمة.

- تشربي شاي؟

- العمر كله.. لو فيه قهوة يبقى ياريت.

- فيه طبعًا.

تركتها ودخلت المطبخ وأنا أسمع حفيف خطواتها تتجول في الصالة الكبيرة لا بُدّ أنها الآن عند مسند الأريكة تطمئن على كنزها، تعمدت الإطالة في المطبخ حتى

أسمح لها بالتفتيش، بالطبع لن تجد شيئا. خرجت لها بفنجان القهوة لأجدها تقف حد الشرفة المطلة على الخرابة.

- دي خرابة نادية.

- إنتي تعرفيها؟

- العمر كله.. دي شجرة الدر ولحد دلوقتي الناس بتشوفها.

- إيه حكاية العمر كله اللي بتقوليها في كل كلامك دي.

فغمزت لي غمزة دلال وهي تقول:

- كلمة لقطتها من زميلتي ولاقيتني بقولها في كل كلامي وبعبر عن كل حاجة.

تناولت الفنجان وارتشفت رشفة ثم أشعلت سيجارة عادية وهي سارحة في النظر للخرابة:

- سمعت إن نادية زارتك.

ارتبكت فأنا لم أصرح بهذا السر إلا لنائلة شيقة جدًا

- مش بالظبط لكنها خبطت عليك

- نادية لما بتزور حد بتسيبله حاجة. نادية سابتلك إيه

- ما أعرفش.

- نادية سايبة لكل واحد حتة على أد ضميره

ناولتني الفنجان مرة أخرى وهي تبتسم:

- سمعت إنك بتقرا الفنجان

تناولت منها الفنجان وقلبته على طبقه فتحركت للسطوح وجلست على باب الشقة فجلست قبالتها

- ممكن أسألك سؤال؟

- اسأل.

- السجن.. حياتك كانت إزاي في السجن؟

سرحت ببصرها ناظرة للأفق، كانت الأجواء شتوية ورذاذ المطر يترك بقعًا على أرض السطوح.

- السجن قدر ومكتوب على جبين كل اللي يغلط ويمشي شمال.

لما رحلوني على السجن كنت فاكرة إني بحلم وإني أكيد هصحى من النوم في بيتي وعلى سريري، لكن الوضع كان حقيقي جدًا جدًا، في السجن لازم تتعلم تظبط أعصابك وتتعلم الصبر وتتعلم إن الحزن مش هيعمل حاجة.

- كان معاكي ستات في قضايا إيه.

- كنت في عنبر المخدرات وده عنبر رايق وستاته جدعان أوي، اتعرفت هناك على واحدة ونخنة تأييدة ولسه قدّامها خمستاشر سنة، وعمرها دلوقتي خمسة وستين يعني لما هتخرج هيبقى عمرها تمانين وكانت بتضحك ورايقة على الآخر لكن كل اللي جاتهم الحزن والاكتئاب ماتوا على طول أنا شفت أربعة ماتوا ورا بعض بعد ما دخلوا كام شهر بس.

- ماتوا من الحزن.

- آه طبعًا السجن ده أسوأ حاجة ممكن الإنسان يتعرضله السجن زي الجزار اللي بيقطع من عمرك كل يوم حتة، كل يوم بياخد من حياتك خرطة واليوم في السجن بشهر لكن فيه حاجة أخطر.

- إيه؟

- إنك تتعود عليه.

قلبت الفنجان، الحقيقة أن حديثها شائقٌ ووجودها خفيف الوطأ.

- أنا خرجت لاقيت ابني مدمن برشام والصغير بتاع كباية مع إنهم كانوا في مدارس لغات.

قربت الفنجان من عيني فسكتت وأنصتت باهتمام.

- إنتي بتدوري على حاجة، فيه حاجة ضايعة منك.

نظرت لي بتركيز وقالت:

- فعلاً بدوّر على حاجة وإيه كمان؟

- وعندك معاد مع واحد هتشوفيه لأول مرة.

- الله ينور عليك فعلاً عندي ميعاد مع أخو الست اللي قتلك عليها.

- فنجانك فيه فلوس كتير وغنى جاي في السكة.

ضحكت وقالت:

- منين يا حسرة أنا خارجة على الحميد المجيد.

- وهتلاقي حاجتك إن شاء الله.

- والنبي إنت كلامك سكر وريحتني.

وقامت وهي مسرورة وظننت أنني سيد الموقف إلى اللحظة التي أخرجت من صدرها مطواة وليد وأمسكتني من ياقتي وهي تقرب نصل المطواة من رقبتي:

- اسمع يالا أنا مابحبش اللف والدوران.

أمسكت برسغها وأنا أحاول تهدئتها:

- فيه إيه بس يا حاجة دولت؟

- فين الأمانة ياض؟

- أمانة؟

- الأمانة اللي كانت في الكنبة وليد قالي محدش سكن هنا غيرك.

- طب إهدي لحسن السلاح يطوّل.

قلتها بصوت عالٍ نسبيًا فكتمت فمي وهي تنظر حولها:

- وطي صوتك ياض.

أها إذًا أنتِ تعملين في الظلام من الواضح أنها لم تخبر أولادها بالأمانة، أظن أنه من حقها لأنها تعرف أنهم سينسفوها في أيام.

- طب ابعدي المطوة ونتفاهم.

أبعدتها وهي تنظر لي بتركيز:

- أنا فعلاً لاقيت الأمانة بتاعتك.

هدأت هجاة ولانت ملامحها وزال التوتر عنها.

- بس أنا اتصرفت فيها.

- بتقول إيه يابن الـ...

- من غير شتيمة أنا كان ممكن أسلمها للبوليس لكن مارضتش وقلت صاحب الأمانة أولى بيها.

- أمال اتصرفت فيها إزاي؟

- شيلتها في مكان لحد ما أعرف صاحبها.

- وآديك عرفته فين هي بقى؟

تظاهرت بالوقار واستعدت رباطة جأشي وأنا أقول لها:

- في الحفظ والصون لكن أنا ليا نسبة قانونية فيها.

نظرت لي وهي تقول في اندفاع:

- أنا هراضيك بس هاتها لأحسن ممكن مايحصلش كويس.

- من غير تهديد أنا مش محتاج مراضية أنا عاوز عشرين في المية منها.

- لا ده كتير أوي أنا هديك عشرة بس.

تظاهرت بالتفكير الرافض ولكنها استحثتني:

- الفلوس دي هي اللي حيلتي من حطام الدنيا.

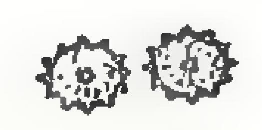
- يبقى اتفقنا: أنا هاخد عشرة في الماية بس هنقدر الحاجة إزاي؟

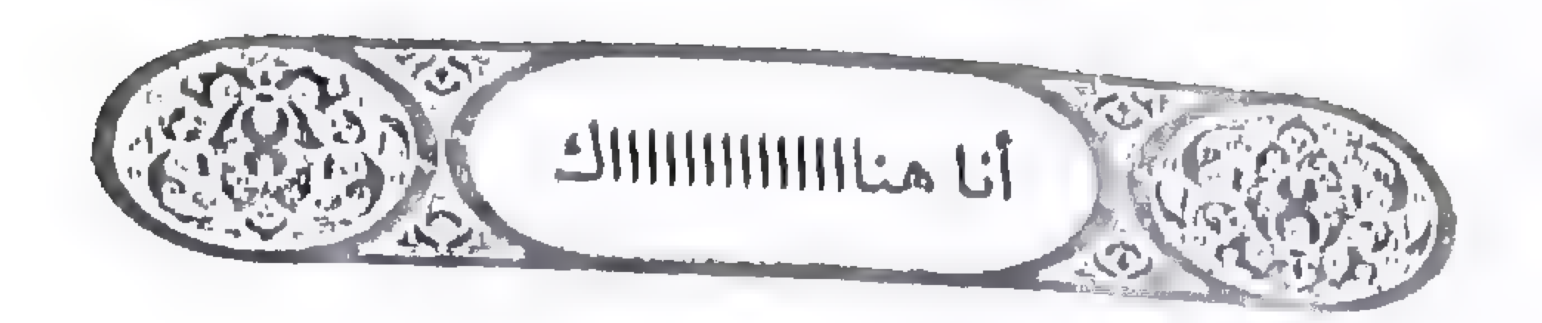
- أنا عارفة تقديرها كويس وانت كده ليك بالصلاة على النبي حوالي ألفين جنيه.

- ماشي اتفقنا انتظريني ساعة وأنا هجيبلك الحاجة ناقصين الألفين جنيه بتوعي.. ماشي؟

فغمزت لي بعينها مرة أخرى وهي تقول ضاحكة:

- العمر كله.





أنا هنااااااااااااااك

ما زلت أرى نفسي وأنا خارج نفسي، شعرت بأنني لست وسيمًا للحد الذي أراه في المرآة، بل ظهرت أكثر بدانة وغباء. كانت الجلسة ما تزال معقودة وهم يسألون الروح وتامر يكتب بخط سيئ جدًا ما يجيب به عليهم، كنت خائفًا مذعورًا للدرجة التي حاولت فيها البكاء، لكنني لم أجد دموعًا. شعرت أنني ميت لقد حلت الروح محلي أنا، لقد طردت روحي من جسدي. لا لن أتركهم يفعلون ذلك. تصاعدت مني طاقة غضب كبيرة واستجمعت كل طاقتي لأهوي بكفي على المائدة التي اهتزت كثيرًا وتناثرت الأوراق من فوقها، لا لا لا اقتربت من تامر فوجدت حاجزًا يعوقني فصرخت صرخة عاتية إلى أن انفلت مني الصوت ليزحف حول جسدي ويتبدد، أنهكني الغضب والصراخ فاكتفيت بالبكاء لصق الحائط القريب من جسدي، إنني لا أستطيع النفاذ إلى نفسي، ظللت أبكي حسرة وندمًا على موافقتي ناجي لإجراء تلك الجلسة الملعونة لا بُدّ أنني سأموت الآن بذنب تحضير الأرواح، يا لها من نهاية، ترى كيف سيكون شعور أمي وأبي، كيف سيكون شعور جيراني، وما هو موقف ناجي، تتابعت الأفكار السوداء لوجداني لدرجة أنه غلبني النعاس وأفقت على يد تربت على كتفي، كان نفس الرجل الذي رأيته منذ دقائق فقمت أواجهه فأشار إلى جسدي واختفى فركضت لجسدي والتحمت به وشعرت بكهرباء تسري في في في جسدي ها إنه جسدي وأنا هو الآن.

هاااااااااااااااا، هكذا شهقت أنا أستعيد وعيي لأجد ناجي واقفًا يدلك وجهي وعلامات القلق بادية على صحنته، حتى تماضر والبروفيسير يحيى وذلك الشاب بدوا في حالة يرثى لها من الهلع.

- هو حصل إيه أنا كنت فين؟

- إنت وسيط مافيش منك في الكوكب كله يا كابتن.

كان هذا كلام تماضر التي كانت تحملق فيّ قبل أن أهوي لذلك القرار المرعب.

- سيبوه ياخد نفسه يا جماعة.

وجاء لي بكوب ماء تجرعته كله وأنا أشعر ببرودة تسري في جسدي، كنت سعيدًا بالعودة سعيدًا بأنني ما زلت على قيد الحياة.

انفضت الجلسة وخرجنا جميعًا للردهة وقامت (تماضر) بإعداد القهوة وفتح جلسة أخرى للمناقشة.

- اللي حصل النهارده يعتبر معجزة بكل المقاييس.

نظر لي ناجي بفخر، ولكنني كنت متوترًا جدًّا، فأنا لم أحضر ما يحدث فعليًا بل كنت مجرد وعاء أستقبل أكتوبلازم الروح وأنها تجربة معناها الضياع الكامل.

- النهارده هنحتفل بدخول عضو جديد للجمعية.

ابتسمت الوجوه إلا أنا الذي بادرتهم بـ:

- لا مش عاوز.

نظروا لي في دهشة كبيرة..

فقال ناجي:

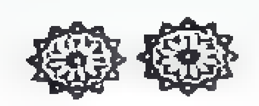
- ليه مش موافق؟

- أنا.. أنا مش عاوز أتصل بالأموات ولا عاوز أدخل العالم ده، أنا كده مبسوط وأنا هو أنا، أنا عاوز أتصل بالعايشين مش بالميتين.

اندفعت الدموع من عيني قهرًا وأنا أستعيد مشهد رؤيتي لنفسي وأنا خارج نفسي بل تركتهم وهرعت لمرآة كبيرة أتفرس في ملامحي وأبحث عن أي تغيير، لقد تغير شيء فعلاً، صحيح أنني لا أستطيع تحديده ولكني أشعر به، لقد تغير شيء في كينونتي ولكنني لا أستطيع التعبير عنه. لحقتني تماضر التي بدت أكثر رقو وليونة.

- ماتخافش، إنت كويس، إنت كويس جدًا، إنت أحسن وسيط اتعاملنا معاه.

واصلتُ العناد وأنا رافضٌ تمامًا حتى المناقشة، انتابني قلقٌ مُبهَم شعرت بالكراهية لهم جميعًا فاندفعت للباب خارجًا لا ألوي على شيء.



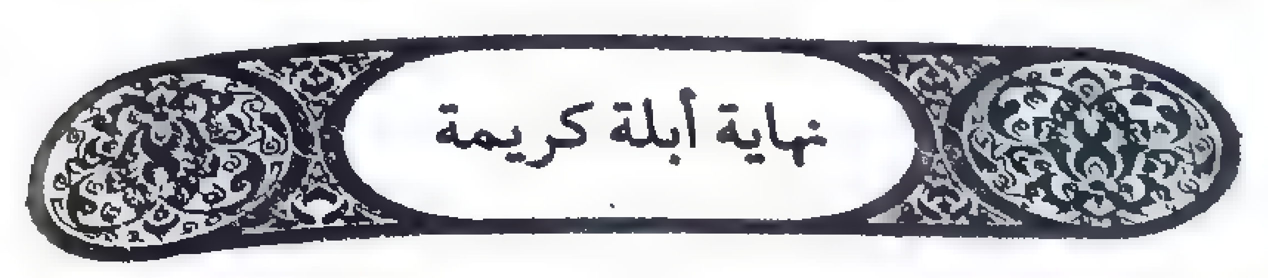


النهايات

كانت نادية في العموم شخصية صبورة تعلمت الصلابة من فصول عمرها الدرامية، لم يكن لها من أصدقاء إلا بعض النسوة اللاتي يأتين إليها لقضاء بعض الحوائج، كان شغف نادية الأكبر هو القطط، تراهم زملاءها وأصدقاءها كانت تشاهد أولادها وهم يكبرون ويتزوجون ولكنها أيضًا كانت تشعر بغربة وسطهم، لم تشعر بالأمومة قدر ما شعرت بالملكية أو التبعية لها، كأن مشاعر الأمومة كلها أخذها حزين معه في غربته، كانت تتوق لأن تراه، هي أمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة، جل تعليمها استقته من أرجوك في فن الغواية والجمال والاعتناء بالبدن، كانت تشعر بمساحة من الفراغ لا يسدها أي شيء آخر، شريط حياتها يمر يوميًا في فراشها وهي مستلقية عليه وبجانبها العديد من القطط، ما أنتِ إلا قطة يا نادية، قطة مشردة هربت بصغيرك وجئت للمدينة لتشاهدي فيها الأهوال، أين عائلتك الحقيقية الآن، أين أبوك الطيب وأخوك العنيف والذي هربتِ منه منذ أكثر من أربعين عامًا، أين عشيقك الذي أوردك كل موارد التهلكة وتركك تواجهين الفضيحة والعار وحدك، كانت نادية من هواة حفلات الزار تذهب لهناك أو تستضيف الجوقة عندها، كانت تهدأ بعد حفلات الزار، لا بُدّ أن الشيخ الصفتي ترك لها ميراثًا لا بأس به من العفاريت، العفاريت التي أتت الآن لتأخذ حقها منك نظير خدماتها لك.. النوم أصبح كوابيس وباتت لا تطيق الصحبة وتفضل الجلوس في المنزل مع القطط، إنها

مذنبة، ساحرة عاهرة شريدة في نظر نفسها التي تفرق الأبناء بعد أن ارتدت حتى أمهم سوءًا! لقد تلاشت أعراض الاكتئاب ليحل محله الجنون، أصابتها نوبات جعلتها تحدث نفسها تكلم الجدران والصور ثم تطور أمرها لأن باتت تكلم "القطط". لم تكن من النساء الثرثارات ولم يكن الكلام وسيلة من وسائلها بل كان دومًا صمت كأنها أرملة جميلة، لكنها الآن تتكلم وتتكلم وتحكي كل ما في صدرها للقطط. كانت تقسم بأن "القطط خير من الآدميين، لأنها تسمع بتركيز كبير". بدت مفزعة لأولادها الذين تسربوا جميعًا من قبضتها وتركوها وحيدة، بل وحجروا على أموالها وبدأ الشقاق والتشاحن بينهم حول أموالها ولكنها كانت في وادٍ آخر، لم تدرك نادية أنها وحيدة وأن أولادها تركوها بعد أن نزعوا منها أموالها، لم تدرك الجحود الذي تعرضت له وتوحدت تمامًا في بيتها يذهب لها الأولاد تاركين لها الطعام على الباب، وشيئًا فشيئًا تباعدت الزيارات وبات البيت مهجورًا كأنما تسكنه الأشباح بينما هي معتكفة في غرفتها لا يخرج منها إلا لإطعام القطط وبعض الفتات لها. أصبح الجيران لا يعرفون إن كانت حية أو ميتة ويخافون الاقتراب من بيتها الذي ظل لأربعين عامًا مضاءً مضيافًا. لقد تشفق على شجرة الدر التي شحبت واصفر لونها من الإهمال. كان الجيران يسمعون صوت بكاء ممزوج بمواء القطط يخرج عبر نوافذ البيت المغلقة، وفي صباح الجمعة بينما يرفع الأذان شبت النار في أرجاء البيت ووصلت للسقف الخشبي الذي بدأ في الاشتعال سريعًا. تجمع الناس وهم لا يدرون هل نادية بالداخل أو لا، إنهم فقط يسمعون مواء القطط وبعض الصرخات، الأبواب والنوافذ كانت مغلقة والنيران في أوجها تجعل إنقاذ أي حي في البيت مستحيلًا. انهدم السقف المشتعل كابسًا البيت كله باللهب والحريق الذي استمر لساعة قبل أن تجيء سيارات المطافئ وتعبر الحارات الضيقة المكتظة بالمصلين لكن كل شيء قد انتهى، شعر الناس في الحي شعورًا بالندم والتألم على تركهم نادية تصل لهذا الحال وهذه النهاية وبدأت الحكايات عن تجسدها في صورة قطة لدرجة أن كل الجيران أصبحوا يهابون القطط ويعاملونها بمنتهى [illegible]

لروح نادية التي تحوم وتوزع غضبها أو لعناتها وأحيانًا امتيازاتها عليهم، لقد أقسم ربيع بائع الفول بأنه يراها تهيم فوق الخرابة لأكثر من مرة، وأقسم مرزوق مكوكي الرجل بأنها دخلت عليه بشعرها الأحمر ووجه القطة أثناء سهرة عمل في دكانه، ربما كانت تحاول أن تقول شيئًا أو تفعل شيئًا.



نهاية أبلة كريمة

السيدة زينب 1996

بدأت نشاط الإنتاج الفني بحلول عام 1996، أسست لشركة صغيرة بالأموال التي حصلت عليها من (دولت) التي باتت من أعز اصدقائي، قررت إنتاج ألبوم للأغاني الشعبية، بحثت كثيرًا عن مطرب يصلح لإنتاجي، كانت إمكانياتي صغيرة جدًّا جدًّا فقررت أن أنفذ إنتاج شريط الكاسيت بطريقة (اللايف) وهي الطريقة الكلاسيكية التي تعتمد على وجود المطرب مع كامل الفرقة في الأستوديو وليس تسجيل كل آلة على حدة لأن هذا يستهلك ساعات كثيرة جدًّا بمبالغ إضافية مُرهِقة، وقع اختياري على مطرب له نفس بحة أحمد عدوية، أما مظهره فكان كالبرغوث، نحيف قصير متواثب سليط اللسان يصرخ طوال الوقت بالغناء ومعروف في ملاهٍ وبارات وسط البلد.. إنه (مجدي الهوا) وسر تسميته بالهوا أن صوته مليء بالهواء؛ فهو ينفخ ويزفر ويصرخ ويغني ولا يسمع أحد نهائيًا، كان يأتيني في كل مرة وبصحبته راقصة أو مضيفة من حانات وسلط البلد. الغريب أنه كان ينتقي النساء اللواتي يفوقنه حجمًا بمراحل كثيرة لدرجة أنك تشعر أنه جاء منها أو نبت من تحت إبطيها، خصوصًا المضيفة (بوسي) فهي دومًا في حالة سُكر بيِّن لا تفيق إلا لتشرب من جديد عاتية طويلة عريضة كأنها نموذج ضخم للأنثى في متحف التاريخ الطبيعي، أخبرني مجدي

وهو يصرخ في وجهي بأنها زوجته على سُنة الله ورسوله، كنت أتعجب من فرق الحجم الهائل بينهما فعلاً أو أتصور لو أن (بوسي) غضبت منه من الممكن أن تهرسه بمنتهى البساطة، الحقيقة أن (مجدي) مسكين فعلاً وقد شارف على الأربعين من عمره ولم يحظ بأدنى فرصة كي حتى يصبح محترمًا بين أهل كاره، لكن عصبيته وجنونه أفقداه الكثير من البرستيج المطلوب للمطرب، علمت بأنه يعمل سائقًا على تاكسي بالنهار ليفي احتياجات ابنه الوحيد ومن زوجة سابقة، ولكنه كان متعاونًا معي لدرجة كبيرة، فهو من أتى بالمؤلفين والملحنين درجة خامسة من نفس عينته أو أقل، لم نجد مكانًا لعمل البروفات سوى على السطوح تحت حبال الغسيل، وعلى مدار شهر كنت قد انتهيت من تسجيل معظم أغاني المطرب المجنون، وفي أثناء آخر بروفة صعدت (أبلة كريمة) لتجمع الغسيل المنشور بينما كنا نحن في أواسط العمل، نظرت لنا بتأفف وقالت شيئًا عن الإزعاج كل ليلة وأنه لا بُدّ أن ينتهي فاعتذرت منها وطيبت خاطرها فهم مهما كان جيراني وفجأة لمعت فكرة جهنمية في الأفق كنا قد توقفنا قليلاً حتى يتثنى لأبلة كريمة جمع الغسيل فاقتربت منها وهي تبرطم بعصبية:

- أبلة كريمة.

- عاوز إيه يا سي تامر مش كفاية الهبد والرقع كل ليلة.

- اسمعي بس فيه حاجة مهمة هقولهالك.

نظرت لي بجلبابها المنزلي ومنديل رأسها المحسور عن شعرها الغني بالأبيض:

- عاوز إيه خلصني؟

- إيه رأيك تجربي تغني قُدّام الفرقة دي؟

ظهر الذعر على محياها وهي تبصر الجوقة المكونة من عازف الأورج الكهربي والناياتي وضارب الدف وضارب الطبلة بقلق.

- إنت اتجننت في نافوخك عاوزني أغني قُدّام كل دول.

- وماله بس جربي ومش هتخسري حاجة.

لاح منها قبولٌ متردد فقطعت ترددها بأن رفعت صوتي:

- يا رجالة هنبتدي حالاً اتفضلوا.

فخرجوا من شقتي للسطوح مجددًا وجلسوا في أماكنهم بملل، لقد طفح بهم الكيل من تصرفات (اليوا) لدرجة أنني كنت أفك الاشتباكات بينهم كل خمس دقائق، وجاء مجدي بقامته النحيفة ووقف إلى قبالتهم ومتصورًا نفسه المايسترو صحابه.

- يلا يا عم هنخش من أول حبيبي راسي آخر رساوة سقاني كاسي بس بهداوة حبيبي راسي راسي راسي راسي.

- خلاص يا عم الراسي فهمنا أمك.

قبل أن يرتفع صوت مجدي في اشتباك قادم أخذته لجانب السطح:

- استنى يا مجدي عاوزين نسمع الست كريمة.

وأشرت بطرف خفي لأبلة كريمة التي ازرقّ لونها من الخوف.

- الكركوبة دي هتغني يا أستاذ تامر؟

- آه.

قلتها بتحدٍّ؛ فأنا هنا المنتج فبلع لسانه ووقف بادي العصبية فأشرت لها بالتقدم وأن تنظر لي.

- هتغني إيه يا ست كريمة؟

زاغت عيناها وارتبكت من الواضح أنها في أعلى درجات الفوبيا.

- إيه رأيك تغني... من حبي فيك يا جاري؟

لمعت عيناها ووافقت فبدأت الفرقة في عزف مقدمة الأغنية بينما أبلة كريمة تهتز بعنف فاقتربت منها وساندتها قائلاً بصوتي الأجش لتشجيعها:

- من حبي فيك يا جاري يا جاري من زمان.

فجاوبتني أخيرًا بعد لعثمة وتردُّد:

- بخبي الشوق واداري ليعرفو الجيران تارارا بخبي الشوق وداري اداري ليعرفوا الجيران..

وهكذا انطلقت تصدح الستينية بكل ما أوتيت من كبت. كانت مضغضة الصوت ولكنها تتبع الإيقاع واللحن بشكل مضبوط جدًا لدرجة أن الفرقة التي كشرت وألحدت بسبب (الهوا) بدوا منسجمين معها فعلاً وهي تتابع وتشير بيدها الطيبة وتتراقص باندماج مع المعاني (لمّا تصادف عالسلم وتصبح ولا تسلم قلبي يرقص من الفرحة والدنيا تدور حواليّا ما أعرفش إن كنت أنا رايحة ما أعرفش إن كنت أنا جاية واخبي الشوق واداري اداري ليعرفوا الجيران تاتاراراه). يبدو أن الجو راق لها جدًا واندمجت وهي تردد اللحن بكل بساطة وتلقائية حتى شبعت وفتحت عينها كأنها استفاقت من حلم حتى إنها تلقت تصفيق حادًا من الجميع بما فيهم أناء تصفيق حقيقي في هذه الليلة المباركة يا كريمة. كانت الدماء تجري على وجنتيها بخجل وسعادة ولم تستطع أن تلف وجهها للفرقة فقام عازف الأورج وهو رجل قارح من شارع محمد على ويدعى (محسن أبو سامية).

- الله الله يا ست كريمة والله اتكيفت وفرفشت والتي بتغني.

نظرت له وحاولت ضبط أعصابها لتستعيد الشخط والتذمر ولكنها فشلت أمام الثناء الحقيقي والحلم الذي كبتته منذ عشر سنوات حين قالوا لها إن الغناء عيب وحرام، ها أنتِ يا كريمة تحققين الحلم بعد خمسين عامًا من الشقاء والتهميش.

- شكرًا يا أستاذ.

- محسوبك محسن أبو سامية ولو تحبي أنا ممكن أشغلك شغل حلو أوي.

نظرت له برعب وأزاحته وهي تبرطم وتحمل سلة الغسيل:

- يا أخويا روح الله يسهلك مش فاضيالك.

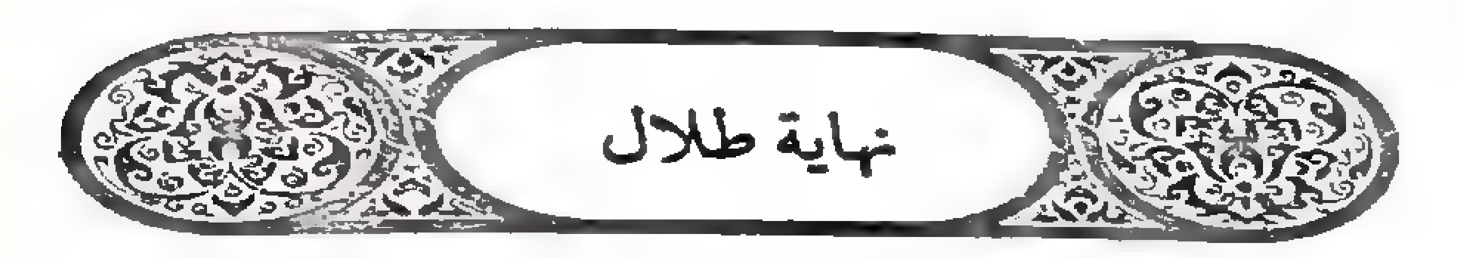
فجري الرجل وراءها وأقسم يمينًا بالطلاق بأنها (نمرة) حلوة ومن الممكن أن تمتهن الغناء في الموالد والحفلات الشعبية لأن صوتها طفولي جميل ولسه بخيره.

وقد كان.. بعد طول إقناع وشد وجذب اقتنعت أبلة كريمة باحتراف الطرب الشعبي، بقيت فنانة بجد يا ابلة كريمة، تغيرت حياتها بالكامل وأصبحت تذهب للحفلات والموالد لتغني وتغيّر مظهرها وعرفت عيونها الكحل وعرفت شفتاها الطلاء، كانت تلبس عباءة مطرزة وطرحة مشخلخلة واعتمرت الأساور الذهبية وانطلقت تغني في حب النبي وآل البيت والعشق والغرام والأدوار القديمة وقد ساعدها شكلها المسن في استقبالها براحة كبيرة بل واعتبروها مطربة مخضرمة لها صيتها وسعرها الذي وصل لمائة وخمسين جنيها في الحفلة فأغدقت على البيت رخاءها لدرجة أنهن هجرن كار الشنجان وباتت أبلة كريمة تشخط في السيدات قائلة:

- كان زمان وجبّر يا حبيبتي، الحاجة أم زينهم رايحة عمرة.

ثم ترسل لي بقنبلة عرفانًا منها بجميلي:

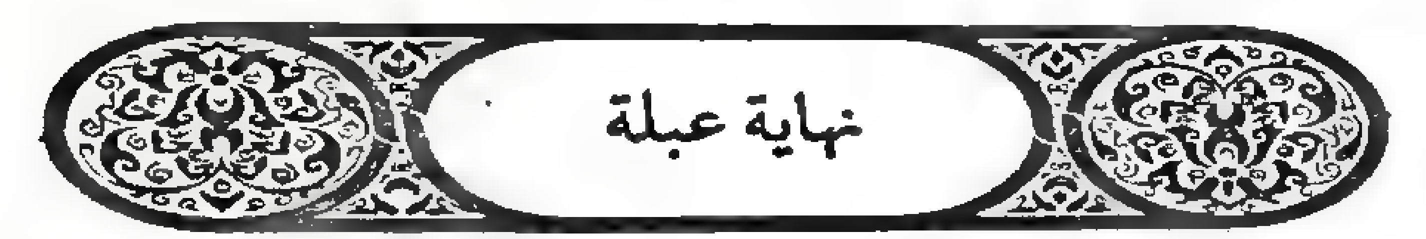
- اطلعي فوق لتامر أخو غلبان ويقرالك بنص جنيه بس.



نهاية طلال

وافق شافعي على البيع ورفع المبلغ لستمائة ألف، وفي غضون أيام زفت حبيبتي السابقة لطلال وأقامت بفيلته في المهندسين ترفل في الحرير والمجوهرات وتحتضن جسده الأملس كل ليلة لترتوي الحب من هذا المتصابي عاشق اللباس الحريمي، كانت نادين تشعر بالرعب من مظهره حين يخرج عليها لابسًا سونتيان أو سروالاً حريمي شفاف، اشتكت لأبيها فنهرها وأخبرها أنه طالما رجل فلا شيء آخر يهم، كان الرعب يصيبها كل ليلة منه لدرجة أنها بدأت تتهرب منه بشتى الطرق، فالموضوع ليس نكتة، إنه زواج من كهل خليجي له ميول أقرب ما تكون للجنون خصوصًا وأنه يصر على المضاجعة أمام المرآة وهو الشيء الذي جعل نادين تكره عينيها نفسها، أما طلال

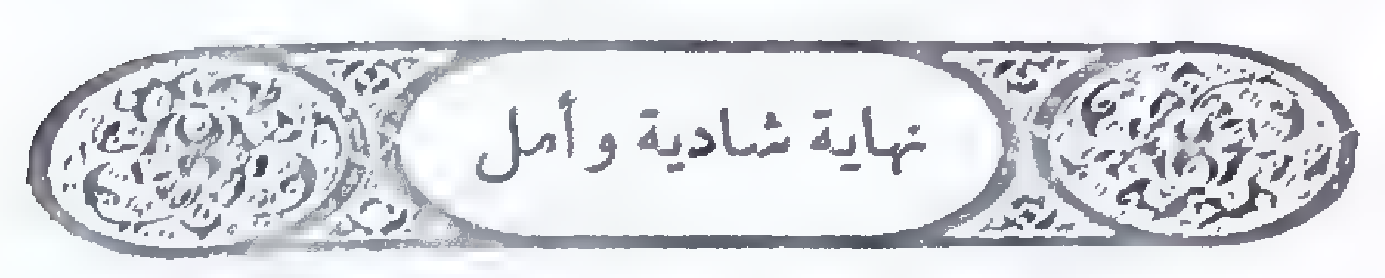
لقد شعر بالاكتئاب أكثر وهو يبصر جمالها الأخاذ وتحريه مشاعر الغيرة منها مما حدا به معاملتها بطريقة سيئة بل وأصبح يذهب يوميًا للكباريه تاركًا إياها في البيت مع الخادمة الفلبينية، لقد أتم جعفر تخطيطه وحصل فعلاً على ملكية الملهى وأطاح بعرش الحاجة شوشو التي لزمت دارها ووقعت تحت تأثير المرض والحسرة حتى تلاشى وجودها من أفق الفن تمامًا وماتت نفسيًا قبل أن تتوفى فعليًا بعشر سنوات كاملة. أما الحياة في بيت طلال أشبه بالعقاب الإغريقي فهي ترفل في النعيم وتلعب دور الدمية الجنسية لشخص غير متزن وبدا في الأيام التالية أكثر اهتزازًا كانت تراه لا ينام ويمتد سهره للنهار ولا يغفو إلا ربع ساعة يستيقظ بعدها مذعورًا، ساءت الحال أكثر مع أن الأطباء أخبروه بأنه سليم وكل ما يعاني منه هو بعض الاكتئاب، حدثت نادية أباها الذي أشار عليها بأنه ممسوس أو مسحور فهذه لم تكن طبيعة الرجل، أصبح يغيب خارج المنزل كثيرًا حتى تم القبض عليه في شقة مشبوهة مع خمس عاهرات والطامة الكبرى أنهم قبضوا عليه وهو يلبس بدلة رقص كاملة. تداولت الصحف المصرية أخبار الخليجي صاحب الميول الشاذة وعرضت صورته في الخبر مع شريط أسود على عينيه يعني لقد تشبعت وامتلأت تشفي وشماتة فيه، وعادت نادين لشارع محمد علي بمبلغ لا بأس به، ولكنها طردت من الفيلا لأنها مؤجرة وغير مملوكة لطلال رحمه الله، نعم لقد اعتبر أهل طلال أنه مات وتم انفصاله عن عائلته وبقي عالقًا في مصر يمتص الفضيحة ويرشف من نيلها. متكومًا داخل شقته مع تلال من قمصان النوم فهل صدقت سميرة وفعل الشعذاب تأثيره لن أعرف أبدًا.



نهاية عبلة

أما عبلة فلم تيأس من كوارشي وباتت تشدد عليه الرقابة هي وأولادها أنفسهم الذين كانوا يراقبون الأب ويمنعونه من اصطياد أي شاب يحلو في عينه فبات مكتئبًا

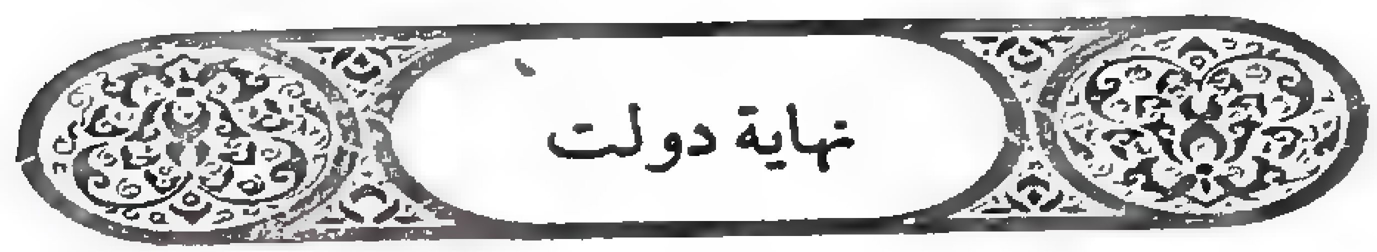
حزينًا منكبًا على ورشته وأخشابه وأصيب بالضغط والسكر وكبر أعوامًا عن عمره الحقيقي ثم بدأ في التوبة والدروشة يخدم في جامع السيدة بكل اخلاص وتحت حماية زوجته وسطوتها عاش بين الدراويش يستغفر ويبكي على ذنوبه وخطاياه.



نهاية شادية وأمل

تزوجت أمل من محمود النمس وعاشت معه شقة أجّرتها بنفسها في شارع خيرت الراقي الذي انتقل إليه محمود تاركًا زوجته الأريبة شادية تصنع جبلاً من الطبيخ كل يوم لأولاده واكتفى بإلقاء جنيهات شهرية. استمر الوضع لشهور لم تجد فيه شادية بدًّا من الثورة.

فما كان منها إلا أن أخذت أولادها التسعة وكسرت عليهم الباب واستقرت مع (أمل) كضُرة لها في حياة لا تطاق مما حدا بها طلب الطلاق والتنازل له عن كل شيء لتعود لأختها وأمها خاوية الوفاض ولكن أبلة كريمة عوضتها بالكثير وزوّجتها لطبال محترم من أبناء جوقتها.



نهاية دولت

أما دولت فقد أتمت زواجها من تاجر مخدرات كبير (رمضان كتكت) هو أخو السيدة التي قابلها في السجن وحلت دولت مكانها في إدارة دولاب المخدرات الذي اشتهر أيامها بدولاب دولت وأصبحت (سمية) هي الذراع اليمنى لدولت وتحولت لمعلمة فائقة القوة واشتركتا معًا في شكم (وليد) وعلاجه وأرسل بأحمد إلى مدرسة داخلية ليرمم من تشققات إدمان الكحول وهكذا الحياة تستمر وهي لا تعدك أبدًا بنهايات مدروسة فالكل منتظم في فلكه يسبح مرة ويغرق مرة ويقاوم مرة.

كان فارق العمر بين دولت و (كتكت) كبيرًا فهو يصغرها بعشرين عامًا، ولكنه أحبها بصدق خصوصًا وأنها موصّى عليها من أخته الكبرى فأكرمها وأكرم أولادها ودعاهم للإقامة معه في حي الجيارة فتركوا شقة السيدة لسميرة تناجي شياطينها وحدها ورحلوا لمملكة (كتكت) في مصر القديمة تاركين كل تاريخهم وذكرياتهم ليبدأوا حياة جديدة في عالم المخدرات.

لقد فرغ البيت عليّ ولم يبقَ إلا أنا وسميرة ساحرة الشبابيك. لم أكن أسمع لها صوتًا كأنها غير موجودة، بات البيت مهجورًا من سكانه تجري فيه رياح الذكرى القريبة بعد أن أغلقت الشقق أبوابها فلا دجاج على الدرج ولا غسيل منشور على السطح ولا أم زينهم ولا دولت، الكل رحل لدنياه الجديدة وبقيت أنا أحاول استذكار دروسي في السنة النهائية الكبيسة على أنفاسي.

لقد خسرت كل مدخراتي في إنتاج هذا الألبوم الذي لم يحقق أي مبيعات على الإطلاق وبتُّ مديونًا بمبلغ من المال ورجعت لشقتي لأخطط من جديد ولأتمم دروسي التي أهملتها، وكالعادة انكفأت على الطبلية وأنا أستذكر دروسي وفي عمق الليل سمعت الطرقات تدق بالتزامن مع الاهتزاز في الأرض:

- افتح أنا نادية..

لم أجفل ولم أرتعش هذه المرة؛ فنادية أليفة طيبة معي لدرجة لا تُصدّق، لقد أمضيت الليالي أسمع حكايتها، كانت تخبرني بأشياء لا يعرفها سوى الأموات وأوصتني بان أتواصل مرة أخرى مع ناجي ففعلت وذهبت له في ليلة فقابلني بمرح وأخرَج لي الألف جنيه وأخبرني أن باقي أعضاء الجمعية متشوقين للقائي فابتسمت وأخذت نقودي منه وحكيت له عن تجربتي في الإنتاج الفني ونصحني بالاستمرار وقبل أن أغادره لبيتي أصرّ على توصيلي للمرة الأولى وعندما عبرنا من أمام تلك الخرابة وقف طويلاً ينظر لأطلالها ثم دمعت عيناه وهو يردّد:

- الله يرحمك يا أمي.

قالها في تمتمة لكنها اخترقت أذني.

- أمك .. نادية تبقى أمك يا ناجي

انحدرت الدموع غزيرة ساخنة على وجهه العملاق.

- أيوه نادية تبقى أمي يا ثامر.

اندهشت لدرجة الصدمة إذًا أنت ابنها حازم.. الذي سافر دون عودة.

- أيوه أنا حازم لكن غيرت اسمي من سنين طويلة ماكنتش عاوز أفتكر الماضي

- ياه ماكنتش أتصور العلاقة دي أبدًا.

- أنا هطلب منك آخر طلب وأرجو إنك تنفذهولي

- أنا حاسس إني عارف الطلب.

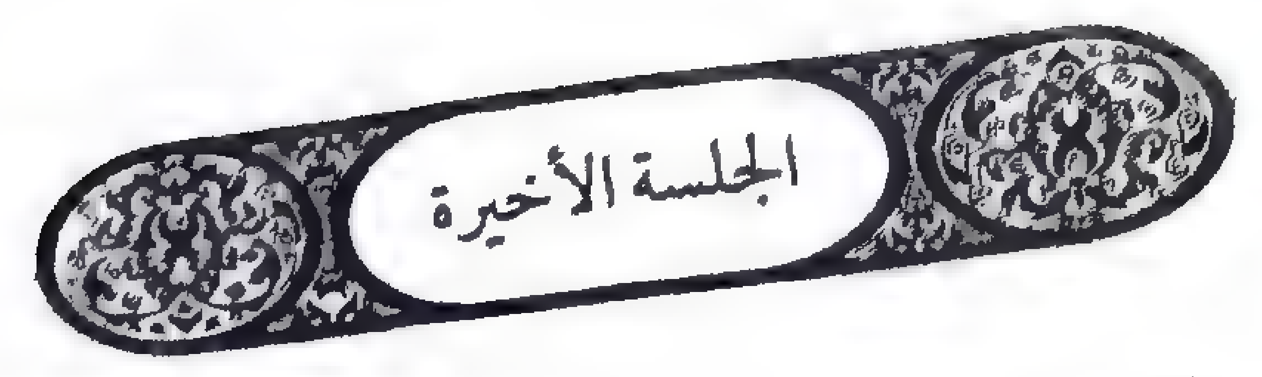
- عاوز أتواصل معاها وأسترضيها.

قشعر بدني وأنا أرى عينه الحمراء وقلقه من رفضي بعدما عرفت الحقيقة

- حاضر يا ناجي أنا هعمله اللي أنت عاوزه بس لما أخلص تحقيقاتي.

- شكرًا





الجلسة الأخيرة

السيدة زينب 1996

تلاقت أطراف أصابعنا فوق المائدة في شقة ناجي، كنا الآن أكثر تناغمًا، شعرت بأهميتي القصوى إذ إنني ألعب الدور الخطير، لقد حان وقت الصلح بين حزين (أقصد ناجي) وأمه.

أحضِري أحضِري أحضِري يا نادية

ابنك حزين يريد رضاك عنه يا نادية

أحضِري أحضِري أحضِري

أنا الآن أخرج من بدني وأستقبل من بعيد روحًا تمشي الهوينى، إنها امرأة رائعة الجمال، ابتسمت لي وبان وهي تهتز، تركتها تدخل وجلست أراقب الجلسة، لماذا لا أرى نفسي وسيمًا كما كنت أظن، إنني أبدو أكثر سماجة وغلظة في عيون روحي لا بُدّ أن روحي هي ما تعطيني الوسامة والرضا، إنني أقول شيئًا ما تدوّنه الأربية (تماضر) الشبيهة بسحلية الأجوانا، اقتربت أكثر لأرى ما أكتبه، أوراق كثيرة وأسماء أكثر، لا بُدّ أنها أسماء أولادهم أشقاء ناجي الذين لا يعرفون عنه شيئًا، ثم لمحت تماضر وهي تكتب، الجثة.. الرماد.. الغرفة الداخلية.. السقف.

فجأة شعرت بالدوار وبأن شيئًا ما يشفطني لدوامة، إنني أشعر بالغثيان وأقاومه يهز رأسي بعنف، بعنف حتى شعرت بأن عنقي سينفصل عن كتفي.

أفقت على صوت ناجي وتماضر.

- ارجع يا تامر ارجع.

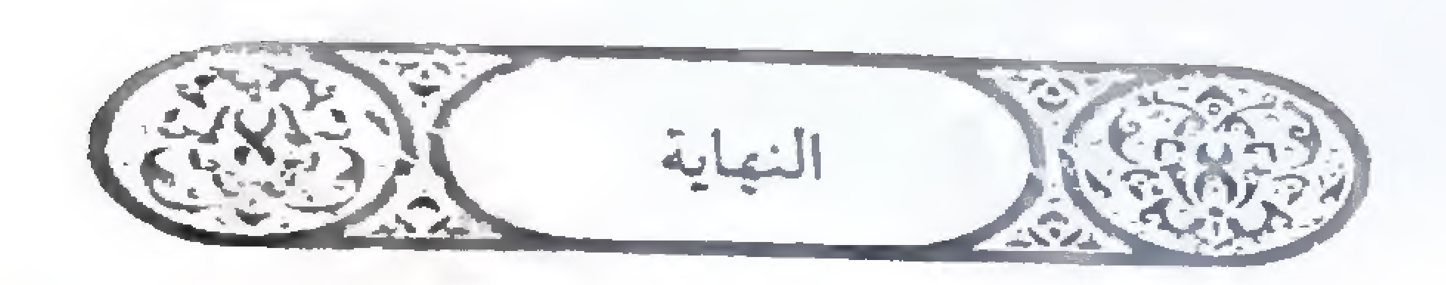
أفقت فوجدت ناجي يبكي بحرقة كبيرة ويقوم ليجري اتصالاته.

ماذا حدث؟ أرجو أن تقولوا لي كل شيء، هذه المرة أنا متماسك وإن كنت أشعر بشيء من الدوار.

لقد كشفت نادية عن سرها، لقد قالته لابنها البكري ناجي..

أنا لم أُدفَن في القبر بل تركوني تحت الرماد، ادفني بطريقة شرعية يا ابني وأكرِم مثواي.

لم يجد ناجي بدًا من التواصل مع إخوته من أمه حتى يتثنى له تنفيذ وصيتها فلن يسمح أحد من الورثة أن يجدوا شخصًا يعبث في أرضهم، لقد اكتشف الأشقاء أن لهم شقيقًا أكبر لم يروه قط. تلاقت العيون وتوحدت روح أمهم فيهم الآن وقرروا البحث في أرض البيت الذي بقي على حاله عشر سنوات، رفع العمال الأخشاب المحترقة والرماد عن الأرض بحثًا عن أي رفات، وجدوا الكثير من جثث القطط التي تفحمت بالذات في الغرفة الداخلية، رفعوا كل رفات القطط بعناية شديدة وواصلوا البحث والتنقيب فوجدوها تحت الفراش متفحمة تحتضن قطتها الكبيرة، الغريب أنهم وجدوها سليمة لم تمسها النار، كل ما فعله الرماد هو تجفيفها لتتحول لمومياء، ما زال شعرها الأحمر طويلاً ملتفًا حول نفسـه، رفع ناجي وإخوته رفات الجثة بعناية كبيرة ووضعوها في صندوق ومعها كل القطط التي وجدوا هياكلها، ورفعو النعش وتوجهو فورًا لمسجد السيدة زينب وأنا معهم.. وقت صلاة الجمعة بالضبط، صلى عليها المئات واستغفروا لها، ثم خرجنا لنودعها مثواها الأبدي في مقابر الغفير، أخيرًا دفنت نادية وبيد ابنها العزيز ناجي الذي تنازل عن كامل حقوقه لإخوته في المنزل، لم يعد سكان الحي يرون الشبح بعد الآن، لقد غادرتهم نادية مع قططها لتستقر في العالم الآخر.



استيقظت من وضعي المنكفئ على طبلية المذاكرة واستفقت على هزة في الأرض.. مَن عساه يأتيني في هذه الساعة المتأخرة من الليل. تذكرت في هلع أن العمارة بالكامل فارغة من السكان وأنني بنفسي أغلق الباب العمومي بالسلسلة الحديدية، توترت وقمت أصيخ السمع، هناك من يطرق بابي بهدوء وإصرار.

اقتربت من الباب وأنا متردد في فتحه، أتكون نادية قد عادت؟

-مين؟ مين اللي بره؟

الصمت الصمت فخرجتُ للسطوح المعتم لأستوضح، الصمت يعم المكان بالكامل والخواء هو موضوع الحدث، وقفت محتارًا إلى أن حدثت الفاجعة الكبرى.

أسمع طقطقة عظيمة تسري متزامنة مع هزات عنيفة في الأرض، انذعرت تمامًا وجريت لشقتي ظنًا مني أنها الأمان، فجأة انشقت أرض السطوح كابسة بصوت عالٍ كله حشرجة على الطابق الثالث. قفز قلبي من صدري، يا الله إن البيت ينهار الآن، ركضت باتجاه الدرج النازل ولكن قبل أن تطأ قدمي درجة

واحدة وجدته يتصدع هو الآخر وينهار على نفسه، الهزات متواصلة وأنا في الأعلى محاصر، أسمع أصواتَ صراخٍ عالية من الجيران وقد تجمعوا بعيدًا عن البيت الآيل للسقوط.

- إلحقوني إلحقوني.

كنت أصرخ وأنا في منتهى الذعر وجريت لنافذتي التي تطل على الخرابة، المكان يهتز بعنف، كانت الخرابة قد أزيلت تمامًا ووضعت مواد البناء من شكائر أسمنت وكومة عظيمة من الرمال، بدأ سقف شقتي في التصدع هو الآخر، إن الموقف خطيرٌ ولا يحتمل، لا بُدّ من القفز قبل أن ينهار السقف على رأسي، صعدت إلى الإفريز وأغمضت عيني، اقفز يا حمار والا ستموت، اقفز، اقفز، إنه قرار لن تعرفوا صعوبته أبدًا، أرضية الشقة أمتصّت لأسفل أيضًا الآن، بيت السيدة يعلن احتضاره، كان الناس في الأسفل يستحثوني على القفز، إنه قرار عصيييييب، أغمضت عيني وقفزت واقفًا، مضت لحظات أحسبها ساعات، انغرست بساقي في طرف كومة الرمال، لقد امتص الرمل الصدمة إلى حدٍّ كبير، الحمد لله الحمد لله هرع بعض السكان ليخلصوني من انغراسي وهم يطمئنوني، البيت ما زال يمارس الترنح الأخير قبل أن يهوي مضغوطًا بالكامل على بعضه، مات البيت ربما حزنًا على مفارقة سكانه، ربما لم يعد يحتمل سخافاتنا وغرورنا، مات بعد أن ترك في نفسي أثرًا وذكرى لا تزول، خرجت للميدان أبحث عن مأوى لأرتاح فيه من أثر الصدمة، لم أجد سوى المسجد الكبير، مسجد السيدة زينب.. هرعت لهنالك أغتسل وأتوضأ وأصلي شكرًا لله على النجاة، قمت من فوري لألثم مقام السيدة وأبكي من الفرحة، عرفت الآن أن أيام السيدة انتهت بالنسبة لي، لم يعد لي فيها مكان، ودعتها وعشت مع ناجي لفترة قبل أن أقرر الانتقال لحي الهرم الراقي، وهناك شهدت الفزع والرعب على أصوله في

(شقة الهرم)، كنت أعرف أنني مُحمّلٌ بطاقة ما، حملتها معي من السيدة، لم تعد نادية تزورني أبدًا، اشتقت لطرقاتها وتمسحها في ساقي وصوتها وهي تأمرني قائلة: (افتح.. أنا نادية).

تمت

السيدة زينب 1996

من منكرات - تامر عطوة